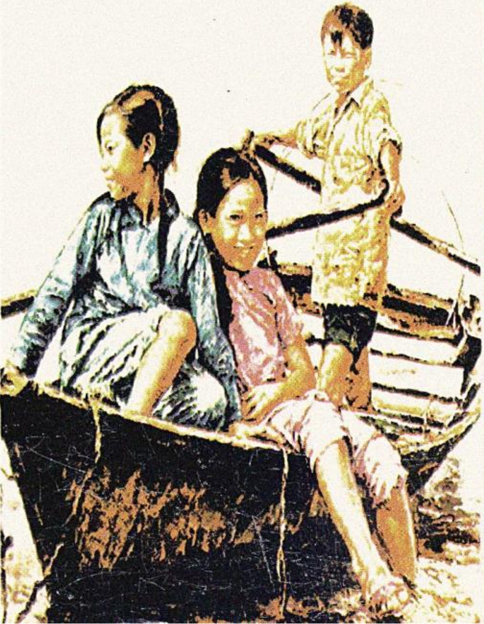
جوستاف لوبون

ميراث الترجمة

روح الاجتماع

ترجمة

أحمد فتحى باشا زغلول



المشروع القومي للترجمة

983

المشروع القومى للترجمة

روح الاجتماع

تأليف : جوستاف لوبون

ترجمة : أحمد فتحى زغلول باشا

المجلس الأعلى للثقافة
٢٠٠٥

المشروع القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

سلسلة ميراث الترجمة
المحرر: طلعت الشايب
- العدد : ٩٨٣
- روح الاجتماع
- جوستاف لوبون
- أحمد فتحي زغلول باشا
- الطبعة الأولى ٢٠٠٥

هذه ترجمة كتاب :

روح الاجتماع

تأليف

الدكتور جوستاف لوبون

ترجمه من اللغة الفرنساوية

أحمد فتحى زغلول باشا

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
Tel. : 7352396 Fax : 7358084.

تهدف إصدارات المشروع القومي للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافاتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلس الأعلى للثقافة .

روح الاجتماع

تأليف

الدكتور جوستاف لوبون

ترجمه من اللغة الفرنساوية

أحمد فتحي زغلول باشا

وكيل نظارة الحقانية

خليل صادق

صاحب مجلة مسامرات الشعب

مطبعة الشعب بشارع درب الجماميز بمصر

سنة ١٣٢٧ هـ — ١٩٠٩ م

روح الاجتماع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله وصحبه وآله

قرأت مؤلفاً جديداً للعالم الفرنساوى المعروف الدكتور جوستاف لوبون صاحب كتاب (تمدن العرب) وضعه فى بيان أحوال الجماعات وما يعرض للفرد مجتمعاً من تغير المشاعر واختلاف النظر وتبدل حكمه فيما يحيط به وسماه (روح الاجتماع) ورأيت فى نقله الى العربية فائدة لأهلها فاستأذنت المؤلف فى ذلك فتفضل بالاجازة

طُلب منى ان أضع مقدمة تشرح بعض الشرح موضوع الكتاب وتبين طرفاً مما اشتمل عليه فترددت كثيراً ثم رأيت أن أترك الشرح والبيان للقراء أنفسهم واذا كنت نقلت الكتاب الى العربية نقلا صادقا صحيحاً فان معانيه تنساب فى نفس قارئيه من دون احتياج الى شرح ولا رجوع الى بيان ؟

احمد فتحى

زغلول

القاهرة فى اكتوبر سنة ١٩٠٩

اهداء الكتاب من المؤلف

الى تيوفيل ريبو مدير المجلة الفلسفية واستاذ علم النفس
في المدرسة الفرنساوية

علامة مودة

جوستاف لوبون

مقدمة المؤلف

خصصنا كتابنا السابق للكلام على الحالة النفسية للشعوب والآن نبحث فى الحالة النفسية للجماعات

تتكون روح كل شعب من مجموع صفات وخلال تتولد فى افراده بالتوارث لكن اذا اجتمع عدد من اؤلئك الافراد للقيام بعمل من الاعمال تولدت عن اجتماعهم هذا أحوال نفسية جديدة ترتكز على أحوال الشعب وقد تختلف عنها فى كثير من الاوقات اختلافاً كبيراً

كان للجماعات المنظمة على الدوام تأثير كبير فى حياة الامم الاّ ان هذا التأثير لم يبلغ فى زمن من الازمان مبلغه فى الزمن الحاضر فقد حلّ فى ايامنا هذه تأثير الجماعات على غير قصد منها محل تأثير الافراد المقصود لاربابه بالطبيعة واصبح من أخص صفات الحياة الحاضرة

وانى أحاول البحث فى موضوع الجماعات على صعوبته بالوسائل العلميــة المحضة أعنى اننى أريد ان اتبع فيــه نسقاً مؤسساً على قواعد العلم غير ملتفت الى الآراء والنظريات والمذاهب الجارية مجرى الامور المسلم بها لأنى أرى أن ذلك هو الوسيلة الوحيـدة لاقتناص بعض شـوارد الحقيقة ولا سيما اذا كان الموضوع مما يشغل الافكار مثل موضوعنا فالعالم الذى يرمى ببحثه الى تقرير أمر من الامور لا يهتم بما عسى أن يصطدم مع هذا التقرير من المنافع والمصالح ـ قال عنى أحد كبار المفكرين وهو موسيو (جوبليه دالفيالا) فى كتاب نشرناه حديثاً انى كثيراً ما خالفت فى نتائج ابحاثى ما اتفق عليـه الباحثون من ارباب المـذاهب العصرية لانى لست تابعاً لواحد منهـا وانى لأرجو ان يكون حظ كتابى هذا من تلك الملاحظة حظ سابقيه اذ الانضمام الى مذهب يقتضى التحيز اليه والتزام ما فيه من الأوهام

على انى أرى من الواجب ان أوضح للقراء السبب فى اننى استخلص من بحثى نتائج تخالف التى يظهر بادئ بدء انها نتائجه اللازمة كتقريرى مثلا انحطاط القوة المفكرة عنـد

الجماعات حتى التى تتألف من نوابغ أهل الفضل وذهابى مع ذلك الى انه من الخطر المساس بها أو العبث بنظامها

ذلك لأن اطالة التأمل فى حوادث التاريخ دلنى دائماً ان المجتمعات الانسانية عويصة التركيب كالأفراد سواء بسواء فليس فى يدنا ان نحولها فجأة من حال الى حال نعم يتفق ان تحدث الطبيعة تغييراً كلياً فجائياً الا ان ذلك لا يكون تابعاً لارادتنا أبداً لذلك كان حب بعضهم للاصلاحات الكلية من اسوأ المؤثرات فى الامم مهما دل النظر على حسنها لانها لا تكون مفيدة الا اذا كان فى الامكان تغيير روح الامة تغييراً فجائياً والزمان وحده هو صاحب هذا السلطان والذى يحكم الناس مجتمعين انما هى الافكار والمشاعر والعادات وكلها أمور موجودة فينا وحينئذ ليست القوانين والنظامات الا صورة من صور النفس العامة التى لنا وممثلة حاجاتها واذا كانت القوانين والنظامات صادرة عن النفس فهى لن تستطيع تغييرها

واعلم انه لا يجوز فصل البحث فى الأحوال الاجتماعية عن البحث فى الامم التى ظهرت تلك الأحوال فيها لأنه ان

صح نظراً ان لهذه الأحوال قيمة مطلقة فن المحقق ان قيمتها عملا نسبية دائماً

. لذلك ينبغى عند البحث فى حال من أحوال الاجتماع ان ينظر اليها من جهتين مختلفتين تماماً وحينئذ ينجلى للباحث ان تعاليم النظر المحض تخالف غالباً تعاليم النظر العملى وليس من النتائج حتى نتائج الابحاث الطبيعية ما يشذ عن هذه القاعدة الأيسيراً انظر الى مكعب او دائرة تجدها من حيث الحقيقة المطلقة صوراً حسابية ثابتة لها صيغ تضبطها ضبطاً دقيقاً لكنها قد تحضر امام العين بصور مختلفة فقد ترى المكعب هرماً او مربعاً وقد ترى الدائرة قطعاً ناقصاً أو خطاً مستقيما ويجب الاهتمام بهذه الصور الصورية اكثر من الاهتمام بتلك الصور الحقيقية لانها هى التى تتراءى امامنا وهى التى يمكن للرسم أو لآلة التصوير ان تنقلها النا ومن هنا جاز القول بأن الصورى حقيقى اكثر من الحقيقى فى بعض الاحوال لان تشخيص الاشكال الهندسية بصورها الحسابية المنضبطة عبارة عن تشويه طبيعتها وجعلها تخفى على الناظرين فلو فرضنا عالماً لا يسعهم الا رسم الاشياء او نقلها بآلة التصوير من دون

ان تمكنوا من لمسها لتعسر عليهم استحضار صورتها الحقيقية في أذهانهم على ان معرفة تلك الصورة الحقيقية من العدد القليل أعني العلماء لا يفيد الاً فائدة صغيرة جداً

اذن وجب على الحكيم الذي يبحث في الاحوال الاجتماعية ان لا يغفل عما لهذه الاحوال من القيمة العملية بجانب قيمتها العلمية وان الاولى هي التي لها شيء من الاهمية في تطور المدنيات وملاحظة ذلك تقتضي الحيطة والحذر من الوقوف عند ما قد يسوق اليه الاستنتاج المنطقي بادئ بدء

وهناك أسباب اخرى تدعو الى هذا الحذر منها ان الاحوال الاجتماعية عويصة مشتبكة يتعذر على الباحث ان يحيط بها كلها وأن يتعرف ما لها من التأثير وما بينها من التفاعل ومنها أن وراء الحوادث الظاهرة مؤثرات خافية كثيرة جداً اذ يظهر ان الأولى ليست الا نتيجة عمل عظيم يقع على غير علم منا وهو في الغالب فوق بحثنا فمثل الحوادث الظاهرة مثل الأمواج المتلاطمة التي تترجم فوق سطح البحر عما هو واقع في جوفه من الاضطرابات التي خفيت عنا ونحن اذا نظرنا الى الجماعات نراها تأتي من الاعمال بما يدل على انحطاط

مداركها انحطاطاً كلياً غير ان لها أعمالا أخرى يظهر انها منقادة فيها بقوة خفية سماها الاقدمون قدراً او طبيعة او يداً صمدانية وسماها أهل هذا الزمان (صوت من فى القبور) وعلى كل حال لا يسعنا ان ننكر ما لها من القوة وان جهلنا كنهها وكثيراً مايظهر ان فى باطن الامم قوى كامنة ترشدها وتهديها انك لاتجد شيئاً اكثر تعقيداً ولا أدق ترتيباً واجمل خلقاً من اللغة وما مصدر هذا الشيء الغريب فى نظامه العجيب فى أسلوبه الا روح الجماعات تلك الروح اللاشاعرة وأعلم المجامع العلمية وأرقى النحويين انما يجهدون النفس فى تدوين قواعد اللغات وهم لاشك عاجزون عن خلقها كذلك لسنا على يقين من ان الافكار السامية التى يحدثها النابغون من فطاحل القوم انما هى عملهم خاصة نعم هم الذين أوجدوها ولكن لا ينبغى أن ننسى ان ذرات التراب التى تراكمت فصارت منبتاً لتلك الافكار انما كونتها روح الجماعات التى وجد اولئك النابغون فيها

تتجرد الجماعات دائماً عن الشعور بعملها وقد يكون هذا هو السر فى قوتها على انا نشاهد فى الطبيعة ان الذوات الخاضعة

لمجرد الالهام تأتى بأعمال دقيقة يحار الانسان فى معرفة جليل صنعها ذلك ان العقل جديد فى الوجود الانسانى وفيه نقص كبير فلا قدرة لنا به على معرفة قوانين الافعال اللاشعورية فما بالك ان حاولنا وضع غيرها فى مكانها ان نصيب اللاشعور فى جميع أعمال الانسان عظيم وافر ونصيب العقل فيها صغير للغاية والأول يعمل ويؤثر كقوة لا تزال معرفتها غائبة عنا

وعليه اذا أردنا أن نقف عند الحدود الضيقة المأمونة فى معرفة الاشياء من طريق العقل ولا نهيم فى أودية التخمينات المبهمة والفرضيات العقيمة لزمنا أن نقتصر على تقرير الحوادث التى تقع تحت حواسنا وكل استنتاج مبنى على هذه المشاهدات بعد ذلك يكون تسرعاً فى غالب الاحيان لانه يوجد خلف الحوادث التى نراها جيداً حوادث لا نراها الا رؤيا ناقصة وقد يكون وراء هذه غيرها مما لا نراه أصلا

تمهيد

زمن الجموع

تطور أهل الوقت الحالى ـ فى ان تغييرات المدنية العظيمة نتيجة أفكار الامم ـ اعتقاد أهل هذا العصر بقوة الجماعات ـ فى ان هذا الاعتقاد يحول الدول عن سياستها التقليدية ـ كيف تسود سلطة طبقات الأمة وكيف تجرى تلك السلطة ـ النتيجة اللازمة لسلطة الجماعات ـ فى أن الجماعات لا تستطيع الا الهدم ـ فى انها هى التى تجهز على المدنية التى وهن بناؤها ـ فى الجهل العام بأحوال الجماعات النفسية ـ أهمية الوقوف على تلك الاحوال عند الشارع والسياسى

—

يخال الناظر فى احوال هذا الكون ان الانقلابات العظيمة التى تتقدم تطور المدنية فى الأمم مثل سقوط الدولة الرومانية وقيام الدولة العربية ناشئة عن تطور سياسى عظيم كاغارة الأمم بعضها على بعض أو سقوط الأسر الحاكمة وهكذا لكن بعد انعام النظر فى هذه الحوادث يتبين ان وراء

اسبابها الظاهرة فى الغالب سبباً حقيقياً هو التغير الكلى فى افكار تلك الأمم فليست التقلبات السياسية الحقيقية الكبرى هى التى تدهش الباحثين بعظمها وعنفها وانما الانقلاب الصحيح الجدير بالاعتبار الذى يؤدى الى تغير حال الامم المدنية يحصل فى الافكار والتصورات والمعتقدات والحوادث العظيمة الخالدة فى بطون التواريخ ليست الا آثاراً ظاهرة لتغير خفى فى افكار الناس واذا كانت تلك الانقلابات العظيمة نادرة الحدوث فذلك راجع الى ان اشد اخلاق الأمم رسوخا عندها هو التراث الفكرى الذى ورثته عن آبائها

واحرج الازمان فى تطور الفكر الانسانى زماننا هذا ولهذا التطور عاملان اصليان

الاول تهدم المعتقدات الدينية والسياسية والاجتماعية التى تتكون منها عناصر المدنية الحاضرة

والثانى قيام احوال جديدة ونشوء افكار جديدة فى الحياة تولدت كلها من الاكتشافات العصرية العلمية والصناعية ولما كان تهدم الافكار القديمة لم يتم فلم تزل قوتها وكانت

الافكار التي ستحل محلها في دور تكونها كان الزمن الحاضر زمن تحول وفوضى

ومن المتعسر ان نتكهن بما قد يتولد يوماً من الايام من هذا الوقت المشوش كما اننا لا نعرف حتى الآن على أي الافكار الاساسية والمبادئ الاولية يقوم بناء الامم التي تخلفنا ولكن الذي نراه منذ الساعة انه سيكون امام تلك الامم قوة عظيمة لا بد لها من الاعتداد بها لانها اكبر قوة وجدت أريد بها قوة الجماعات تلك القوة التي قامت حتى الآن وحدها على أطلال الافكار البالية التي كان الناس يعتقدونها حقائق وماتت وعاشت بعد ان حطمت الثورات المختلفة كل سلطة كانت تتحكم في الناس وهي القوة التي يظهر لنا أن مصيرها ابتلاع ما عداها في القريب العاجل ألا ترى ان معتقداتنا القديمة أخذت تهتز من وهن آساسها وان اساطين المجتمعات القديمة تتداعى وتتحطم وان سلطة الجماعات هي وحدها التي لا يهددها طارئ بل هي تعظم وتنمو وعليه فالدور الذي نحن قادمون عليه هو دور الجماعات لا محالة

كان المؤثر في الحوادث التاريخية منذ قرن واحد هو السياسة

التقليدية للدول ومنازعات ملوكها ولم يكن لرأى الجموع وزن يذكر بل لم يكن له قيمة أصلا فى الغالب — أما الآن فالسياسة التقليدية هى التى أصبحت لا وزن لها ولا أثر للمنازعات الشخصية بين الملوك بل صارت الغلبة لصوت الجماعات فهو الذى يرسم للملوك خطتهم وهو الذى يجتهد الملوك فى الاصغاء اليه وأمسى مصير الامم راجعاً الى ماتحمله روح تلك الجماعات لا الى ما يراه أصحاب مشورة الامراء

فجلوس طبقات الامم على عرش السياسة أعنى تطور تلك الطبقات حتى صارت قادة لدولها هو من أخص مميزات زمن التحول الذى نحن فيه وليس حق الانتخاب العام هو الدليل الصحيح على هذا التطور لان هذا الحق بقى ضعيف الأثر زمناً طويلا وكان فى مبدإ أمره سهل القياد وانما تولدت سلطة الجماعات رويداً رويداً بانتشار بعض الافكار التى رسخت فى الاذهان أولا وبتدرج الافراد فى تكوين الجماعات للوصول الى تحقيق تلك النظريات ثانياً فالاجتماع هو الذى ولد فى الجماعات قوة ادراك منافعها ومع كونه ليس ادراكا تاماً فهو ثابت متين والاجتماع هو الذى جعلها تشعر

بما لها من القوة والسلطان وهذا أصل تأسيس الجمعيات (السنديكات) التى تخضع أمامها السلطات واحدة بعد الأخرى وغرف التجارة (البورصات) التى تطمح الى السيطرة على العمل وأجور العمال وان خالفت فى حكمها قواعد الاقتصاد وأصول تدبير الثروة العامة

والجماعات هى التى تبعث اليوم الى المجالس النيابية لدى الحكومة بوكلاء تجردهم من كل حركة شخصية وكل استقلال فلا يكون لهم من الرأى الا ما رأته اللجان التى انتخبتهم

أخذت طلبات الجماعات الآن تترقى فى مراتب الوضوح وهى لا ترمى الى أقل من قلب الهيئة الاجتماعية الحاضرة رأساً على عقب لترجع بها الى حالة الاشتراك الأولى التى كانت عليها العشائر قبل بزوغ شمس المدنية ـ تطلب الجماعات تحديد ساعات العمل ونزع ملكية المعادن والسكك الحديدية والمعامل والمصانع والاطيان وتطلب توزيع الثمرات بين جميع الناس على السواء واحلال الطبقات الوضيعة محل الطبقات الرفيعة وغير ذلك

الجماعات أقدر على العمل منها على التفكير وقد أصبحت

بنظامها الحاضر ذات قوة كبرى، وعما قريب يكون للمذاهب التى نراها اليوم فى دور التكون من السلطان العظيم على الافكار ما للمذاهب التى رسخت أصولها فى الاعتقادات أعنى سلطاناً مستبداً لا تأثير فوق تأثيره فلا تعود تحتمل البحث أو الجدال وحينئذ يقوم حق الجماعات المقدس مقام حق الملوك الاقدسين

ولقد استولى الهلع على قلوب الكتاب الذين لهم منزلة لدى الطبقات الوسطى فى الامم وهم الذين يمثلون اكثر من غيرهم افكارها الضيقة ونظرها القصير وبأسها غير المبنى على التأمل الصحيح وحب الذات البالغ غايته فخشوا عاقبة ذلك السلطان الجديد الذى اخذ ينمو ويعظم ومالوا الى مقاومة ما استحوذ على الافكار من الاضطراب فولوا وجوههم قبل الكنيسة مستصرخين بسلطانها الادبى وتأثيرها الروحى بعد ان بالغوا فى احتقارها وغالوا فى اهمال جانبها ونادوا بافلاس العلم فى طريق تهذيب النفوس فهم يرجعون من روما تائبين منيبين يدعوننا الى الرجوع للتمسك بحقائق الوحى والتنزيل وفات اولئك المتدينين من جديد ان الوقت قد

فات — واذا صح ان الفيض الالهى اخذ من نفوسهم فانه لن ينال من نفوس جماعات لا نعتد كثيراً بما يقلق ضمائر اولئك الزهاد فلم تعد ترغب فى الأرباب التى رغبوا هم عنها بالامس وكان لهم نصيب فى تحطيمها وليس فى طاقة البشر ولا مما تتعلق به القدرة الالهيـة جعل مياه الانهار تصب فى ينابيعها

ما أفلس العلم ولا ذنب له فى فوضى الافكار التى انتشرت فى هذا الزمان ولا فى سلطة الجماعات التى تمو وسط تلك الفوضى انما العلم وعدنا كشف الحقيقة او على الاقل بيان النسب التى تربط الامور بعضها ببعض مما نقدر على ادراكه لكنه ما وعدنا السلام ولا السعادة ابداً والعلم جماد بالنسبة لمشاعرنا واصم لا يصل اليـه صراخنا وانما نحن الذين يجب عليهم ان يحملوا انفسهم على الاتفاق معه اذ لا شئ يقدر ان يعيد لنا تلك الاوهام التى فرّت امام نوره

توجد علامات عامة ظاهرة فى جميع الامم تدل على سرعة نمو سلطان الجماعات نمواً لا رجاء فى وقوفه آجلا ونحن خاضعون لحكمه حاملون كل ما أنتج بالقهر عنا فكل قول

فيه باطل لا فائدة منه ومن الجائز ان تولى الجماعات قياد الامم يكون خاتمة ادوار مدنية الغرب فيرجع الى الانغماس فى اودية الفوضى التى يخال انه لا بدّ لكل امة من اجتيازها قبل الوصول الى دور الحضارة والرقى ولكن اين السبيل الى منع ما هو كائن

ينحصر الاثر الواضح لعمل الجماعات حتى الآن فى هدم صروح المدنية فالتاريخ يدلنا على انه كلما وهنت القوى الادبية التى يقوم عليها بناء تقدم أمة من الامم كانت خاتمة الانحلال على يد تلك الجماعات الوحشية اللاشعورية التى سميت بحق متبربرة اما الذين أقاموا صروح المدنية وشيدوا أركان الحضارة فهم نفر امتازوا بسمو المدارك وبعد النظر ولكننا لم نر حتى الآن للجماعات أثراً مثل هذا فهى انما تقدر على الهدم والتحطيم وزمان حكمها زمان بربرية على الدوام لان المدنية لا تقوم الا على مبادئ مقررة ونظام ثابت وانتقال من العمل بمقتضى الغريزة الى الاهتداء بنور العقل والبصر بالمستقبل ومرتبة راقية من العلم والتهذيب وتلك وسائل برهنت الجماعات على انها غير اهل لتحقيقها اذا تركت وشأنها ـ ومثل الجماعات فى

قوتها الهادمة مثل المكروبات التي تعجل بانحلال الاجسام الضعيفة وتساعد على تحلل الاجساد الميتة فاذا نخرت عظام مدنية تولت الجماعات نقض بنائها هنالك يظهر شأنها الأول ويخيل لنا بادئ بدء أن العامل في حوادث التاريخ هو كثرة العدد

انا لنخشى ان يكون هذا أيضاً مصير مدنيتنا لكن ذلك الذي لا نعرف منه شيئاً حتى الآن

وكيفما كان الحال فلا مندوحة لنا عن الخضوع لحكم الجماعات لأن ايدياً طائشة أزالت بالتدريج جميع الحواجز التي كانت تمنع من طغيانها

كثر الكلام على الجماعات ونحن لا نعرف من حالها الا يسيراً لأن المشتغلين بعلوم النفس عاشوا بمعزل عنها فجهلوا أمرها على الدوام وانما اشتغلوا بها في الأيام الاخيرة من جهة ماقد ترتكب من الجرائم والآثام نعم توجد جماعات شريرة الا ان هناك ايضاً جماعات فاضلة وجماعات ذات شجاعة وهكذا فالنظر اليها من حيث الشر وحده نظر للشيء من جهة واحدة ولا يتوصل الباحث لمعرفة ادراك الجماعات ببحثه في الجرائم

التى قد تصدر عنها كما انه لا يتوصل الى معرفة ادراك الفرد بالبحث فى عيوبه خاصة

ومع ذلك فان الذين سادوا على العالم وساسوا الأمم والممالك ممن شرعوا الاديان واسسوا الدول ورسل المذاهب كلها واقطاب السياسة حتى رؤساء العشائر الصغيرة كانوا دائماً من علماء النفس وهم لا يشعرون فكانوا يعرفون روح الجماعات معرفة فطرية وكانت تلك المعرفة صادقة فى اغلب الاحايين ومعرفتهم لذلك جيداً هى التى مكنتهم من السيادة عليها كان نابليون وسع الخبرة باحوال الجماعات النفسية فى البلاد التى انبسطت يده عليها ولكنه جهل غالباً روح الجماعات فى شعوب اخر كذلك كان شأن اكبر مستشاريه فانهم ايضاً لم يفقهوا حقيقة حال الجماعات الاجنبية عن امتهم فقد كتب له (تاليران) ان اسبانيا تلاقى جيوشه لقاء المنجدين فلما زحفت اليهم استقبلتهم كما تستقبل الوحوش الكاسرة ولو انه كان على شئ من العلم بما ورثت تلك الأمة من الأميال لسهل عليه معرفة هذا الاستقبال . ذلك هو السبب فى ان نابليون قام فى بلاد الاسبان وفى بلاد الروسيا على الاخص

بحروب كانت عاقبتها التعجيل بسقوطه

معرفة روح الجماعات اصبحت اليوم اخر ملجأ يأوى اليه السياسى العظيم لا لاجل ان يحكمها فقد صار ذلك الآن صعباً كثيراً بل ليخفف عنه شدة تأثيرها

واذا اردنا ان نعرف ضعف تأثير القوانين والنظامات فى الجماعات فانما السبيل الى ذلك تدقيق البحث لمعرفة روحها والوقوف على احوالها النفسية وبذلك نفقه ايضاً انه لاقدرة لها على تكوين رأى او التفكير فى شئ خارج عن الدائرة التى رسمت لها وانها لاتقاد بقواعدالعدل النظرية بل بالبحث عما من شأنه التأثير فيها واختلابها فلو اراد وازع فرض ضريبة جديدة وجب عليه ان لايختار التى هى اقرب للعدل من حيث قواعد الاقتصاد فى ذاتها فربما كان أبعدها عن العدل اكثرها قبولا بالفعل عندالناس فان كانت هذه الاخيرة ايضاً اقل وضوحاً وأخف حملا فى الظاهر كان ذلك ادعى الى قبولها لهذا كانت الضريبة المقررة مقبولة لدى الجمهور كيفما كانت باهظة لانهم يؤدونها تدريجاً على اقسام صغيرة عند شراء حاجاتهم اليومية فهى لاتضيق عليهم فيها الفوه ولا تؤثر فيهم لذلك تأثيراً غير

محمود فاذا بدلت هـذه الضريبة بضريبة الايراد او الاجور بحيث يدفعونها مرة واحدة علت اصوات الشكوى من كل جانب ولو كانت هـذه الضريبة اخف من تلك عشر مرات ذلك لان مبلغاً ذا قيمة ظاهرة حل محل فلس يدفع بالتدريج يوما بعد يوم ووجب اداؤه دفعة واحدة وفى ذلك من موجبات الضجر مالا يخفى ولو انهم اقتصدوه درهما الى درهم لبان لهم ضعفه وما شعروا بثقله لكن هذه وسيلة اقتصادية تقتضى شيئاً من التبصر وذلك مالا تقدر الجماعات عليه

المثال الذى قدمناه من اسهل الامثال ومعرفة صحته ميسورة للكافة وهو لم يغب عن متفرس مثل نابليون لكن المشرعين الذين جهلوا حياة الجماعات لا يدركونه لان التجارب لما تعلمهم ان الناس لا يسيرون ابداً على مقتضى قواعد العقل وحده

ومن السهل الاكثار من الامثلة التى ينطبق عليها علم روح الاجتماع فمعرفة ذلك العلم توضح وضوحاً تاماً عدداً كبيراً من الحوادث التاريخية والاجتماعية يستحيل ادراك حقيقتها بدونه وسأبين فى حينه ان السبب فى كون اكبر

مؤرخي الأعصر الحاضرة واعتنى به المسيو (تاين) لم يفقه تماماً بعض حوادث الثورة الفرنسية انما هو لأنه لم يشتغل بالبحث في روح الجماعات بل استرشد في الكلام على هذا القسم العويص من التاريخ بطريقة الطبيعيين التي هي تصوير الحوادث ووضعها غير ان القوى الادبية ليست مندرجة فيما يبحث فيه الطبيعيون الاّ شذوذاً مع ان تلك القوى هي التي تقوم عليها دعائم التاريخ

معرفة احوال الجماعات النفسية ضرورية سواء اردنا من ذلك جانبها العملي او الرغبة في مجرد الوقوف على ماهو كائن فمن المفيد استكناه اسباب الافعال التي تصدر عن الانسان كما انه من المفيد معرفة حقيقة المعدن او الغراس

سيكون كلامنا في روح الاجتماع موجزاً بمعنى انه سيكون تلخيصاً لمباحثنا فلا يطلبن القارئ منه الاّ بعض افكار ترشد الى غيرها ولغيرنا ان يوغل في الموضوع اما نحن فانما نخططه على أرض لاتزال عذراء(١)

---

(١) قلت ان القايل من العلماء الذين بحثوا في علم روح الجماعات قصروا بحثهم على الجهة الجنائية منها اما انا فلم اخصص لهذه الجهة الا

فصلا صغيراً من هذا الكتاب لذلك ارجع القراء الى مباحث موسيو (تارد) ورسالة موسيو (سيجيل) التى سماها (الجماعات الجارمة) وتشتمل تلك الرسالة بجانب مباحث مؤلفها الخاصة به على ذكر مشاهدات جمعها من مؤلفات غيره مما تفيد مطالعته علماء روح الاجتماع على ان استخلاصته أنا من حيث قوى الجماعات العقلية وقابليتها للشر والجريمة تخالف ما ذهب اليه هذان العالمان على خط مستقيم

وسأنشر عما قريب كتاباً أتكلم فيه على روح الاشتراكية وهنالك تتبين اهمية الكثير من قواعد روح الجماعات على ان تلك القواعد تنطبق على موضوعات اخر تخالف الموضوع الذى نحن بصدده

ومن تلك التطبيقات ماشاهده موسيو (جيفيرت) مدير المتحف الموسيقى بمدينة بروكسل فى رسالة كتبها على الموسيقى وسماها اسماً جديداً بسماه وهو (فن الجماعات) وبعث الى بنسخة منها مع كتاب يقول فيه — ان كتابيك هما اللذان ساعدانى على مسألة كنت أرى قبل الآن حلها مستحيلا وهى قابلية الجماعات قابلية عجيبة لذوق قطعة موسيقية اذا قام بتمثيلها منغنون يقودهم رئيس ذو حماسة قوية سواءكانت تلك القطعة جديدة او قديمة وطنية اواجنبية بسيطة اومركبة وقد ذكر موسيو جيفيرت فى رسالته ان القطعة الموسيقية قد لايذوقها اشهر الموسيقيين الذين يطالعونها بسكينة فى كسر بيتهم ويدركها لاول وهلة سامعون ليس لهم أدنى المام بقواعد الفن واصوله

الباب الأول

روح الجماعات

الفصل الأول

المميزات العمومية للجماعات وقانون وحدتها الفكرية النفسانى

ما الجماعة عند علماء النفس – فى ان مجرد اجتماع عدد كبير من الافراد لايكفى لتكوين جماعة – فى اتحاد وجهة افكار الافراد الذين تتألف الجماعة منهم ومشاعرهم وانعدام شخصياتهم – فى ان الجماعة خاضعة دائماً لحكم اللاشعور – انزواء الحياة الشعورية وظهور الحياة اللاشعورية – انحطاط القوة العاقلة وتغير الاحساس تغيراً كلياً – فى ان ذلك الاحساس المتغير يكون أحسن او اردأ منه فى الاشخاص الذين تتألف الجماعة منهم – سهولة اندفاع الجماعة الى الشجاعة والى الشر

الجماعات بالمعنى المتعارف اللفيف من القوم مطلقاً وان اختلفوا جنساً وحرفة ذكوراً كانوا او اناثاً وعلى اى نحو اجتمعوا. اما فى علم النفس فلها معنى أخر ففى بعض الظروف يتولد فى الجمع من الناس صفات تخالف كثيراً صفات الافراد المؤلف هو منها حيث تختفى الذات الشاعرة وتتوجه مشاعر جميع الافراد نحو صوب واحد فتتولد من ذلك روح عامة وقتية بالضرورة الا انها ذات صفات مميزة واضحة تمام الوضوح ، وحينئذ يصير ذلك الجمع لفيفاً مخصوصا لم اجد لتسميته كلمة اليق من لفظ الجماعة المنظمة او الجماعة النفسية فكأن ذلك اللفيف ذات واحدة وبذلك يصير خاضعاً لناموس الوحدة الفكرية الذى تخضع الجماعات لحكمه

وضح مما تقدم ان مجرد اجتماع افراد كثيرين اتفاقا لا يكسبهم صفة الجماعة المنظمة وان الف نفس اجتمعوا عرضاً فى رحبة واسعة لغير قصد معين لا يكونون جماعة عند علماء النفس بل لا بد فى توفر صفات الجماعة من تأثير مؤثرات مخصوصة سنوضحها فيما بعد

ثم ان اختفاء الذات الشاعرة واتجاه المشاعر والافكار نحو

غرض واحد وهما الصفتان الأوليان للجماعة ابان انتظامهـا لا تستلزمان دائماً وجود اشخاص عـديدين فى مكان واحد بل قـد تتوفر صفة الجمـاعة النفسية لآلاف من الناس وهم متفرقون اذا تأثرت نفوسهـم تأثراً شـديداً بحادث جلل كفاجعة عامة فى الأمة فان اجتمعوا اتفاقا وهم تحت ذلك التأثير لبست اعمالهم ثوب اعمال الجماعات لساعتها وقد تتألف الجماعة من بضعة عشر فرداً وقد لا تتوفر هذه الصفة لمئات اجتمعوا اتفاقاً وقد تصير الأمة كلها جماعة من دون ان يكون هنالك اجتماع ظاهر اذا وقع عليها كلها أثر واحد

ومتى تكونت الجماعة النفسية عرض لها صفات عامة مؤقتة لـكنها ظاهرة يمكن تحـديدها ويقوم بجانب تلك الصفات العامة صفات خاصـة تختلف باخـتلاف العناصر التى تتألف منها الجماعة وربما أثرت هذه الصفات فيما لها من القوة المدركة

وعلى هذا يمكن تقسيم الجماعات النفسية الى انواع وسنوضح عند الـكلام على هذا التقسيم انه يوجد للجماعات التى تتألف من عناصر مختلفة والجمـاعة التى تتألف من عناصر متشابهـة (كالعشيرة والطبقة والطائفة) صفات عامة جامعة وان لـكل

قسم مميزات خاصة به

وقبل الكلام على انواع الجماعات ينبغى ان نأتى على بيان الصفات العامة لنكون حذونا حذو الطبيعيين الذين يذكرون اولا الخواص التى تصدق على جميع افراد كل فصيلة قبل ان يشرحوا الخواص التى تمتاز بها الاجناس والانواع المندرجة فى تلك الفصيلة

ليس من السهل شرح حقيقة روح الجماعات شرحاً دقيقا لان نظامها يختلف اولا باختلاف الشعب وتركيب الجمعيات وثانياً باختلاف طبيعة المؤثرات التى تقع على الجمعيات المذكورة غير ان هذه الصعوبة حاصلة عند البحث فى نفس الفرد الواحد لان الفرد لايحي حياة واحدة لاتتغير الا فى القصص والروايات وغاية مافى الأمر ان وحدة البيئة تحدث وحدة الخلق فى الظاهر ليس الا وقد بينت فى غير هذا المكان ان فى جميع القوى المدركة استعداداً لتوليد اخلاق جديدة تظهر اذاتغيرت البيئة تغييراً فجائياً هكذا رأينا بين رجال الثورة الفرنساوية افراداً كانوا كالوحوش الضارية وقد كانوا فى زمن السلم قضاة من ذوى الفضل او موثقين اولى سكينة

هائئين فلما سكنت العاصفة عادوا الى سكينتهم وكان لنابوليون منهم اعوان مخلصون

ولما كان لا يتيسر لنا ان نشرح هنا نظام الجماعات على اختلاف درجاته وجب ان يكون بحثنا فى التى كمل نظامها فنعرف حينئذ ماقد يؤول اليه امر الجماعات لاماهى عليه دائماً خصوصاً اذا لوحظ ان الجماعة التى وصل نظامها الى حد الكمال الممكن هى التى تحدث لها صفات خاصة جديدة ترتكز على مافى مجموعها من الصفات الثابته التى لعامة الشعب وهى التى تتحد فيها الارادات وتتجه المشاعر نحو مقصد واحد وهى التى يظهر فيها ذلك الناموس الذى سميته فيما تقدم ناموس الوحدة الفكرية للجماعات

ومن الصفات النفسية ماتشترك فيه الجماعة مع الافراد ومنها ماهو خاص بها دون الفرد وسنبدء بالكلام على هذه الصفات الخاصة لنبين مالها من الاهمية

اهم ماتمتاز به الجماعة وجود روح عامة تجعل جميع افرادها يشعرون ويفكرون ويعملون بكيفية تخالف تمام المخالفة الكيفية التى يشعر ويفكر ويعمل بها كل واحد منهم على انفراده وذلك

كيفما كان اولئك الافراد وكيفما تباينوا او اتفقوا فى احوال معيشتهم وفى اعمالهم اليومية وفى اخلاقهم ومداركهم وعلة ذلك مجرد انضمامهم الى بعضهم وصيرورتهم جماعة واحدة ومن الافكار والمشاعر مالا يتولد او يتحول فيخرج من عالم القوة الى عالم الفعل الاّ عند الفرد فى الجماعة فالجماعة ذات عارضة (مؤقتة) متألفة من عناصر مختلفة اتصل بعضها ببعض الى أجل كخليات الجسم الحى التى ولدت باتصالها ذاتاً أخرى لها صفات غير صفات كل خلية منها ورغماً عما ذهب اليه هربرت سبنسر ذلك العالم الحكيم المدقق مما ندهش له نقول انه لا يوجد بين العناصر التى تتكون منها الجماعة حد وسط وانما الذى يوجد هو مزيج وتولد صفات جديدة كما يحدث ذلك فى الجواهر الكيماوية الا ترى انك اذا جمعت جوهرين مثل القواعد والاحماض تولد عن اجتماعهما جسم جديد ذو خواص تخالف تماماً خواص كل واحد من الجوهرين

لذلك كان من السهل معرفة الفرق بين الفرد فى الجماعة وبين الفرد وحيداً غير انه يصعب الوقوف على السبب فى ذلك ولكن يقربنا البحث من معرفة هذه الاسباب

على وجه ماينبغى ان لانغفل عن القاعدة الآتية التى شاهدها علماء النفس فى العصر الحاضر وهى ان للحوادث اللاشعورية فى حركة الادراك الشأن الأول كما انها كذلك فى الحياة الجسمانية وان حياة النفس الشاعرة ليست الا شيئاً يسيراً بجانب حياتها اللاشعورية حتى ان ادق الباحثين تأملا وابعد المحققين نظراً لايسعه ان يقف الا على قليل من البواعث اللاشعورية التى تدفعه الى الحركة بل ان حركاتنا المقصودة لنا او الشعورية مسببة عن مجموع اسباب لاشعورية متولد على الأخص من تأثير الوراثة فينا وهذا المجموع يشتمل على بقايا الاباء والجدود التى لايحصيها العد ومنها تتألف روح الشعب او الامة التى نحن منها فوراء أسباب اعمالنا التى نقصدها اسباب خفية لاارادة لنا فيها ووراء هذه اسباب كثيرة اخر اشد خفاء واكثر غموضاً بدليل اننا لا نفقه شيئاً منها وجلّ افعالنا اليومية صادر عن اسباب خفية تفوتنا معرفتها

يتشابه افراد الشعب بالعناصر اللاشعورية التى تكوّن روحه العامة وهم انما يفترقون بالخواص الشعورية التى هى نتيجة التربية وبالاخص نتيجة وراثة استثنائية واشد الناس

افتراقا من حيث مداركهم يتشابهون بالوجدانات والشهوات والمشاعر واعاظم الرجال لا يتفاوتون عن العامة فى الامور التى مرجعها الشعور كالدين والسياسة والآداب والميل والنفور وهكذا الا نادراً فقد يكون بين الرياضى الكبير وبين صانع حذائه بعد ما بين السماء والارض من حيث العقل والذكاء ولكن الفرق بينهما فى الطباع معدوم فى الغالب او هو ضعيف للغاية

هذه الصفات العامة فى الطباع المحكومة باللاشعورية الموجودة فى جميع أفراد كل أمة بدرجة واحدة تقريباً هى التى لها المقام الاول فى حركة الجماعات فتختفى مقدرة الافراد العقلية فى روح الجماعة وتنزوى بذلك شخصيتهم وبعبارة أخرى تبتلع الخواص المتشابهة تلك الخواص المتغايرة وتسود الصفات اللاشعورية

ولكون الجماعات انما تعمل متأثرة بتلك الصفات الاعتيادية يتبين لنا السر فى عدم قدرتها ابداً على الاتيان بأعمال تقتضى فكراً عالياً وعقلا رجيحاً حتى انك لا تجد فرقاً كبيراً فيما يقرره جمع من نخبة الرجال ذوى الكفاآت المختلفة وما يقرره

جمع كله من البلداء فى موضوع المنفعة العامة لانهم لا يمكنهم ان يشتركوا فى هذا العمل الا بالصفات العادية التى هى لكل الناس فالذى يغلب فى الجماعات انما هى البلاهة لا الفطنة وما كل الناس بأعقل من (فولتير) كما يقولون غالباً بل الواقع ان فولتير أعقل من كل الناس اذا أردنا بكل الناس الجماعات

لكن لو كان كل فرد فى الجماعات لا يأتى لها الا بما اشترك فيه من الصفات مع غيره لكانت النتيجة حداً وسطاً فقط وما تولدت خصال جديدة كما قدمنا فمن أين اذن تأتى تلك الخصال . هذا الذى نبحث فيه الآن

الاسباب التى تولد هذه الصفات الخاصة فى الجماعات دون الافراد كثيرة

الأول ان الفرد يكتسب من وجوده وسط الجمع قوة كبيرة تشجعه على الاسترسال فى امياله مما كان يحجم عنه منفرداً بالضرورة ثم هو لا يكبح جماح نفسه لأن الجماعة لا تسأل عن أفعالها لشيوعها بين جميع الافراد فلا يشعر الواحد منهم بما قد يجره العمل عليه من التبعة وهذا الشعور

هو الزاجر للنفوس عما لا ينبغى

السبب الثانى من الاسباب التى تولد فى الجماعات صفات جديدة وتوحد وجهتها هو العدوى والعدوى من الظواهر التى يسهل بيانها ولكنها ليست مما يتيسر تعليله وهى من فصيلة الحوادث المغناطيسية التى سيأتى الكلام عليها وكل شعور فى الجماعة وكل عمل يصدر عنها فهو معدٍ الى حد أن الفرد يضحى مصلحته الذاتية لمصلحة الجماعة وهذه قابلية مخالفة جداً لطبيعة الانسان فهو لا يقدر عليها خارج الجماعة الا نادراً

السبب الثالث وهو أهمها مما يولد فى افراد الجماعة صفات خاصة مباينة تمام المباينة لصفات كل واحد منهم على انفراده هو قابليته التأثر التى هى أصل فى العدوى السابق الكلام عليها ولسهولة ادراك هذه الظاهرة يلزمنا ان نذكر هنا بعض اكتشافات جديدة دلّ عليها علم وظائف الاعضاء منها انه اصبح من الواضح امكان وضع الشخص بطرق شتى فى حالة يفقد فيها ذاته الشاعرة تماماً فينقاد الى جميع ما يشير به عليه ذلك الذى أذهبها عنه ويرتكب أشد الافعال مباينة لخلقه

وعادته وقد دلّ النظر الدقيق في احوال الجماعات ان الفرد متى أمضى زمناً بين جماعة تعمل لايلبث ان يصير فى حالة خاصة تقرب كثيراً من حالة الشخص النائم نوماً مغناطيسياً بين يدى المنوم وذلك بتأثير السيالات التى تصل اليه من الجماعة او باسباب أخر مما لم تقف عليه بعد وحالة الشخص النائم هى تعطيل وظيفة المخ وصيرورته هو مسخراً لحركات مجموعه العصبي اللاشعورية التى يسيرها المنوم كيف يشاء هنالك تنطفئ الذات الشاعرة تماماً وتفقد الارادة ويغيب التمييز وتتجه جميع المشاعر والافكار نحو الغرض الذى رسمه المنوم

تلك ايضاً على التقريب حال الفرد فى الجماعة فانه فيها لا يبقى ذا شعور بافعاله وبينما هو يعدم بعض ملكاته تشتد فيه قوة البعض الأخر اشتداداً كبيراً كما هو الحال بالنسبة للشخص النائم فتراه عند الاشارة يندفع الى الفعل المشار اليه اندفاعاً لاقبل له بمقاومته وهذا الاندفاع هو عند الفرد من الجماعة اشد بكثير منه عند الشخص النائم لان التأثر حاصل للجميع فيشتد بالتفاعل بينهم والذين قويت شخصيتهم فاستعصوا على الانفعال وسط الجماعة قليلون ولا طاقة لهم

بمصادمة تيار الجميع بل الذى يقدرون عليه هو تحويل الاندفاع الى غرض آخر كما وقع احياناً من ان لفظاً سعيداً او خيالا يمثل فى الوقت المناسب امام الجماعة يصدها عن ارتكاب افظع الاعمال

والخلاصة ان انكماش الذات الشاعرة وتسلط الذات اللاشاعرة واتجاه المشاعر والافكار بعامل التأثر والعدوى نحو غرض واحد والاهبة الى الانتقال فوراً من الافكار التى اشير بها الى الفعل هى الاخلاق الخاصة التى يتخلق بها الفرد فى الجماعة فهو لم يعد هو بل صار آلة لا تحكمها ارادته

ومن اجل ذلك يهبط المرء بمجرد انضمامه الى الجماعة عدة درجات من سلم المدنية ولعله فى نفسه كان رجلا مثقف العقل مهذب الاخلاق ولكنه فى الجماعة ساذج تابع للغريزة ففيه اندفاع الرجل الفطرى وشدته وفيه عنفه وقسوته وفيه حماسته وشجاعته وفيه منه سهولة التأثر بالانماط والصور مما لم يكن يتأثر به وهو خارج الجماعة ثم فيه الانقياد بذلك الى فعل ما يخالف منافعه البديهية ويناقض طباعه التى اشتهرت عنه وبالجملة فان الانسان فى الجماعة اشبه بحبة من رمال تثيرها الريح ماهبت

ذلك هو السر فى أن جماعة المحلفين تصدر قرارات يردها كل من افرادها اذا عرضت عليه وحده وفى ان المجالس النيابية تسن من القوانين وتقرر من الاعمال مايرفضه كل عضو من اعضائها بمفرده . كل واحد من رجال الثورة (كونفانسيون) الفرنساوية كان فرداً متنوراً ذا طباع سليمة فلما صاروا جماعة لم يحجموا عن تقرير افظع الاعمال حتى اسلموا للاعدام اظهر الناس براءة من الآثام ثم خالفوا منافعهم فتنازلوا عن حق احترام الناس فى ذواتهم وحصدوا بذلك بعضهم بعضاً

ليس هذا هو كل مايفترق به الفرد فى الجماعة عن نفسه منفرداً افتراقا كلياً بل انه قبل ان يفقد استقلاله الذاتى تتغير افكاره ومشاعره تغيراً كلياً فيصير البخيل مسرفا والمتردد سريع الاعتقاد والتقى شريراً والجبان شجاعا هكذا قرر الشرفاء لما تحمسوا ليلة ٤ اغسطس سنه ١٧٨٩ الشهيرة التنازل عن امتيازاتهم ومن المحقق انه لو طلب ذلك من كل واحد منهم على انفراده لرفضه رفضاً بتاً

نستنتج مما تقدم ان الجماعة دائماً دون الفرد ادراكا ولكنها من جهة المشاعر والاعمال الناتجة عنها قد تكون خيراً منه

. او ارداً على حسب الاحوال والأمر في ذلك راجع إلى الكيفية التي تستفز بها وهذا هو الذى اهمله الكتاب الذين قصروا بحثهم فى الجماعات على جهة الشر منها فاذا صح ان الجماعة شريرة فى كثير من الاوقات فمن الصحيح ايضاً انها شجاعة فى اوقات كثيرة اخر تلك حال الجماعات التي يستفزها قوادها الى التقاتل فى نصرة الدين او تأييد المذهب او يستحثونها للعمل فى سبيل المجد والفخار فيقودونها بلا تعب وبغير سلاح لتخليص حزب الله من يد الكافرين كما فى حروب الصليبيين او للذود عن حومة الوطن كما وقع فى سنة ١٧٩٣ نعم ذلك الشجاع لا يقر بشجاعته ولكنها هى مادة التاريخ فأنا لو اقتصرنا على تعداد الاعمال العظيمة التي فعلتها الأمم وهى هادئة مطمئنة بما وجدنا من ذلك الا يسيراً

الفصل الثاني

مشاعر الجماعات واخلاقها

—

(١) قابلية الجماعة للاندفاع والتقلب والغضب — الجماعة العوبة فى يد المهيجات الخارجية وهى تمثل تقلباتها المستمرة — البواعث التى تدفع الجماعة الى الفعل قوية جداً تمحى امامها المنفعة الخاصة — لاشىء من افعال الجماعة يصدر عن قصد وروية — تأثير الاخلاق القومية فى الجماعة

(٢) قابلية الجماعة للتأثر وللتصديق — طاعة الجماعة للمؤثرات فى انها تأخذ الخيالات التى تمثل لها حقائق ثابتة — علة اجماع افراد الجماعة على النظر الى تلك الخيالات بكيفية واحدة فى التساوى بين العالم والبليد فى الجماعة — بعض امثلة للخيالات التى يتأثر بها افراد الجماعة كلهم — فى استحالة الاعتقاد بصحة قول الجماعة —

فى ان اتفاق العدد العديد من الشهادات من اردأ الأدلة على اثبات امر معين — ضعف قيمة الكتب التاريخية

(٣) فى غلو مشاعر الجماعة وبساطتها — الجماعة لاتعرف الشك ولا التردد وتذهب دائماً الى التطرف — فى ان مشاعر الجماعة زائدة على الحد دائماً

(٤) فى ان الجماعة قليلة المسالمة ميالة الى التسلط والأمرة والمحافظة على القديم — فى علة تلك الصفات — فى خنوع الجماعة امام السلطة القوية — فى ان نزوع الجماعة الى الثورة وقتا من الاوقات لايمنع من كونها محافظة للغاية — فى ان مشاعر الجماعة تضاد التقلبات والترقى

(٥) فى اخلاق الجماعة — قد تكون اخلاق الجماعة احط كثيراً من اخلاق افرادها وقد تكون ارقى منها كثيراً تبعاً للمؤثرات التى تتأثر بها ـ علة ذلك وامثلته ـ قلما تكون المنفعة باعث العمل عند الجماعة مع انها هى الداعى الوحيد للفرد فى عمله ـ شأن الجماعة فى تهذيب الاخلاق

بعد ان اجملنا القول فى اهم خواص الجماعات ينبغى ان نأتى عليها بالتفصيل

كثير من الصفات الخاصة بالجماعة كقابلية الاندفاع والغضب وعدم القدرة على التعقل وفقدان الادراك

وملكة النقد والتطرف فى المشاعر وغير ذلك يشاهد ايضاً فى الافراد الذين لم يكمل تكوينهم كالمرأة والمتوحش والطفل ولكننى لا اذكر هذه المشابهة الا عرضاً اذ الدليل عليها يخرج عن دائرة هذا الكتاب على ان ذلك غير محتاج اليه لدى من عرف احوال النفس عند الاقوام الذين لا يزالون على فطرتهم الأولى ثم هو لا يقنع من لا المام له بتلك الاحوال أقناعاً تاماً

ولنشرع فى شرح كل صفة من الصفات التى توجد فى اغلب الجماعات

١

قابلية الجماعة للاندفاع والتقلب والغضب

قدمنا عند الكلام فى صفات الجماعة الأوليه انها منقادة عادة الى العمل من دون ان تشعر بالدافع اليه فتأثير المجموع العصبي فى افعالها اكبر جداً من تأثير المخ وهى بذلك تشبه كثيراً الرجال الفطرى وقد تكون الافعال التى تصدر عنها

كاملة من حيث التنفيذ الاّ ان العقل لم يكن رائدها فيها بل ان الفرد فى الجماعة يعمل طوعا للمؤثرات التى تدفعه الى الفعل فالجماعة العوبة فى يد المهيجات الخارجيه وهى تمثل تقلباتها المستمرة وحينئذ هى مسخرة للمؤثرات التى تقع عليها نعم قد يقع الرجل منفرداً تحت تلك المؤثرات عينها لكن عقله يرشده الى مضارها فلا ينقاد لحكمها وذلك ماقد يعبر عنه علماء وظائف الاعضاء بان فى الرجل وحده قدرة يتمكن بها من ضبط اعصابه دون الجماعة اذ ليس لها شئ من ذلك

تتبع الدوافع المختلفة التى تبعث الجماعة الى الفعل طبيعة المؤثرات التى ترجع اليها فتكون رحيمة او قاسية عليها مسحة الاقدام او الخمول لكنها تكون على الدوام شديدة فلا تثنيها المنافع الذاتية حتى منفعة حفظ الذات نفسها

ولما كانت انواع المؤثرات فى الجماعة مختلفة جداً وكانت الجماعة تخضع لها دائماً لزم ان تكون الجماعة متقلبة كذلك وهذا هو السبب فى انها تنتقل فجأة من افظع الاعمال الى اكبرها رحمة وكرماً فما اسهل ماتصير الجماعة جلادة ولكن ما ايسر ماتكون ضحية ايضاً وما سالت الدماء التى اقتضاها

تأييد كل عقيدة فى الوجود الا من بطون الجماعات ولسنا فى حاجة الى ان نذهب بعيداً فى التاريخ لنعلم ماتقدر عليه الجماعات فى هذه السبيل فما ساومت على حياتها فى ثورة ومنذ اعوام قليلة ذاعت شهرة أحد القواد فجأة فى الناس ولو انه اراد لوجد مائة الف نفس مستعدة لملاقاة الموت انتصاراً له (١)

وعلى ذلك لايوجد من افعال الجماعة ماهو صادر عن قصد وروية فهى تنتقل من شعور الى شعور وهى على الدوام خاضعة لتأثير الشعور المستحوذ عليها وقت الفعل مثلها فى ذلك مثل اوراق الشجر تحملها العاصفة وتبددها شذر مذر ثم تسكن فتهبط وسنأتى بامثلة على تقلبات الجماعة عند الكلام على بعض الجماعات الثورية

وشدة تقلب الجماعة تجعل قيادها صعباً على من يزاوله

---

(١) يشير المؤلف الى الجنرال بولنجيه أحد رؤساء الجنود الفرنساوية فى العقد التاسع من القرن الماضى حيث أصبح كالنار على علم شهرة وقولا والتفت حوله القلوب التفافاً دعاه الى الهرب من جميع الاحتفالات العمومية خيفة الهرج والافتتان به ولولا انه عاجلته المنية لجدد زمان نابوليون وأتى الفرنساويون تحت أمرته مالم يكن فى الحسبان

خصوصاً اذا وقع فى يدها قسط من السلطة العامة ولولا ان مقتضيات الحياة اليومية تفعل فى الامور كمنظم خفى لتعسر جداً الابقاء على الديمقراطية (الحكومات النيابية) الا انه بقدر ما تتطرف الجماعة فى ارادة الشئ تسرع بالعدول عن تلك الارادة فانها لاقدرة لها على الارادة المستمرة كما انها لا تقدر على اطالة النظر والتفكير

ليست قابلية الاندفاع والتقلب كل ما تمتاز به الجماعة بل هى مع ذلك كالهمجى لا تطيق وجود حال بينها وما تريد والذى يساعدها على ان لاتعقل الحيلولة ان الكثرة تحدث فيها شعوراً بقوة لاحد لها فتصور المستحيل بعيد عن الفرد فى الجماعة . يشعر الرجل منفرداً بعجزه عن احراق قصر او سلب حانوت فان دفعه دافع قاوم وامتنع فاذا دخل الجماعة أحس بقوة لم تكن له من قبل وتشجع بكثرة العدد وكفى ان يشار اليه بقتل أو سلب لينساب انسياباً لا يثنيه عنه شئ فان كان فى طريقه عقبة اقتحمها بعنف وشدة ولو احتمل تركيب الانسان دوام الغضب لقلنا ان الحالة الطبيعية للجماعة التى خولفت فى مقصدها هى الغضب الدائم

وليلاحظ ان خصال الشعب الاساسية منضمة دائماً الى صفات الجماعات الخاصة من قابلية الغضب والاندفاع والتقلب وجميع المشاعر القومية التى سنأتى عليها فالأولى هى الاساس الذى ترتكز عليه الثانية ولبيان ذلك نقول ان كل جماعة قابلة للغضب والاندفاع لكنها تتفاوت فى ذلك كثيراً فالفرق جلىّ بين جماعة لاتينية وجماعة انكليزية سكسونية واقرب الحوادث فى تاريخنا يوضح ذلك باجلى بيان فقد كفى منذ خمس وعشرين حجة تلاوة نباء برقى عن اهانة فرض وقوعها لسفيرنا حتى هاجت الأمة وثارت ثائرتها وتولد من ذلك لساعته حرب ما كان اشد هولها وبعد ذلك ببضع سنين ورد نبأ أخر بانكسار تافه لجيوشنا فى (لانجسون) فقامت القيامة وسقطت الحكومة فى الحال وفى ذلك الزمن عينه انكسرت الحملة الانكليزية امام الخرطوم انكساراً اكبر من هذا بكثير فلم ينزعج له الرأى العام الانكليزى الا قليلا ولم تتزحزح من اجل ذلك وزارة عن مركزها . كل الجماعات وكل الأمم كالنساء واشدها شبها بها الجماعات اللاتينية فمن اعتمد عليها جاز ان يرقى الى الذرى فى وقت قصير لكنه يكون على الدوام

ممثلا لصخرة زبيان [1] وموقنا انه سيتدهور يوماً من الايام

٢

قابلية الجماعة للتأثر والتصديق

قلنا فى تعريف الجماعات ان من اخص صفاتها قابليتها الشديدة للتأثر وبينا كيف ان التأثر معد فى كل مجتمع انسانى وفى ذلك ايضاح لسرعة توجه المشاعر كلها نحو غرض محدود

وكيفما ظهرت على الجماعات شارات الهدو والسكون فانها على الدوام فى حالة انتظار واستعداد يجعل التأثير فيها سهلا فاول مؤثر يبدو تراه يخضعها لحينه بامتداد عدواه الى رؤوس الكل وفى الحال يحصل اتجاه الجميع نحو الغرض المقصود وسواء كان ذلك الغرض احراق قصر او اتيان عمل كريم فانها تندفع نحوه بسهولة واحدة والأمر انما يتوقف على طبيعة المحرك لا على مايرجحه العقل من وجوب امضاء الفعل

(١) هى صخرة عالية كان يرمى بعض الجناة من حالقها

او لاحجام عنه كما فى الافراد

ولما كانت الجماعة على الدوام محلقة فى حدود اللاشعور تتأثر بالسهولة من جميع المؤثرات وذات احساس قوى كاحساس الاشخاص الذين لاتمكنهم الاستعانة بالعقل ومجردة من ملكة النقد والتمييز كان من شأنها ان تكون سريعة التصديق سهلة الاعتقاد فهى لاتعرف الغير المعقول فليذكر ذلك القراء ليفقهوا السر فى سرعة انتشار الاقاصيص التى تخرج عن حد المعقول [1]

ثم ان سرعة تصديق الجماعة ليس هو السبب الوحيد فى اختراع الاقاصيص التى تنتشر بسرعة بين الناس بل لذلك سبب اخر وهو التشويه الذى يعتور الحوادث فى مخيلة المجتمعين اذ تكون الواقعة بسيطة للغاية فتنقلب صورتها فى

---

(١) الذين شهدوا حصار مدينة باريس يعرفون أمثلة كثيرة من سرعة تصديق الجماعات بما لا يتصوره العقل من ذلك انهم كانوا يرون فى مصباح أوقد فى نافذة احدى المنازل اشارة معطاة للعدو مع ان أقل التفات كان يكفى للاقتناع باستحالة رؤية العدو لضوء ذلك المصباح وهو بعيد عنه بعدة اميال

خيال الجماعة بلا ابطاء لان الجماعة تفكر بواسطة التخيلات وكل تخيل يجر الى تخيلات ليس بينها وبينه ادنى علاقة معقولة وانا لندرك هذه الحال اذا ذكرنا ماقد يتوارد علينا من الافكار الغريبة لمجرد تخيلنا واقعة من الوقائع والفرق بيننا وبين الجماعة ان العقل يرشدنا الى مابين هذه التخيلات وبعضها من التنافر والتباين وانه ليس فى قدرتها ان تصل الى مثل هذا التميز وان كل ما احدثه خيالها من التشويش تضيفه الى اصل الحادثة فهى لاتفرق بين الشئ وما يرمى اليه بل هى تقبل جميع الخيالات التى تعرض لها ولا نسبة فى الغالب بين تلك الخيالات وماوقع تحت الحس اولاً

ولقد كان يجب تعدد صور التشويش التى تدخلها الجماعة على حادثة شاهدتها وتنوع تلك الصور لان امزجة الافراد الذين تتكون هى منهم مختلفة متباينة بالضرورة لكن المشاهد غير ذلك والتشويش واحد عند الكل بعامل العدوى لان اول تشويش تخيله واحد من الجماعة يكون كالخميرة التى تنتشر منها العدوى الى البقية فقبل ان يرى جمع الصليبيين القديس جورج فوق اسوار بيت المقدس كان بالطبع قد تخيله احدهم

اولا [1] فما لبث التأثر والعدوى ان مثلاه للبقية جسما مرئيا

هكذا وقعت جميع التخيلات الاجماعية الكثيرة التى رواها التاريخ وعليها كانت مسحة الحقيقة لمشاهدتها من الألوف المؤلفة من الناس

ولا ينبغى في رد ماتقدم الاحتجاج بمن كان بين تلك الجماعات من اهل العقل الراجح والذكاء الوافر لانه لا تأثير لتلك الصفة في موضوعنا اذ العالم والجاهل سواء فى عدم القدرة على النظر والتميز ماداموا فى الجماعة ورب معترض يقول ان تلك سفسطة لأن الواقع غير ذلك الا ان بيانه يستلزم سرد عدد عظيم من الحوادث التاريخية ولا يكفى لهذا العمل عدة مجلدات غير انى لا أريد ان اترك القارئ امام قضايا لادليل عليها ولذلك سآتى ببعض الحوادث انقلها بلا انتقاء من بين الوف الحوادث التى يمكن سردها

وابدأ برواية واقعة من اظهر الأدلة فى موضوعنا لانها واقعة خيال اعتقدته جماعة ضمت الى صفوفها من الافراد

---

(١) والواقعة مجرد خيال لكنها جرت مجرى الحقيقة لاجماع الصليبين عليها

صنوفاً وانواعا مابين جاهل غبي وعالم المعي رواها عرضاً ربان السفينة جوليان فيليكس في كتابه الذى الفه في مجارى مياه البحر وسبق نشرها في (المجلة العلمية) قال

كانت المدرعة (لا بل پول) تبحث في البحر على الباخرة (بيرسو) حيث كانت قد انفصلت عنها بعاصفة شديدة وكان النهار والشمس صافيـة وبينما هى سائرة اذا بالرائد يشير الى زورق يساوره الغرق فشخص رجال السفينة الى الجهة التى أشـير اليها ورأوا جميعاً من عساكر وضباط جلياً زورقاً مشحوناً بالقوم تجره سفن تخفق عليها أعلام اليأس والشدة كل ذلك كان خيالا فقد انفذ الربان زورقاً صار ينهب البحر انجاداً للبائسين فلما اقترب منهم رأى من فيـه من العساكر والضباط اكداساً من الناس يموجون ويمدون ايديهم وسمعوا ضجيجاً مبهماً يخرج من أفواه عدة حتى اذا وصلوا المرئى وجدوه اغصان اشجار مغطاة باوراق قطعت من الشاطىء القريب واذ تجلت الحقيقة غاب الخيال

هذا المثال يوضح لنا عمل الخيال الذى يتولد في الجماعة بحال لا تحتمل الشك ولا الابهام كما قررناه من قبل فهنا

جماعة فى حالة الانتظار والاستعداد وهناك رائد يشير الى وجود مركب حفها الخطر وسط الماء مؤثر سرت عدواه فتلقاه كل من فى الباخرة عساكر وضباطاً

ليس من الضرورى ان تتألف الجماعة من عدد كبير حتى تنعدم فيها حاسة ابصار الاشياء على حقيقتها وتبدل الحقائق بخيالات لا ارتباط بينها وبينها بل متى اجتمع بعض افراد تألفت منهم جماعة لها مالكل الجماعات من الصفات وان كانوا من اكابر العلماء ولبست هذه الصفات كل واحدمنهم فيما هو بعيد عن اختصاصه العلمى وفى الحال تنزوى ملكة التميز وتنطفئ روح النقد فى كل واحد منهم ومن الامثلة الغريبة على ذلك مارواه لنا موسيو (دافى) وهو احد علماء النفس المحققين وقدنشرته حديثاً مجلة (اعصر العلوم النفسية) ويحسن بنا ايراده . دعا اليه موسيو (دافى) عدداً من كبار اهل النظر وفيهم عالم من اشهر علماء انكلترة هو المستر (ولاس) وقدم لهم اشياء لمسوها بأيديهم ووضعوا عليها ختوماً كما شاؤا ثم اجرى امامهم جميع ظواهر فن استخدام الأرواح من تجسيم الأرواح والكتابة على

(الأردواز) وهكذا وكتبوا له شهادات قالوا فيها ان المشاهدات التي وقعت امامهم لاتنال الا بقوة فوق قوة البشر فلما صارت الشهادات في يده اعرب لهم ان ما كان انما هو شعوذة ما ابسطها قال راوي الحادثة : والذي يوجب الدهش والاستغراب في بحث موسيو (داڤي) ليس ابداعه ومهارته في الحركات التي قام بها بل ضعف الشهادات التي كتبها اولئك الشهود الذين كانوا يجهلونها وان الشهود قد يذكرون روايات كثيرة واقعية كلها خطاء وانه لو صح وصفهم الحوادث التي يروونها لتعذر تفسيرها بالشعوذة على ان الطريقه التي استنبطها موسيو (داڤي) بسيطة يندهش الانسان لبساطتها من جراءته على استعمالها ولقد كان له من التأثير في افكار جماعته ماجعلها ترى مالم تكن ترى

ذلك هو تأثير المنوم في المنوم دائماً واذا تبين ان هذا التأثير جائز في عقول سامية بعد ان أنذرت فكم يكون من السهل التأثير في عقول الجماعة العادية

والامثلة التي من هذا القبيل لاتحصى . انا اكتب هذه السطور والجرائد ملأى بذكر غرق ابنتين صغيرتين

وانتشالهما من نهر (السين)

عرضت الجثتان فعرفهما بضعة عشر شخصاً معرفة أكيدة واتفقت اقوالهم اتفاقاً لم يبق معه شك في ذهن قاضي التحقيق فرخص بدفنهما وبينما الناس يتهيأون لذلك سافر القدر البنتين اللتين عرفهما اولئك الشهود بالاجماع وبان انهما باقيتان ولم يكن بينهما وبين الفقيدتين الا شبه بعيد جداً والذى وقع هنا هو بذاته ماوقع في الامثلة التي سردناها . تخيل الشاهد الأول ان الغريقتين هما فلانة وفلانة فقال ذلك وأكده فسرت عدوى التأثير الى البقية

وأول مراتب التأثير في هذه الحوادث وامثالها هو على الدوام مايتولد من الخيال عند احدهم بسبب حضور بعض المشابهات المبهمة في ذاكرته ثم يتدرج من ذلك الى التحول بما تخيل فتنشاء عدوى التأثر بذلك الخيال الأول فاذا كان اول من يقع الحادث تحت حواسه سريع التأثر يكفي ان يكون في الجثة التي تعرض عليه علامة او أثر خاص كالذى قد يكون في الجسم الذى سبقت له معرفته ليتخيل انها هي ولو لم يكن بينهما ادنى شبه حقيقي في الخلقة اذ ذاك يصير

الخيال الأول اشبه بنواة ذات تبلور تحتل ساحة الأدراك وتعطل ملكة التميز تماماً . وحينئذ لايرى الانسان الشيء الذي امامه نفسه بل الصورة التي خيلت اليه . ومن هنا نفهم السر في خطأ الامهات اللاتي يخيل اليهن انهن يعرفن جثث اولادهن كما وقع في الحادثة الأتيه وهي وان تكن قديمة العهد لكن الجرائد ذكرتها اخيراً ومنها يدرك القارئ درجة التأثر الذي بينا كيفيته. عرف غلام جثة غلام وكان مخطئاً وترتب على ذلك ان اشخاصاً كثيرين عرفوا الجثة كما عرفها الأول. وحدث على أثر هذه المعرفة المتكررة امر من الغرابة بمكان اذ جاءت امرأة في اليوم الثاني وهي تصيح : ربي انه ولدي . فلما دخلت عليه اخذت تقلب ثيابه فرأت جرحا في الجبهة فقالت نعم هذا ولدي فقدته منذ شهر يوليه الماضي ولقد سرقوه مني ثم قتلوه . وكانت هذه المرأة حارسة باب أحد المنازل واسمها (شافاندريت) ثم جيء بزوج اختها فما وقع نظره على الجثة الا وقال هذا فيليبير . كذلك عرفه كثير من سكان حارته كما عرفه معلم المدرسة اذ رأى في عنقه تميمة من الذهب كانت لديه حجة دامغة على انه هو ابن تلك السيدة.

اجل كل اولئك الناس كانوا مخطئين وبان بعد ستة اسابيع ان الجثة جثة ولد من اهل مدينة (بوردو) قتل هناك وحملته شركة النقل الى باريس (١)

والذى تجب ملاحظته هو ان هذه المعرفة تقع غالباً من النساء أو الصبيان أعنى من الاشخاص شديدى التأثر اكثر من غيرهم. وذلك يدلنا على مقدار قيمة مثل هذه الشهادات امام القضاء. فالواجب ان لا يلتفت الى قول الصبي بحال من الأحوال. يقول القضاة مجمعين ان الانسان فى هذا السن لا يكذب. ولو انهم ارتقوا فى معرفة أحوال النفس درجة لعلموا انه فيه يكذب على الدوام. نعم انهم غير آثمين فيما يكذبون ولكنهم على كل حال يكذبون والا لكان الأولى أن تبنى المقوبات على أحد وجهى الدينار (طره ولا ياز) من ان تبنى على شهادة صبي

ولنرجع الى مشاهدات الجماعة فنقول انها اكثر المشاهدات خطأ وانها فى الغالب عبارة عن خيال فرد واحد سرت عدواه الى الجميع. وقد لا نفرغ من سرد الامثلة التى توجب علينا

(١) اقرأ جريدة (اكلير) — ٢١ ابريل سنة ١٨٩٥

الحذر والحيطة فى الاخذ بشهادة الجماعة . فقد حضر الوف من الناس منذ خمس وعشرين سنة حملة الفرسان فى واقعة (واترلو) ومع ذلك يستحيل معرفة القائد الحقيقى لهذه الحملة نظراً لتناقض اقوال من شهدوها . واثبت الجنرال (ولسلى) الانكليزى فى كتاب نشره اخيراً أن الرواة اخطأوا خطأ فاحشاً حتى الآن فى سرد اهم الوقائع فى حرب (سدام) وهى التى اجمع المئات من الناس على صحتها (١)

---

(١) انى اشك كثيراً فى اننا نعرف حقيقة سير حرب واحدة والذى نعرفه انما هو الغالب والمغلوب واظن انا لا نعرف غير ذلك والذى رواه الدوق (داركور) عن حرب (سولفيرينو) يصدق على جميع الحرب قال : يكتب القواد تقاريرهم بناء على قول المئات من العساكر فيتناولها الضباط المكلفون بتبليغ الاوامر ويعدلون فيها ويحررون النسخة النهائية فيخالفهم رئيس أركان الحرب ويعيد تحريرها من جديد على حسب معلوماته ثم يعرضونها على القائد العام فيصيح بل أنتم مخطئون ويحل محلها غيرها فلا يبقى من الاصل الا يسير وانما حكى موسيو (داركور) هذه الحكاية ليبرهن على ان الوصول الى معرفة حقيقة اشهر الحوادث حتى التى ضبطت لساعتها يكاد يكون مستحيلا

هذه الحوادث تدلنا على قيمة شهادة الجماعات . نعم ان كتب المنطق تعد اجماع العدد الكثير على الشهادة من أقطع الادلة التي يمكن اقامتها لاثبات أمر من الامور ولكن الذي نعرفه من علم أحوال النفس يرشدنا الى انه يجب ان تؤلف كتب المنطق في هذا الموضوع من جديد فالشك كل الشك في الوقائع التي رواها الجم الغفير والقول بأن الامر شوهد في الزمن الواحد من الوف من الشهود هو في الغالب قول بأن الواقع يخالف كثيراً ما اتفق اولئك الشهود عليه

نتج من هذا انه ينبغي النظر الى كتب التاريخ كأنها كتب أملاها الخيال لاحتوائها على روايات وهمية لحوادث اصطحب بالشك وقوعها تحت الحواس واردفت بشروح متأخرة عنها وعليه فان عمل أي عمل كيفما كان رديئاً أولى من قتل الوقت في وضع مثل تلك التآليف

ومن سوء الحظ انه لاثبات للاقاصيص وان سجلت في بطون كتب التاريخ لان خيال الجماعات لا ينفك يغيرها ويحرفها مدى الزمن بدليل ما نعرفه الآن من الفرق العظيم بين يهوذا ذلك الوحش الكاسر الذي جاء ذكره في الانجيل

ويهوذا . له الحب الذى ذكره القديس (تيريز) . وبدليل ان (بوذا) الذى يعبده الصين لم يبق بينه وبين (بوذا) المعبود فى اليابان وجه شبه ما

بل انه لايلزم أن تتعاقب الاجيال لتتغير صور عظماء الرجال فى خيال الجماعات فان هـذا الانقلاب قد يحصل فى بضع سنين . انا شاهدنا قصة اعظم رجال التاريخ تقلبت عدة مرات فى أقل من خمسين عاما . ففى عهد آل (بوربون) كان نابليون رجلا يحب الانسانية حر الافكار صديقاً للضعفاء ولو صدق الشعراء لبقى ذكره فى اكواخهم (الفقراء) زمناً مديداً . وبعد ثلاثين سنة صار البطل الكريم مستبداً سفاكا سالب الحكم والحرية واهلك ثلاثة آلاف الف من النفوس فى سبيل اطماعه . واليوم نحن نشهد صورة جديدة لنابوليون . فاذا انقضى عليه بضع عشرات من القرون داخل الريب علماء ذلك الزمان امام هذه الروايات المتناقضة فى وجود هذا البطل كما يشك بعضهم الآن فى وجود بوذا وقد لا يرون فيه الا خرافة او صورة مكبرة من صورة (هرقل) اليونانى . غير انه سيكون لهم من معرفة روح الاجتماع ما يسرى

الحزن عنهم لقاء هذا الشك وخفاء الحقيقة اذ يعلمون ان التاريخ انما يخلد الخرافة والاقاصيص

٣

غلو مشاعر الجماعة وبساطتها

كيفما كانت مشاعر الجماعة اى سواء كانت طيبة او رديئة فان لها صفتين . بساطة للغاية . وغلواً للنهاية . ومن هذه الجهة يقل الفرق بين الفرد مجتمعاً والرجل الفطرى كما يحصل ذلك أيضاً فى أحوال أخرى . فهو يفقد ملكة التمييز الدقيق . ويرى الاشياء فى جملتها ولا يعرف ضرورة الانتقال من طور الى آخر . ومما يزيد فى غلو مشاعر الجماعة ان كل احساس يبدو فسرعان ماينتشر بعامل التأثر والعدوى . واجماع الكل على قبوله يزيد فى قوته زيادة كبيرة

غلو مشاعر الجماعة وبساطتها يجعلانها لاتعرف الشك ولا التردد . فهى كالنساء تذهب فوراً الى الحد الاقصى . فالشبهة متى بدت تنقلب الى بديهى لايقبل البحث . والرجل منفرد

قد لا يقر على أمر او ينفر منه نفوراً لا يتعدى مجرد الرغبة عنه وأما الرجل فى الجماعة فانه متى نفر انقلب نفوره حقداً شديداً

وتزداد شدة المشاعر غلواً على الاخص فى الجماعة المؤلفة من أفراد غير متشابهين لفقدان تبعة الاعمال من بينهم . فيتولد عندها من المشاعر وتأتى من الاعمال مايستحيل صدوره عن الفرد الواحد . لتحقق كل من عدم وقوعه فى العقاب . وكلما كان العدد كبيراً قوى فيه هذا الاعتقاد وشعر بقوة حاضرة عظيمة . هنالك ينسى الجبان والجاهل والحسود درجة انحطاطهم وضعفهم ويحل محلها خيال قوة وحشية وقتية لكنها هائلة

ومن نكد الطالع ان غلو مشاعر الجماعات يظهر غالباً فى الشر . وتلك بقية مما ورث أهل هذا الزمان عن آبائهم الأولين . وهى مشاعر يرد جماحها الرجل المنفرد المسؤول عن عمله مسوقاً بعامل الخوف من العقاب . وهذا هو السبب فى سهولة قيادة الجماعة الى اقبح درجات التطرف

ومع ذلك ليست الجماعات غير قابلة للقيام باكرم الاعمال

والاخلاص وأرفع الفضائل اذا حسن التأثير فيهـا . بل هى أشد قبولا لذلك من الرجل المنفرد . وسنعود الى هذا الموضوع عند الكلام فى أخلاق الجماعات

وكما ان الجماعة تغالى فى مشاعرها فلا يؤثر فيها الاّ المشاعر المغالى فيها . فالخطيب الذى يريد اجتذاب قلوبها يلزمه الاكثار من التوكيدات الحادة . لان المبالغة والتوكيد والتكرار وعدم التعرض ابداً الى اقامة البرهان على أى قضية كلها وسائل خطابية يعرفها خطباء الاجتماعات العمومية حق معرفتها

تطلب الجماعة من ابطالها الغلو ايضاً فى مشاعرهم فما ينبغى لهم من أجلها ان يفخموا فى ألقابهم ويعظموا من فضائلهم الصورية . وقد شوهد ان الجماعة تطلب من ابطال الروايات فى مراسح الملاهى شجاعة واخلاقاً وفضائل ليست لأحد فى الوجود الحقيق .

والكثير ينسب هـذا الميل لاحوال الملاهى الخاصة التى تولد فى نفوس المتفرجين هذا الشعور . نعم لتنسيق المراسح على نحو مخصوص فن ذو قواعد غير انها قواعد لاتنطق غالباً

على مايقتضيه الذوق السليم والأحوال المنطقية . والواقع ان فن الخطابة فى الجماهير ذو درجة منحطة . الا انه يقتضى صفات مخصوصة وكثيراً ما يحار الاذهان عند تلاوة رواية فى معرفة السبب فى نجاحها . حتى ان مديرى الملاهى انفسهم عند ما تقدم اليهم تلك الروايات يشكون فى نجاحها لأنهم لا يقدرون على الحكم عليها الا اذا لبسوا ثوب جماعة متفرجين (١) . ولو انه أتيح لنا التوسع فى هذا البحث لبينا

---

(١) وبما تقدم ندرك السبب فى ان الرواية الواحدة يرفضها مديرو الملاهى كلهم ثم تمنح فرصة فتشخص فتنال نجاحا دونه كل نجاح ونجاح رواية موسيو (كوبيه) المسماة من (أجل التاج) معروف ومشهور بعد ان رفضها مديرو الملاهى الشهيرة كلها مدى عشر سنين مع علو كعب المؤلف ومنزلته الادبية الكبرى . كذلك رواية لامارتن دى شارلى . أبت الملاهى كلها تشخيصها فاتفق أحد السماسرة المال اللازم لتمثيلها فثلاث مائتى مرة في فرنسا واكثر من الف مرة في بلاد الانجليز ولولا ما قدمناه من استحالة نظر مديرى الملاهى في الروايات نظر جماعة المتفرجين ما فهم كيف جاز ان يصدر عنهم مثل تلك الاحكام او يصدر عنهم مثل ذلك الخطأ الجسيم وهم من كبار الادباء بين أهل الفن ولهم فى تمثيل الروايات منافع

رجحان تأثير الاخلاق القوميـة فى هذا المقام . لان الرواية التى تخلب العقول فى بلد قد لا يلتفت اليها فى بلاد غيرها الا بقدر ما تقضى به المجاملة والاصطلاح لانها لا تحرك فى غير بلدها شجون سامعيها وهو شرط نجاحها

لست فى حاجة الى القول بان مغالاة الجماعات تكون على الدوام فى مشاعرها ولا تتعدى الى قوتها العاقلة ابداً . فقد سبق لى بيان ان مدارك الرجل فى الجماعة تنحط سريعاً انحطاطاً عظيماً ذلك هو ما شاهده ايضاً أحد أفاضل القضاة موسيو (شارد) فى مباحثه عن جرائم الجماعات وعليه فالجماعة انما ترتق او تنحط فى دائرة المشاعر

عدم مسالمة الجماعات وميلها الى التسلط والأمرة والمحافظة على القديم

قلنا ان الجمـاعات لا تعرف من المشاعر الا ما كان متطرفاً

كبيرة من شأنها ان تبعدهم عن الوقوع فيما وقعوا فيه . هذا موضوع لا يسعنى الاسهاب فيه وهو جدير بان يشحذ له قلم رجل يجمع بين فن الملاهى والبراعة فى علم النفس مثل موسيو سرسى

بسيطاً وهي لذلك تقبل ما يلقى اليها من الآراء والافكار والمعتقدات بجملتها او ترفضها كذلك فتأخذها حقائق مطلقة أو ترغب عنها أباطيل مطلقة على ان هذا هو الشأن في المعتقدات التي تتحصل من طريق التلقي لا التي تتصل بالانسان من طريق النظر والتعقل وكل يعرف ما للمعتقدات الدينيـة من التأثير في عدم احتمال المخالف ومن السلطان على النفوس

ولما كان باب الشك غير مفتوح امام الجماعة في كل ما اعتقدت انه حق أو باطل وكانت تشعر شعوراً تاماً بقوتها كانت أمرتها مساوية لعـدم احتمالها . يطيق الفرد المناظرة والخلف . اما الجماعة فلا تطيق ذلك أبداً وأقل خلف يأتي به الخطيب الذي يتكلم في المجتمعات العمومية يتلقاه السامعون بأصوات الغضب والسباب الشديد فان أصر فنصيبه الاهانة والطرد بلا امهال ولولا الرهبة من رجال الشرطة الحاضرين لقتلوه أحياناً

عدم الاحتمال والأمرة شائعان في الجماعات كلها غير انهما يختلفان في كل واحدة منها وهنا ايضاً يظهر لنا أثر الاخلاق القومية المتسلط على جميع مشاعر الناس وافكارهم . فاقصى درجات عدم الاحتمال والأمرة توجد في الجماعات اللاتينية

اذ بلغت عندها الى حد انها أماتت فى الفرد روح الاستقلال التى هى اشد اخلاق الانكليزى السكسونى فلا تهتم الجماعات اللاتينية الا باستقلال المجموع الذى هى منه . واخص مميزات هذا النوع من الاستقلال شدة الميل الى التعجيل باخضاع المخالف فى الرأى لمعتقد الجماعة عنوة وقسراً ذلك هو نوع الحرية الذى عرفه المتطرفون فى كل عصر ولم يكن فى قدرتهم ان يعرفوا سواه

الأمرة وعدم الاحتمال حاستان من الحواس التى تجيد الجماعات معرفتها فهى تدركهما بسهولة وتتلقاهما بسهولة وتعمل على مقتضاهما بسهولة عند الطلب وهى تحترم القوة وتخنع لها ولا تتأثر بالحسنى الا قليلا لانها فى نظرها صورة من صور الضعف ليس الا لذلك لم تمل الى رؤسائها الذين عرفوا بالرفق واللين بل الى الطغاة المستبدين الذين سحقوها . لمثال هؤلاء تقيم الجماعة التماثيل فى كل عصر وأوان واذا تخطت بالاقدام فوق غشوم سقط من عليائه فذلك لأنه فقد سلطانه واندرج فى عداد الضعفاء الذين يحقرون لكونهم لا يخشون . فأعز الابطال لدى نفوس الجماعة من كان شبيها بقيصر يخلبهم جلبابه ويرهبهم

سلطانه ويخيفهم صولجانه

الجماعة فى استعداد دائم للانتقاض على السلطان اذا ضعف وهى تحنى الرأس امام الوازع المنيع فان تناوبه الضعف والقوة عاملته بمقتضى مشاعرها المتطرفة وانتقلت من الخنوع الى الفوضى وثابت من الثورة الى الخنوع

ولقد يخطىء فى ادراك حقيقه الاجتماع من يظن ان الروح السائدة على الجماعات دائما هى الثورة والذى يوجب الشبهة فى ذلك انما هو تعسفها وقسوتها والحقيقة ان انفجار بركان الثورة منها وصدور اعمال التخريب عنها نزعة عرضية تخمد سريعاً لان خضوعها لفواعل الوراثة شديد بقوة تأثير الغرائز الفطرية فهى ميالة كل الميل الى المحافظة على الحال التى هى فيها ومتى تركت وشأنها مات الفوضى وسارت بفطرتها الى الاستكانة والاستعباد هكذا كان اشد القوم تهليلا وترحيباً بالقائد بونابرت هم اشد رجال الثورة تغطرساً وتطرفا لما اجهز جميع الحريات واثقل بيده التى من حديد

ومن الصعب ان نفهم التاريخ لا سيما تاريخ ثورة الامم اذ لم نكن على علم تام بتأصل ميل الجماعات الى المحافظة . تبغى

الجماعات استبدال اسماء نظاماتها وقد تثور الثورة العنيفة للوصول الى ذلك التغيير لكن لب هذه النظامات من حاجات الامة التى تلقتها عن الآباء والاجداد فهى ترجع اليه على الدوام . اما تقلباتها المستمرة فلا تتعلق الا بالمسائل العرضية والحاصل ان عاطفة المحافظة في الجماعات قوية كما هى عند أهل النشأة الاولى . يبلغ احترامها للتقاليد حد العبادة وتبغض أشد البغض بفطرتها كل جديد من شأنه تغيير أحوال معيشتها الحقيقية ولو ان سلطة الدمقراطية بلغت أيام اختراع الصنائع الميخانيكية واكتشاف البخار والسكك الحديدية ما بلغته الآن لاستحال تحقيق هذه المخترعات أو لكان ثمنها كثيراً من الثورات وقتل الالوف من النفوس . فمن حسن حظ الحضارة أن سلطة الجماعات ما بدأت فى الظهور الا بعد ان تم تحقيق الاكتشافات العظيمة العلمية والصناعية .

٥

اخلاق الجماعات

اذا أردنا من كلمة الاخلاق دوام الاحتفاظ بما اصطلح

العموم على مراعاته يقمع النفس عن الاسترسال مع نزعات حب الذات فليست الجماعة أهلا لشيء من ذلك لشدة نزقها وعدم ثباتها لكن اذا أدخلنا ضمن معنى هذا اللفظ التخلق مؤقتاً ببعض الصفات كاهمال الذات والاخلاص والتنزه عن الغاية وتضحية النفس والميل الى الانصاف جاز لنا ان نقول بان الجماعات أهل للتجمل باخلاق عالية .

أما السبب الذى حدا بالقليل من علماء النفس الذين بحثوا فى أحوال الجماعات الى الحكم عليها بانحطاط الاخلاق فهو كونهم قصروا بحثهم على جهة الشر فيها فلاحظوا ان اعمالها من هذه الجهة كثيرة .

نعم هذا هو الغالب فى الجماعات وعلته ان العصور الماضية تركت من شرها وخشونتها بقية اطمأنت فى قلب كل واحد منا والفرد لا يجرأ على الاسترسال مع هذه البقية حذر الوبال الذى تجره عليه . أما الجماعة فغير مسؤولة عن اعمالها فاذا هو انخرط فيها امن العقاب ونشط من عقاله فاتبع هواه . الا ترى انه لما لم يجرأ على الشر مع امثاله مال به الى الحيوان فواصله بالاذى . فشهوة الايذاء عند الجماعة من طبيعة شهوة

الصيد عند المغرمين به فهى تفترس الرجل اذا غضبت فلا تأخذها شفقة ولا يثنيها حنان. وهم يجتمعون زمراً زمراً ليشهدوا بقلوب قاسية كلابهم تمزق بأنيابها الوعل الضعيف والكل فى نظر الحكيم وحش مفترس .

بقى ان الجماعة كما انها اهل لارتكاب القتل والتدمير بالنار وكل انواع الجرائم هى أهل للاخلاص فى العمل ولتضحية المنافع الذاتية والنزاهة بدرجة أرقى مما يقدر الفرد بل هى أقرب منه الى تلبية من يناديها باسم الشرف والفخار او باسم الدين والوطن الى حد المخاطرة بالأرواح وامثلة الصليبين ومتطوعى سنة ٩٣ كثيرة يخطئها العد فى التاريخ فالجماعة دون الفرد اهل لعظائم الاعمال فى باب النزاهة والاخلاص وكم من جماعة تقدمت الى الموت فى سبيل معتقدات وافكار وكلمات كانت تكاد لا تفقه شيئاً من معانيها حتى ان الجماعة التى تقوم بالاعتصاب انما تعتصب لصدور الاشارة بذلك اليها اكثر من ميلها لنيل الزيادة فى الأجر الزهيد الذى اقتنعت به من قبل لأن المصلحة الذاتية قلما تكون سبباً قوياً لحركات الجموع وهى على التقريب السبب الوحيد فى عمل الفرد فليست

هي التي ساقت الجم الغفير من الجموع الى الحروب من دون ان يدركوا السبب فيها ولا الغرض منها ولا هي التي جعلتهم يتساقطون على عجل بين يدى الموت كالقبرة يسحرها الصياد بمرآته فتدنو اليه

حتى الأوغاد كثيراً ما يكون انضمامهم الى الجماعة علة فى ارتقاء الملكات الفاضلة فى نفوسهم وقتاً ما كما لاحظه (تاين) فى قتلة شهر سبتمبر الذين كانوا يلتقطون كل ما وجدوه من الأموال ونفيس المتاع ويقدمونه للجنة مع انه كان من السهل عليهم اخفاؤه كذلك الجماعة التى وجهت على قصر (التويلرى) فى ثورة سنة ١٨٤٨ لم يتناول فرد منها شيئاً من تلك النفائس التى بهرتها وقد كان يكفيه قوت عدة ايام مع كونها كانت شديدة الغضب عنيفة الصخب مرزولة الأثر

نعم تهذيب الجماعة للفرد ليس هو القاعدة المطردة ولكنه كثير الوقوع حتى فى احوال أقل شدة من التى تقدم ذكرها

وقد سبق لنا القول بان جماعة المتفرجين يطلبون من المشخصين أفضل الاخلاق وارفع الفضائل ومن السذاجة ان نقول بأن الجماعة وان تكونت من افراد منحطى الاخلاق تظهر غالباً

منظر الكمال هكذا المنغمس فى الموبقات والديون والوغد يزجرون غالباً اذا رأوا منظراً منافياً للآداب او سمعوا هذراً يعد تافهاً بجانب حديثهم الذى تعودوه فى ندواتهم

ثبت مما تقدم ان الجماعة كما انها تميل الى الدنايا هى اهل للتحلى بأخلاق عالية واذا صح انيكون التنزه فى العمل والجلد والاخلاص المطلق لمبدأ وهمى او صحيح من الفضائل الادبية جاز القول بأن للجماعة فى الغالب من ذلك ما ليس لأعقل الحكماء الا قليلا حقاً هى تزاول تلك الفضائل لا عن قصد ولكن ماضرنا من هذا ونحن لا ينبغى لنا ان نشكو كثيراً من الافعال التى تصدر عن الجماعات بمحض غريزتها الا النادر لأنها لو تعقلت احياناً ورجعت الى منافعها القريبة منها ما قام على وجه البسيطة ركن من اركان الحضارة ولا كان للانسانية تاريخ يتلى

الفصل الثالث

افكار الجماعات وتعقلها وتخيلاتها

—

(١) افكار الجماعات ــ الافكار الاساسية والافكار التبعية ــ في اجتماع الافكار المتناقضة ــ تغير الافكار العالية حتى تصل الجماعات الى ادراكها ــ اثر الافكار في الهيئة الاجتماعية بمعزل عما تشتمل عليه من الحقيقة

(٢) تعقل الجماعات ــ عدم قابلية الجماعات للتأثر بالمعقول ــ درجة تعقل الجماعة منحطة دائماً ــ لا تشابه ولا تلازم بين الافكار التى تجمع الجماعات بينها الا في الظاهر

(٣) تخيل الجماعات ــ شدة تخيل الجماعة ــ انما تتخيل الجماعات بواسطة الصور وهى تتوارد عليها من غير جامعة بينها اصلا ــ انما يشتد تأثر الجماعات من الاشياء بالجهة الخلابة فيها ــ خلابة الاشياء وما فيها من الاقاصيص هما اساس المدنية الحقيقية ــ تخيل الجماعات كان على الدوام قوة رجال السياسة في الامم ــ كيف تبدو الحوادث التى لها قوة التأثير في تخيل الجماعات

١

افكار الجماعات

بحثنا فى كتابنا السابق عن تأثير الافكار فى تطور الامم وبينا ان كل مدنيــة تقوم على افكار اساسـية محدودة قلما تتجدد وشرحنا كيف تمكن تلك الافكار من نفوس الجماعات وكيف انها لا تدخــل عليها الا بالصعوبة وما هى القوة التى تكون لها متى احتلتها ثم اوضحنا كيف ان التقلبات السياسية الـكبرى تحدث غالباً مما يطرأ على هذه الافكار الاساسية من التغيير وذلك كله بالاسهاب والشرح الوافى وعليــه لا نعود الى بسط الـكلام فى هذا الموضوع مرة اخرى وانمـا نوجز القول فى الافكار التى هى من مقدور الجماعات والصورة التى تتناولها عليها

تنقسم هذه الافكار الى قسمين الأول الافـكار العرضيه الوقتية التى تولدها بعض الحوادث لساعتها كولوع بفرد من الافراد او مذهب من المذاهب والثانى الافـكار الاساسية التى تـكتسب من البيئة والوراثة والرأى ثباتا مثـال ذلك

العقائد الدينية فى الماضى، والافكار الدمقراطية والاجتماعية فى الزمن الحالى

فالافكار الاساسية اشبه بالماء الذى يجرى الهوينا فى النهر. والافكار العرضية تشبه الامواج الصغيرة المتغيرة على الدوام التى تضرب وجه ذلك الماء وهى مع قلة اهميتها اظهر أمام العين من سير النهر نفسه

وقد اخذت الآن الافكار الاساسية التى عاش بها آباؤنا فى الاضمحلال شيئاً فشيئاً ففقدت ما كان لها من المتانة والرسوخ وتزعزعت من اجل ذلك النظامات التى كانت تقوم عليها وفى كل يوم تظهر افكار وقتية كثيرة مما ذكرنا الا ان القليل منها هو الذى ينمو وهو الذى يكون له فى المستقبل تأثير كبير

وكيفما كانت الافكار التى تلقى فى نفوس الجماعات فانها لا تسود ولا تتمكن الا اذا وضعت فى شكل قواعد مطلقة بسيطة لتبدو لها فى هيئة صورة تحسنها وهو الشرط اللازم لأن تحل من نفوسها محلا كبيراً وليس بين هذه الافكار المصورة اقل رابطة عقلية من التشابه او التلازم فيجوز ان يحل بعضها

محل بعض كالزجاجات البحرية التي يستخرجها العامل واحدة فواحدة من صندوقها ذلك هو السبب فى قيام الافكار المتناقضة بجانب بعضها عند الجماعات وعلى حسب الاحوال تكون الجماعة تحت تأثير أحد هذه الافكار التى اجتمعت فى مدركتها فتأتى باشد الاعمال تناقضاً وتضاربا

هذه حال ليست خاصة بالجماعات وحدها بل هى تشاهد أيضاً فى الافراد لا فرق فى ذلك بين من لا يزال على الفطرة ومن أشبههم بناحية من نواحى العقل كالذين غلت ثورة الدين فى رؤوسهم بل انى شاهدت ذلك بدرجة توجب الاستغراب عند بعض مستنيرى الهندستان الذين تربوا فى مدارسنا الاوروبية ونالوا جميع شهاداتها فرأيت انه ارتكز على مجموع معتقداتهم الدينية المستديم أو افكارهم الاجتماعية الوراثية مجموع افكار غريبة لا علاقة بينها وبين الاولى وذلك من دون أن تؤثر فيها وكانت هذه او تلك تظهر فى الخارج طبقاً لمقتضى الحال بجميع مشخصاتها من أعمال وأقوال فيبدو الفرد منهم مناقضاً لنفسه كل التناقض على انه تناقض فى الواقع ظاهراً أكثر مما هو حقيقى لان الافكار الموروثة هى

التي لهـا في الفرد قوة تصدر عنها أفعاله وانما تكون أفعال المرء متناقضة حقيقة اذا تجاذبتـه قوتان وراثيتان جاءتا من اختلاط المصاهرة بين عنصرين مختلفين ولا أطيل الكلام هنا على هذه المشاهدات، وان كانت أهميتها في علم النفس كبيرة جداً فاني أحسب أنه يجب لادراكها عشر سـنين يقضيها الباحث سائحاً بين الأمم

ولما كانت الجماعات لا تقبل الافكار الا اذا صارت بسيطة جداً لزم عليه ان هذه الافكار لا تنتشر ولا تصير عمومية الا اذا تغيرت في الغالب تغـيراً تاما واكثر ما يشاهد ذلك في الافكار الفلسفية او العلمية الراقية فانه لا بد من تغيير عظيم فيها حتى تهبط من طبقة الى طبقة الى مستوى الجماعات . ويختلف التغيير باختلاف الجماعات اوالامم التي هي منها وهو على كل حال صيرورتها صغيرة بسيطة فاذا نظرنا الى الجهة الاجتماعية نرى ان ليس من الافكار ما هو راق ومنها ماهو وضيع اذ كيفما كان الفكر جليلا راقياً فانه بوصوله الى الجماعات وتأثيره فيها يتجرد عن رقيه وجلاله

على ان منزلة الفكر لا اهمية لها من الوجهة الاجتماعية اذ

المعول عليه انما هو الاثر الذي ينتج عنه الا ترى ان الافكار الدينية في القرون الوسطى والافكار الديمقراطيه في القرن الماضي والاجتماعية في زماننا هذا ليست رفيعة بمقدار ما قد يظهر فان الفلسفة لا تعتبرها الاّ أغاليط صغيرة ومع ذلك فانه لاحد لاثرها فيما مضى وستكون ولاحد له فيما يأتي ستبقى هي العوامل الاساسية في حياة الدول والممالك زمناً طويلا

ثم ان الفكر وان تغير حتى صار تناوله في مقدور الجماعات لا يظهر أثره الاّ اذا دخل في عداد الغرائز وامتزج بالنفس فصار من المشاعر وهو ما يقتضي زمناً طويلا ولذلك وسائل سنأتي على بيانها في موضع آخر

فلا يتوهمن القارئ ان اثر الفكر يظهر متى تبينت صحته حتى عند ذوي العقول النيرة . يتضح ذلك لمن عرف ضعف تأثير صحة الفكر في السواد الاعظم من الناس بعد ظهورها جلياً . نعم اذا تم الوضوح جاز الاعتراف من السامعين ان كانوا من المستنيرين غير انهم لقرب عهدهم بالايمان لا يلبثون ان ترجعهم فطرتهم الى معتقدهم القديم فاذالاقيتهم

بعد قليل من الايام رايتهم يسوقون اليك حجتهم الأولى في ثيابها الأولى بلا تغيير لأنهم خاضعون لسلطان افكار اصبحت بحكم الزمان ملكات فطرية وهي وحدها الفعالة في موجبات اعمالنا واقوالنا والجماعات لا تشذ عن هذه القاعدة

لكن متى توفرت الوسائل العديدة وتمكن بها الفكر من نفس جماعة كان له قوة لا تعارضها قوة وانتج آثاراً متعددة لا بد من الرضوخ لحكمها . قطعت الافكار الفلسفية التي ادت الى الثورة الفرنساوية في سيرها نحو نفوس الجماعات ما يقرب من مائة عام وكل يعلم مقدار قوتها الجارفة بعد ان تمكنت منها . هبت امة بتمامها لنيل المساواة الاجتماعية وتحقيق الحقوق المعنوية واقامة صرح الحريات التي تنتهي اليها الآمال فزعزعت التيجان وجعلت عالي الغرب سافله اذ تساجلت الامم بالحروب عشرين عاما وشهدت القارة الاوروبية من سفك الدماء وقتل النفوس ما ينخلع له قلب تيمورلنك وجنكيزخان مشهد لم ير البشر قبله الى اى حد يصل هول الفكر اذا انبثق

وكما ان وصول الافكار الى نفوس الجماعات يقتضي زمناً

طويلا كذلك خروجها منها لهذا كانت الجماعات دائما متأخرة في افكارها عدة اجيال عن الفلاسفة والعلماء وكل رجال السياسة يعلمون اليوم ما في الافكار الاساسية المتقدم ذكرها من الخطأ ولكنهم يعلمون ان سلطانها لا يزال متمكناً لذلك هم مضطرون في قيادة الأمم الى مراعاة مقتضياتها ولما يعتقدوا بشيء من صحتها

٣

تعقل الجماعات

—

لا يمكن القول مطلقاً بأن الجماعات لا تتعقل ولا تتأثر بالمعقول غير ان طبقة الأدلة التي تقيمها هي تأييداً لأمر من الأمور أو التي تؤثر عليها منحطة جداً من الجهة المنطقية فلا يصدق عليها اسم الدليل الا من باب التشبيه

وتلك الأدلة المنحطة مبنية على قاعدة القياس كالأدلة الراقية الا ان رابطة الافكار التي تقرنها الجماعات يبعضها

من حيث المشابهة او التلازم ظاهرية لا حقيقية فهى تتسلسل عندها كما تتسلسل الأدلة فى ذهن الرجل الاسكيماوى الذى عرف بالتجربة ان الثلج وهو جسم شفاف يذوب فى الفم فاستنتج من ذلك ان الزجاج وهو شفاف ايضاً يجب ان يذوب فى الفم وكالمتوحش الذى يتصور ان اكل قلب العدو الشجاع ينقل شجاعته الى الآكل او كالأجير الذى هضم المعلم حقه فقال بأن جميع المعلمين هضامون للحقوق

والحاصل ان تعقل الجماعات عبارة عن الجمع بين اشياء متخالفة لا رابطة بينها الا فى الظاهر والانتقال الفجائى من الجزئى الى الكلى ومن التخصيص الى التعميم بلا تروٍ والادلة التى يقدمها اليها اولئك الذين عرفوا كيف يقودونها كلها من هذا الطراز لانها هى الادلة التى تؤثر فيها بخلاف سلسلة من الادلة المنطقية فانها لا تدركها بحال لذلك صح القول بأنها لا تتعقل او هى تتعقل خطأ وانها لا تتأثر بالمعقول وكثيراً مايعجب الانسان عند مطالعة بعض الخطب من التأثير العظيم الذى احدثته فى سامعيها على مابها من الضعف والركاكة وكأنى بالمتعجب وقد نسى ان تلك الخطب انما صيغت لتؤثر فى الجموع لا ليقرأها

العلماء . فالخطيب الخبير بأحوال جماعته يعرف طريقة استحضار الصور التى تجذبها فاذا نجح فذلك ما أراد ولو ألقيت خطب فى عشرين مجلداً بعد ذلك ما كان لها من التأثير ما احدثته تلك الكليات التى دخلت فى الرؤوس المراد اقناعها

وغنى عن البيان ان عدم قدرة الجماعات على التعقل الصحيح يذهب منها بملكة النقد اى يجعلها غير قادرة على تمييز الخطأ من الصواب وان لا تحكم حكماً صحيحاً فى امر ما . اما الافكار التى تقبلها هى فهى التى تلقى اليها لا التى يناقش فيها والذين لا فرق بينهم وبين الجماعات فى هذا الباب كثيرون وسهولة انتشار بعض الافكار وصيرورتها عامة آتية على الاخص من عدم قدرة السواد الاعظم على اكتساب الرأى من طريق النظر الذاتى

٣

تخيل الجماعات

—

الجماعات كالذوات التى لا تتعقل فى حدة التخيل وفعاله

الدائم وفى قابليتها للتأثر الشديد فالصورة التى تحضرها من انسان او واقعة او رزء تكاد تؤثر فيها كما لو كانت الحقيقة بعينها وحال الجماعات اشبه بحال المنوّم الذى تقف فيه حركة العقل هنيهة فتحضر فى ذهنه صور مؤثرة جداً لكنها تزول بمجرد التأمل فيها ولما كانت الجماعات لا تعرف التعقل ولا التأمل كانت كذلك لا تعرف ان شيئاً ما غير معقول وغير المعقول هو الاشد فعلا فى النفس غالباً

لهذا كانت الجهة الغريبة والقصصية مما يقع تحت حواس الجماعة اكبر مؤثر فيها واذا دققنا النظر فى حضارة ما وجدناها انما تقوم على الغريب والقصص كذلك التاريخ للظاهر فيه شأن اكبر من الواقع والوهمى سائد على الحقيقى

لا تتعقل الجماعات الاّ بالتخيل ولا تتأثر الاّ به فالصور هى التى تفزعها وهى التى تجتذبها وتكون سبباً لافعالها

لذلك كان التشخيص فى الملاهى من اكبر المؤثرات فى الجماعات دائماً لأنه يمثل لها الأشياء فى أجلى صورها فكانت عامة الرومانيين ترى السعادة كل السعادة فى العيش والملهى ولا تبتغى بعد ذلك شيئاً وقد مرّت القرون وتعاقبت الدهور

ولم يتغير هذا الخيال الا قليلا ولا يزال التمثيل أكبر مؤثر في الجماعات من كل الطبقات فجميع الحاضرين يتأثرون بمؤثر واحد وان كانوا لا ينتقلون على الفوز من الشعور الى العقل فذلك لان الفرد منهم وان بلغ منه عدم الالتفات للواقع ما بلغ لاينسى انه في عالم الخيال وانه انما ضحك أو بكى متأثرا بحوادث تصورية على انه قد يقع ان الصورة تفعل في النفس فعل المؤثرات الحقيقية فتدفعها الى العمل اذ كثيراً ماسمعنا عن ملهى كان يكثر من تمثيل الروايات المحزنة فكان الحرس يحيط دائما بممثل الخائن الأثيم عند خروجه خوفا عليه من هياج المتفرجين الذين ثارت نفوسهم للانتقام منه لانه ارتكب تلك الجرائم الوهمية وهذا فيما أرى من أكبر الادلة على حالة الجماعات العقلية وبالاخص على سهولة التأثير فيها فللوهمي عليها من ذلك ما للحقيقي تقريباً وهي ميالة ميلا ظاهراً الى عدم التمييز بينهما .

يقوم سلطان الفاتحين وتبنى قوة الممالك على تخيل الامم ولا تنجر الجماعات الا بالتأثير في ذلك التخيل وكل حوادث التاريخ العظيمة كايجاد البوذية وتشييد اركان المسيحية والاسلام

وقيام البروتستانتية والثورة فيما مضى وكاغارة الافكار الاشتراكية المزعجة فى هذه الايام انما هى نتائج قريبة أو بعيدة لتأثرات شديدة فى تخيل الجماعات

ذلك هو العلة فى ان جميع اقطاب السياسة فى كل عصر وفى كل أمة حتى اشدهم استبداداً اعتبروا تخيل أممهم آساساً تقوم عليها قوتهم وما فكروا يوما فى أن يحكموا الناس بدونه

قال نابليون فى مجلس شورى الحكومة (انى اتممت حرب الفندائيين لما تكثلكت واستوليت على مصر اذ اسلمت وتوجت بالظفر فى حرب ايتاليا لانى قلت بعصمة البابا ولو كنت احكم شعباً يهوديا لاعدت معبد سليمان) ويظهر لى انه لم يقم منذ الأسكندر الاكبر وقيصر بين عظماء الرجال من عرف كيف يكون التأثير فى تخيل الجماعات مثل نابليون فقد كان ذلك التأثير همه الدائم مانسيه فى انتصاراته وخطبه واحاديثه ولا فى عمل من اعماله وكان يفكر فيه وهو على سرير موته

فاما كيفية التأثير في تخيل الجماعات فسنذكرها وانما نكتفي هنا بالاشارة الى ان ذلك لا يكون ابدا بمخاطبة الادراك والعقل اعنى بطريقة البحث والتقرير بدليل ان

(انطوان) لم يهج نفوس الامة على قاتل قيصر بقوة البديع وعلم البيان بل اثارها لما قرأ وصية المقتول واشار بالقوم الى جثته

الذى يؤثر فى خيال الجماعات هو مايتمثل لها فى صورة اخاذة جلية مجردة عن الشرح والذيول غير مصحوبة الا بما فيه غرابة او سر مكنون كانتصار باهر او معجزة بالغة او جرم فظيع اوامل دونه الامل فينبغى ان ترى الاشياء جملة على علاتها وان لايوضح منها ابداً لان مائة جرم صغير او مائة رزء صغير لا تؤثر اقل تأثير فى تصور الجماعات لكن جرماواحداً كبيراً او رزءاً كبيراً واحداً يؤثر فيها اثراً شديداً وان قل ضرره كثيراً عن ضرر مائة الرزء كلها وبرهانه ان القوم كادوا لا يشعرون بضرر النزلة الوافدة التى اخنت على باريس منذ بضع سنين فاماتت من سكانها خمسة آلاف نسمة فى بضعة اسابيع لان هذه المقتلة لم تبد امام الجمهور فى صورة بينة بل علموها من الاحصاآت اليومية التى كانت تنشر فى حينها ولو ان حادثا واحداً قتل بسببه خمسمائة بدل تلك الآلاف الخمسة وكان ذلك فى يوم واحد وفى الطريق العام

كما لو سقط برج ايفل لتأثروا منه تأثراً عظيما

انقطعت أخبار أحدى بواخر الاطلانطيق فظن انها غرقت وكان لذلك فى خيال الجماعات تأثير كبير دام ثمانية أيام ودل الاحصاء الرسمى على غرق ٨٥٠ مركب شراعى و٢٠٣ مركب تجارى فى سنة ١٨٩٤ وحدها ضاع معها من الأرواح والأرزاق مالا تقدر قيمته وما هو أكبر من قيمة تلك الباخرة بما فيها لو فقدت ومع ذلك لم يشتغل الناس بهذه الخسارة لحظة واحدة

نتج من هذا ان الحوادث ليست هى التى تؤثر بذاتها فى تخيل الجماعات بل المؤثر هو كيفية وقوعها وكيفية تمثيلها اعنى أنه يجب أن يتكون من مجموعها صورة أخاذة تملأ الفكر وتضيق عليه ومن عرف كيف يؤثر فى تخيل الجماعات عرف كيف يقودها .

الفصل الرابع

الصبغة الدينية التى تتكيف بها اعتقادات

الجماعات

ما هو الشعور الدينى — الشعور الدينى مستقل عن عبادة الالوهية ـ مميزات الشعور الدينى ـ قوة المعتقدات التى لها صبغة دينية ـ امثلة شتى ـ في أن آلهة العامة لم تزل ـ فى الصور الجديدة التى تظهر بها تلك الآلهة ـ الشكل الدينى للالحاد ـ اهمية هذه المبادىء من الجهة التاريخية ـ فى ان الاصلاح او قيام البروتستانتية وواقعة صانت بارتلمى وزمن (الهول) وجميع الحوادث المماثلة هى أثر مشاعر الجماعات الدينية لا أثر ارادة فرد واحد

—

بينا ان الجماعات لا تتعقل وانها تقبل الافكار او ترفضها جملة وانها لا تطيق المعارضة ولا تحتمل المناظرة وان المؤثرات

التي تفعل فيها تحتل منها دائرة الادراك كلها وسرعان ماتنتقل من التأثر الى الفعل وانها اذا حسن التأثير فيها تضحي نفوسها فداء للمقصد التي وجهت اليه وكذلك عرفنا ان مشاعرها شديدة متطرفة فالميل عندها لا يلبث ان ينقلب عبادة والنفور لا يكاد يدخل عليها حتي يصير سخيمة وتلك البيانات العامة تشعر بكنه اعتقاداتها

اذا دققنا النظر فى اعتقاد الجماعات ايام سيادة الأديان او فى أزمنة الثورات السياسية الكبرى كالتي حصلت في القرن الماضي رأينا انها تتصبغ دائماً بصبغة مخصوصة لا يسعنى التعبير عنها بأحسن من تسميتها بالشعور الديني

ولهذا الشعور مميزات بسيطة للغاية كعبادة ذات يتوهم انها فوق الذوات والخوف من القوة الخفية التي تظن لها والخضوع الاعمى لأوامره واستحالة البحث فى تعاليمه والرغبة فى نشرها والنزوع الى معاداة من لا يقول بها ومتى تكيف الشعور بهذه الصفة فهو من طبيعة الشعور الديني سواء كان محله ألهاً لا يرى او معبوداً من الحجر او من الشجر او بطلا من الشجعان او رأيا سياسياً فكله شعور تدخل فيه المعجزات

وخوارق العادات والجماعات ترى ان فى كل ما خلب لبها واسترعى قلبها قوة دونها قوة البشر

وليس المتدين هو الذى يعبد الهاً بل متى اسلم الانسان عقله وارادته وما فيه من حماسة وتعصب لخدمة مبدأ او ذات جعلها غاية مقصوده ومرمى افكاره وأقواله فهو دائن بما توجه اليه

ومن المعلوم ان التعصب وعدم الاحتمال يصاحبان على الدوام كل شعور دينى ويلازمان كل من اعتقد انه ملك ناصية السعادة فى الحياة الدنيا او فى الآخرة وهاتان الصفتان توجدان فى كل جماعة تحركت بأحد المعتقدات فقد كان اليعاقبة زمن (الهول) متدينين كما كان أهل الاضطهاد متدينين ومنبع حماسة الفريقين فى القسوة واحد

كذلك تظهر معتقدات الجماعات بالخضوع الاعمى والتعصب الوحشى والاكراه فى الدعوة وكلها صفات من لوازم الشعور الدينى وما البطل الذى تهلل الجماعة له الا اله فى نظرها . هكذا كان نابوليون مدى خمسة عشر عاماً ولم يكن لمعبود سواه عباد أشد اخلاصاً من الذين عبدوه ولم يسهل على معبود

قيادة النفوس الى حتفها أكثر منه وما كان لآلهة الوثنية والنصرانية سلطان على القلوب أعز من سلطانه

ان جميع موجدى الديانات ومؤسسى المذاهب السياسية لم يقيموها الا لانهم تمكنوا من احداث التعصب الذى يجعل الانسان يرى سعادته فى العبادة والطاعة ويهيئه لأن يهب حياته لمعبوده . هكذا كان الحال فى كل وقت وزمان ولقد أصاب موسيو (فوستان دى كولنج) حيث قال فى كتابه على بلاد الغلوا الرومانية ان الدولة الرومانية لم تدم بالقهر والقوة ولكن بما وجد فى النفوس من الاعجاب بها اعجاباً دينياً قال (ولم يرو لنا التاريخ ان دولة مكروهة من شعوبها دامت خمسة قرون والا لتعذر ان نفهم كيف ان ثلاثين كوكبة من جند الامبراطورية تمكنوا من قهر مائة مليون على الطاعة) انما اطاع القوم لان الامبراطور الذى كان يمثل عظمة الرومان كان يعبد عبادة الآلهة باتفاق فكان له فى كل قرية حتى الحقيرة محراب . وقد سرى فى المملكة من أولها الى آخرها دين جديد مناسكه عبادة القياصرة . وقبل ظهور المسيحية ببضع سنين أقامت بلاد الغلوا كلها وكانت ستين

مدينـة هيكلا للامبراطور (اوغسطس) بالقرب من مدينة (ليون) وكان لقبس هـذا الهيكل المقام الأول في نفوس سكان تلك البلاد ومحال أن يكون الباعث على ذلك كله الخوف أو الخنوع فان الخنوع لا يوجد فى أمة بتمامها ثم هو لا يدوم ثلاثة قرون وما كانت البطانة هى التى تعبد الامـير وحدها بل روما جميعها بل الغلوا كلها بل بلاد الاندلس واليونان وآسيا .

ليس لفاتحى النفوس فى هذا الزمان معابد وهيا كل لكن لهم صور وتماثيل والعبادة التى يعبدون بها لا تخالف كثيراً ما كانوا به يعبدون ومعرفة فلسفة التاريخ تتوقف على اجادة معرفة هذا المبحث فى علم روح الجماعات . من لم يكن الهاً لها فليس شيئاً مذكوراً .

لا يقولن قائل تلك اوهام كانت فى الاعصر الماضية فبددها العقل فى هذه الايام لان العقل لم يكن لينتصر فى محاربة الشعور ابداً نعم لم تعد الجماعات تطيق اسم الالوهية والدين الذى دانت لحكمه ذلك الزمن المديد ولكن معبوداتها لم تكثر كثرتها منذ مائة عام وهى لم تقم للآلهة السابقين من

التماثيل والمحاريب بمقدار ما أقامت لآلهة هذه الايام والذين نقبوا عن الحركة العمومية المسماة (بولنجية) التى حصلت فى السنين الاخيرة يعلم سهولة ظهور الشعور الدينى فى الجماعات ولم يكن من فندق أو قهوة فى قرية الا وفيها صورة البطل وكانوا ينسبون اليه القدرة على رد المظالم كلها ومداواة الآلام كلها وكان الالوف من الناس على استعداد لتضحية حياتهم من أجله ولو كان فى اخلاقه مقوم لشهرته ولو قليلا لنال المكان الأرفع فى التاريخ

لذلك نرى من الفضلة تكرار انه لا بد للجماعات من دين مادامت جميع المعتقدات السياسية او الالهية او الاجتماعية لا تطمئن عندها الا اذا لبثت ثوب الدين الذى يحميها من الجدل ويجعلها فوق بحث الباحثين بل لو أمكن اذخال عدم الإعتقاد فى الجماعات لاشتد تعصبهم فيه كأنه معتقد دينى ولصار فى الخارج دينا يتعبد به الناس ومن الامثلة الغريبة على ما نقول ما كان من امر تلك الفئة القليلة صاحبة مذهب الوضعيين فقد وقع لها ما وقع للرجل العدمى (نهيلست) الذى روى لنا العلامة (رستوفيسكى) قصته قال اشرق ذات

يوم نور المثال على ذلك المدمى فعمد الى صور الآلهة والقديسين التي كانت تزين احد المعابد وحطمها واطفأ الشموع ووضع مكان الصور مؤلفات بعض الفلاسفة الذين لا يعتقدون مثل (بوخنر) و (موليشوت) ثم تولاه التقى فاوقد الشموع حول هاتيك الكتب فحال اعتقاده الديني كان قد تبدل ولكن مشاعره الدينية ما تبدلت ابداً

وعليه لا يدرك الباحث أهم الحوادث التاريخية تمام الادراك الاّ اذا وقف على الصبغة الدينية التي ينتهي حتما اليها اعتقاد الجماعات . ومن الحوادث الاجتماعيه ما ينبغي البحث فيه على طريقة علماء النفس لا على طريقة الطبيعيين فان مؤرخنا العظيم (تاين) لم ينظر في الثورة الغرنساوية الاّ نظراً طبيعياً لذلك فاتته حقيقة الحوادث غالباً نعم لم تفته من الوقائع فائتة ولكنه غفل عن البحث في روح الاجتماع فلم يصل الى علل ما اثبت منها وقد هالته الوقائع بما اشتملت عليه من الدماء والتوحش والقسوة فلم ير في ابطال ذلك الزمن الكبير الاّ قطيعاً من المتبربرين السفاحين انطلقوا وراء شهواتهم ولم يجدوا اماماً يصدهم عما كانوا يشتهون .

على انه لا سبيل لادراك حقيقة ما كان في الثورة الفرنساوية من القسوة وسفك الدماء والحاجة الى نشر الدعوة واعلان الحرب على جميع الملوك الا اذا فطن الباحث انها اي الثورة أثر معتقد ديني جديد حلّ في نفوس الجماعات ومثل ذلك أيضاً كانت قيامة الاصلاح (البروتستانتية) ومقتلة صانت بارتلمي و (الاضطهاد) و (الهول) فكلها فظائع ارتكبتها الجماعات المتحمسة بشعور من شأنه ان يدفع الذي حلّ في قلبه الى استعمال النار والحديد لاستئصال كل ما يعترض قيام المعتقد الجديد من دون ان تأخذه رحمة ولا حنان لذلك كانت وسائل الاضطهاد هي وسائل جميع المعتقدين الحقيقيين ولو انهم استعملوا غيرها ما كانوا من الموقنين

ولا تظهر في الوجود امثال الانقلابات التي مرّ ذكرها الاّ اذا قذفت من جوف الجماعة وليس في استطاعة اكبر المستبدين اثارتها والمؤرخون الذين رووا لنا ان الملك هو السبب في واقعة صانت بارتلمي كانوا يجهلون روح الجماعات وروح الملوك معاً لان مثل هذه المظاهرات لا تخرج الاّ من قلب الجماعات ولا يقدر اكبر الملوك وأشدهم استبداداً على اكثر من

تعجيلها او تأجيلها فليس الملوك هم الذين احدثوا واقعة صانت بارتلمى ولا حروب الدين كما ان (روبسبير) و (دانتون) و (صانت جوست) ليسوا هم الذين احدثوا (الهول) بل نجد على الدوام وراء هذه الحوادث روح الجماعات لا سلطة الملوك .

الباب الثانى

افكار الجماعات ومعتقداتها

—

الفصل الأول

العوامل البعيدة فى معتقدات الجماعات وافكارها

—

العوامل التحضيرية لمعتقدات الجماعات ـ في ان ظهور معتقدات الجماعة نتيجة اختمار سابق ـ البحث عن العوامل المختلفة فى تلك المعتقدات

(١) الشعب وما له من التأثير الاول ـ فى أنه مستودع ما ترك الآباء

(٢) التقاليد وكونها خلاصة روح الشعب ـ اهمية

التقاليد من الجهة الاجتماعية ـ في انها تصير مضرة بعد ان كانت لازمة ـ في ان الجماعات اشد احتفاظاً للافكار التقليدية

(٣) الزمن وكونه يهيء استقرار المعتقدات ثم زوالها ـ في انه هو الذي يولد النظام من الفوضى

(٤) النظامات السياسية والاجتماعية ـ في الخطأ في تقدير تأثيرها ـ في ان تأثيرها ضعيف جداً ـ في انها آثار لا مؤثرات ـ في انه لا يتيسر للامم ان تختار منها ما تظنه الاحسن ـ في ان النظامات عناوين يندرج تحت الواحد منها أمور متخالفة بالمرة ـ كيف توجد النظامات ـ في انه لابد لبعض الامم من بعض نظامات رديئة نظريا كجمع السلطة وتوحيدها

(٥) التعليم والتربية ـ خطاء الناس في أفكارهم الحالية من حيث تأثير التعليم في الجماعات ـ بعض ايضاحات من الاحصاآت ـ التربية اللاتينية تضعف الاخلاق ـ في التأثير الذي يمكن ان يكون للتعليم ـ امثلة عن امم مختلفة

فرغنا من البحث في تركيب القوة المدركة عند الجماعات وعرفنا كيف تشعر وكيف تفكر وتتعقل ونريد الآن أن نبحث في كيفية تولد آرائها واعتقاداتها وكيفية حلول هذه الآراء والمعتقدات واستقرارها في نفوسها

العوامل التي تولد الآراء والاعتقادات في الجماعات قسمان بعيدة وقريبة

فاما العوامل البعيدة فهي التي تهيء الجماعات لقبول بعض المعتقدات دون بعض اعني انها تعد التربة التي تنبت فيها افكار جديدة ذات قوة وأثر مدهشين وظهور تلك الافكار يكون فجأة فقد تشبه في انبثاقها والعمل بها انقضاض الصاعقة الا ان الواقع انها نتيجة عمل سابق طويل ينبغي البحث عنه

واما العوامل القريبة فهي التي تأتي بعد هذا العمل الطويل ولا أثر لها بدونه ووظيفتها تكوين الاعتقاد الداعي الى الفعل اعني انها تقوم الفكر وتقذف به الى الخارج مع جميع ما يحتمل من النتائج فهي التي تدفع الجماعات فجأة الى القيام بما تمكن من نفسها من الاعمال وهي علة القلاقل والاعتصابات والتفاف الجم الغفير حول رجل يرتفع بذلك الى الأوج او ضد حكومة تهبط الى الدرك الاسفل

تتعاقب هذه العوامل بقسميها في جميع حوادث التاريخ العظيمة ففي الثورة الفرنساوية وهي اكبر مثال لتلك الحوادث

كانت العوامل البعيدة هى كتب الفلاسفة وعسف الشرفاء وتقدم العلم وهى التى هيأت روح الجماعات ثم جاءت العوامل القريبة مثل خطب الخطباء ومعارضة الملك فى اجراء اصلاحات لا تعد شيئاً كبيراً وهى التى أثارت الجماعات بالسهولة

ومن العوامل البعيدة ماهو عام بمعنى انه يؤثر فى معتقدات كل جماعة وفى ارائها وهى الشعب والتقاليد والزمن والنظامات والتربية

وسنبحث فى شأن كل واحد من هذه العوامل

١
الشعب

بدأنا به لأن له المقام الأول بين العوامل فله وحده من الأثر ما يربو على آثارها كلها وقد وفينا البحث فيه حقه فى كتابنا (النواميس النفسية لتطور الأمم) حتى لم يعد من المفيد أن ترجع اليه هنا اذ بيناهناك ما هو الشعب من حيث التاريخ وكيف انه متى كملت مميزاته يصير بمقتضى الوراثة نفسها ذا قوة عظمى وتكون له روح ترجع اليهـا اعتقاداته

ونظاماته وفنونه وجميع عناصر مدينته كذلك بينا ان قوة الشعب تبلغ حداً يتعذر معه انتقال أحد هذه العناصر من أمة الى أخرى بدون أن يتغير تغيراً عاماً وخصصنا اربعة فصول منه لشرح هذه القضية لكونها حديثة العهد ولأنه يصعب فهم التاريخ بدونها هناك يرى القارىء انه رغم ظواهر الحال التي قد توجب اللبس يستحيل ان تنتقل اللغة أو الدين أو الفنون أو أي عنصر من عناصر المدنية من أمة الى أخرى الا اذا أصابها التغير والتحول. نعم ان البيئة والاحوال والحوادث تشخص مقتضيات الزمن الذي هي فيه وقد يكون لها تأثير كبير لكنه تأثير عرضي على الدوام اذا تضارب مع مقتضيات الشعب اعني مع سلسلة تلك المؤثرات الوارثية

على انا سنعود الى ذكر شأن الشعب في كثير من فصول هذا الكتاب ونوضح انه لقوته يسود على غيره من مميزات روح الجماعات وان ذلك هو السبب في اختلاف جماعات كل بلد مع جماعات البلد الآخر من جهة المعتقدات وخطة العمل اختلافا كبيراً وكذا المؤثرات التي تتأثر بها

٣
التقاليد

التقاليد عبارة عن ماضى الامة فى افكارها وحاجاتها ومشاعرها فهى تشخص روح الشعب ولها فى القوم تأثير عظيم

تقدم علم تركيب الاجسام من يوم ان بين علم التكوين مقدار تأثير الماضى فى تطور الكائنات وسيتقدم علم التاريخ ايضاً حينما ينتشر هذا الاكتشاف لان انتشاره لم يعم بدليل ان كثيراً من اقطاب السياسة لا يزالون على افكار أهل القرن الماضى ممن كانوا يتخيلون انه يتيسر للأمة ان تنخلع عن ماضيها وتنشىء نفسها من جديد غير مستهدية فى ذلك الا بنور العقل وحده وفاتهم ان الأمة جسم منظم اوجده الماضى فهى كغيرها من الاجسام لا تستطيع الانتقال من طور الى طور الا بتراكم آثار الوراثة فيها على مهل

والذى يقود الناس ولا سيما اذا اجتمعوا انما هى التقاليد وهم لا يسهل عليهم ان يغيروا منها سوى الاسماء والاشكال

وليس هـذا مما يوجب الأسف اذ لولا التقاليـد ما كان هناك شيء يقال له روح قومية ولا حضارة ممكنة الا ترى ان ثم الناس منذوجدوا ان يكون لهم شنشنة تقاليد فاذا زال نفعها اجتهدوا في هدمها والحاصل انه لا مدنية الا بالتقاليد. ثم الرقي موقوف على هدمها . والصعوبة في ايجاد التوازن بين التقلب والبقاء الا انها صعوبة كبرى فاذا تأصلت في الأمة عادات وتمكنت منها اخـلاق عدة اجيال تعذر عليها الانتقال واصبحت كالأمة الصينية غير قادرة على التحسن . ولا تؤثر فيها الثورات العنيفة لانها لا تأتي الا باحـدى نتيجتين فاما ان الحلقات التي تقطعت من السلسلة تنضم وتلتحم ببعضها فيعود الماضي الى التربع في سـيادته بدون تغييرما . واما ان تبقى تلك الحلقات منثورة فهي الفوضى وخليفتها التقهقر والانحطاط

لذلك كان اكبر النعم التي يجب ان تصبو اليها الامة هي المحافظة على النظامات التي ورثتها وان تسير في الانتقال بها من طور الى اكمل منه على مهل وبلا اهتزاز ذلك مطلب عزيز المنال ولم يفز به الا دولة الرومان في الازمان الخاليـة

وأمة الانكليز فى الازمان الحاضرة

وأشد الناس محافظة على الافكار التقليدية واصعبهم مراساً فى معارضة من يحاول تبديلها هى الجماعات خصوصاً الجماعات التى تتكون منها فئات معينة وقد سبق لى ان افضت الكلام على تمسك الجماعات بالماضى وبينت ان اشد الثوارت عنفاً لا تؤدى الا الى تغيير فى الالفاظ ومن شهد فى آخر القرن الماضى هدم الكنائس وطرد القسوس واعدامهم والاضطهاد العام الذى كان واقعاً على اهل الكثلكة كان يظن ان السلطة الدينية قد بادت ولم يبق لها أثر لكن لم يمض الا بضع سنوات حتى قام الناس ينشدون معابدهم فاضطرت الدولة الى اعادة الدين الذى طمست بالامس معالمه . ومما يوضح ذلك بأجلى بيان ما ذكره (فوركروا) أحد رجال الثورة فى تقريره اذ ذاك ونقله عنه (تاين) قال « ان ما هو مشاهد فى كل مكان من اقامة صلاة يوم الاحد والتردد على الكنائس يدل على ان مجموع الفرنساويين يطلب الرجوع الى عاداته الاولى ولم يعد فى الامكان مقاومة هذا الميل فى الأمة لان السواد الاعظم فى حاجة الى الدين والى العبادة والى القسوس

ومن خطأ بعض فلاسفة العصر الحاضر ـ وهو خطاء وقعت انا فيه ايضاً ـ القول بامكان ايجاد تعليم عام يكفي لازالة الاوهام الدينيـة ووجه الخطأ ان في الدين سلواناً للقسم الاكبر من المبائين ومن أجل ذلك يجب ان تترك للامة قسوسها ومعابدها وعبادتها »

هكذا اختفت التقاليـد برهة ثم استردت سلطانها وهو مثل ليس كمثله مثل يبين سلطان التقاليد على النفوس وليست الاشباح التي لا يستهان بهـا هي التي تسكن المعابد ولا في القصور يقيم عتاة المستبدين اولئك يبادون في طرفة عين انما الذي لا قبل لنا به هم اولئك الارباب الذين تمكنوا في النفوس فتحكموا في الارواح فلا يزول ملـكهم الا بفعل الزمان رويداً رويداً وجيلا بعد جيل

٣
الزمان

أهم العوامل في المسائل التي يبحث عنها علـم الاجتماع هو الزمان كما انه كذلك في المسائل التي يبحث عنها علـم

الاجسام المنظمة . وهو الموجد الحقيقى الوحيد وهو الهادم القوى الوحيد . هو الذى كون الجبال من حبيبات الرمال ورفع الخلية الحقيرة التى اشتملت على أصل الوجود النوعى الى مقام الانسان وكل ظاهرة وكل حادثة لا تتغير ولا تتحول الاّ بالزمان ولقد أصاب من قال ان النملة اذا امتد أمامها الزمن وسعها أن تجعل الجبل الرفيع مهاداً ولو ان موجودا تمكن من تصريف الزمان كما يشاء لكان صاحب القوة التى يعترف بها المؤمنون للواحد الديان

بحثنا هذا قاصر على تأثير الزمان فى اراء الجماعات ومعتقداتها وهو فيها له كذلك الأثر العظيم فهو القاهر فوق أكبر المؤثرات الاخرى من التى لا تكون بدونه كالشعب وغيره وهو الذى يولد المعتقدات فينميها ثم يميتها ومنه تستمد قوتها وبفعله يتولاها الضعف والانحلال

والزمان هو بالاخص محضر اراء الجماعات ومعتقداتها أو هو مهيئ التربية التى تنبت فيها ولذلك صح وجود بعض الافكار فى زمن وامتنع وجودها فى زمن آخر وهو الذى يركز المعتقدات بعضها فوق بعض وكذا الافكار فيهيئ

بذلك قيام الآراء والمذاهب فى العصور المتتابعة لانها لا تنبت صدفة ولا توجد اتفاقا بل ان لكل واحد منها جذورا تمتد فى زمن بعيد فاذا انبثقت فانما الزمان هو الذى هيأ تفتح أزهارها واذا اردت ان تعرف كنهها فارجع الى ماضيها . هى بنات الماضى وهى أمهات المستقبل وهى اماء الزمان على الدوام

نتج من هذا ان الزمان هو صاحب السيادة الحقيقة فينا وما علينا الا ان نتركه يعمل لنرى كل شئ يتحول ويتبدل . نحن الآن فى فزع شديد من مقاصد الجماعات التى تهددنا ومما تنبئنا به من تقويض اركان الهيئة الحاضرة ومن الانقلاب المنتظر فيها . ولكن الزمان سيتكفل وحده باعادة التوازن بيننا . قال موسيو (لافيس) : ما من نظام يقوم فى يوم واحد بل لا بد فى تقرير النظامات السياسية والاجتماعية من مرور الاعصر والاجيال فقد بقى نظام حكم الشرفاء مضطربا غير واضح عدة قرون حتى تبين وتأصلت له قواعد يعرفها الناس كذلك قطعت الملوكية المطلقة قرونا قبل ان تهتدى الى الاصول المنظمة التى تدير بها حكومة البلاد وكم

من اضطراب وقع فى ادوار هذا الانتقال »

٤
النظامات السياسية والاجتماعية

لا يزال الناس يذهبون الى ان النظامات تقوم معوج الهيئة الاجتماعية وان تقدم الامم أثر من آثار اتقان تلك النظامات واصلاح الحكومات وانه يمكن احداث الانقلابات الاجتماعية بواسطة الاوامر والقوانين . كان هذا مذهب الثورة الفرنساوية فى بدايتها واليه يذهب الان ايضاً من اتخذوا مجرد الخوض فى الاجتماعات مذهبا

ذاك وهم تأصل فى الافكار لما تبدده التجارب على تكرارها وقد ضاعت فيه متاعب الفلاسفة والمؤرخين الذين تصدوا لبيان فساده لكنهم لم يلاقوا صعوبة فى اقامة الدليل على ان النظامات نبات الافكار والمشاعر والاخلاق وان الافكار والمشاعر والاخلاق لاتتغير بتغيير القوانين وان الامم لاتختار نظاماتها كما تشتهى كما انها لا تملك اختيار لون اعينها وشعر رؤوسها بل ان النظامات والحكومات ثمرة الشعب الذى

هى فيه فليست هى التى تخلق زمنها ولكنها هى التى اوجدها زمانها . وليست الأمم محكومة كما يشاء لها الهوى أنى تشاء بل كما تشاء اخلاقها وطباعها وكما ان كل نظام لم يستقر الا بعد قرون عدة كذلك ينبغى لتغييره قرون عدة . وليس للنظامات قيمة نوعية فى ذاتها فلا هى حسنة لذاتها ولا هى رديئة لذاتها وان ما صلح منها لامة فى زمان يجوز ان يكون مضراً فى امة اخرى

لهذا كان من المحقق ان الامة لا تملك كل الملك تغيير نظاماتها نعم فى امكانها ان تبدل اسماءها بواسطة الثورات العنيفة والاضطرابات القوية لكن اللب يبقى كما كان أما الاسماء فهى عناوين لا يلتفت اليها المؤرخ الذى ينقب عن حقائق الاشياء الا ترى ان اعظم أمة ديمقراطية فى الارض هى الامة الانكليزية مع كونها تعيش تحت امرة حكومة ملكية وان اكبر امة حفها الاستبداد هى الجمهوريات الاسبانية الامريكية رغم نظامها الجمهورى الذى يحكمها ذلك ما يعترف به للانكليز اعظم الجمهوريين تقدماً فى الولايات المتحدة وانى اذكر للقراء ما جاء في جريدة (فروم) الامريكية

ونقلته عنها مجلة المجلات الصادرة في ديسمبر سنة ١٨٩٤ قالت « لا ينبغي ان ينسى الناس حتى الذين هم من اكبر اعداء الشرفاء ان انكلتره هي اول امم الارض في الديمقراطية اعني الامة التي بلغ فيها احترام حقوق الفرد غايته والتي بلغ افرادها من الحرية اعلى مقام » وبالجملة فائد الامم اخلاقها وطباعها لا حكوماتها . تلك قضية حاولت بيانها في كتابي السابق واثبتها باوضح دليل واقوى مثال

لذلك كان من العبث جداً اضاعة الزمن في خلق نظام جديد من جديد بل لا فائدة من شد رحال علم المعاني والبيان لخلق مثل هذا النظام فان ذلك من عمل الجهلاء . والحاجة والزمان هما الكفيلان باعداده اذا عمل الناس وتركوا هذين العاملين يعملان . هذا الذي اعتمد عليه الانكليز السكسونيون وهذا هو الذي يقوله لنا مؤرخهم العظيم (ماكولي) ضمن كلام يجب على ادعياء السياسة في الامم اللاتينية ان يحفظوه على قلوبهم . بداء المؤرخ ببيان ما احدثته القوانين الانكليزية من الآثار الطيبة على ما يظهر بها من الرداءة والتناقض والبعد عن المعقول ثم قارن بين نظام انكلترا والبضعة عشر نظاما

التي اختنقت بين تقاصات الامم اللاتينية في اوروبا وامريكا واوضح ان الأول لم ينله التغيير الا على مهل جزءاً بعد جزء بتأثير الضرورة لا بتأثير النظر العلمي أبداً ثم قال « القواعد التي سار عليها المائتان وخمسون برلماناً من عهد حنا الى عهد فيكتوريا في مداولاتها وقراراتها هي انها ما اهتمت مطلقاً بحسن التنسيق بل كان كل همها في الفائدة ولم ترفع شاذاً لشذوذه ولم تأت بجديد الا اذا تحققت ان حرجاً استولى على النفوس من اجله ولم تجدد الا بمقدار ماتتفادى من هذا الحرج ولم تقرر مبدأ أعم من الضرورة التي اقتضته »

ولو أردنا بيان كون القوانين في كل أمة منتزعة من روحها وانه لا يمكن لذلك تغييرها عنوة وقسراً للزم ان نأتي على كل قانون ونخوض في كل نظام . فمثلا يجوز الخذ فلسفياً في هل حصر السلطة وارجاعها في النهاية الى يد واحدة أفضل من تفريقها ام العكس أولى . لكن اذا رأينا امة مؤلفة من عناصر مختلفة قضت الف عام فوصلت بعد ذلك الى حصر السلطة وجمعها ورأينا من جهة اخرى ان ثورة عظيمة جاءت لتحطم كل نظام ولده الزمان قد احترمت هذا الحصر وبالغت

فيه كان لنا ان نقول ان هذا النظام هو ابن الضرورة التى لا مفر منها وانه شرط من شروط حياة تلك الامة وان نرثى لحال اولئك الذين قصرت احلامهم من السياسيين الذين يذهبون الى وجوب ابطال ذلك النظام ولو ان الصدفة ساعدتهم على نيل ما يبتغون لكانت نتيجة ذلك قيام حرب أهلية يستطير شرها والعودة عاجلا الى حصر السلطة بأشد مما هى عليه والذى يقارن بين المنافسات الدينية والسياسية الشديدة القائمة فى اجزاء البلاد الفرنساوية والناشئة على الاخص من اختلاف عناصر الامة وبين ميل البعض الى تجزئة السلطة وتوزيعها ايام الثورة وعقب الحرب الفرنساوية الالمانية يتبين له ان العناصر المختلفة التى لا تزال حية فى بلادنا لا تزال بعيدة عن الامتزاج والاتحاد وان أحسن عمل جاءت به الثورة هو حصر السلطة وجمعها وتقسيم البلاد تقسيما اعتباريا لا طبيعياً الى اقسام متعددة توصلا الى مزج الاقاليم القديمة وخلط سكانها بعضهم ببعض فاذا امكن اليوم تحقيق ما يصبو اليه اولئك الذين لا يقرأون عواقب الاعمال من التجزئة والتوزيع أدى ذلك الى اضطرابات تهرق فيها الدماء وتقتل

النفوس ولا يغفل عن ذلك الا من نسى تاريخنا

نتج مما تقدم ان التأثير الحقيقى فى روح الجماعات لا يكون من طريق النظامات. واذا لفتنا الذهن الى الولايات المتحدة رأيناها ترفل فى حلل الرخاء وتخطر فى جلباب السعادة بفضل نظاماتها الديمقراطية ثم اذا رجعنا الى الجمهوريات الاسبانية الامريكية — الفيناها وهى متمتعة بنظام مثله تتعثر فى اذيال التقهقر والفوضى وحكمنا بأنه لا دخل لتلك النظامات لا فى سعادة الاولى ولا فى شقاء الثانية وبأن الذى يحكم الامم انما هو اخلاقها وكل نظام لا يندمج مع هذه الاخلاق ويمتزج بها تمام الامتزاج يكون أشبه بالثوب المستعار وهو ستار لا يدوم . نعم قامت حروب دموية وهبت ثورات عنيفة وستقوم حروب وتهب ثورات والغرض منها كان ويكون الزام الامم بنظامات يعتقد الناس انها مجلبة السعادة كاعتقادهم فى آثار الاولياء والصالحين وقد يقال ان النظامات تؤثر فى نفوس الجماعات لانها تفضى الى مثل تلك الحروب والثورات — والصحيح ان لا تأثير لها البتة لانا قد عرفنا انها لا قيمة لها فى ذاتها سواء كانت الغلبة لها ام عليها وانما الذى يؤثر فى الجماعات

الاوهام والفاظ وعلى الاخص الالفاظ تلك الالفاظ الخيالية القوية التى سنبين سلطانها

٥

التربية والتعليم

لكل عصر افكار تسود فيه وان كانت فى الغالب من قبيل الخيالات وقد بينا فى غير هذا المكان ما لتلك الافكار من القوة وما هى عليه من القلة

ومن الافكار السائدة فى هذا العصر ان فى التعليم قدرة على تغيير الرجال تغييراً محسوساً وان نتيجته التى لا يشكون فيها هى اصلاحهم بل ايجاد المساواة بينهم . ذكروا ذلك وكرروه فصار أحد المذاهب الثابتة عند الديمقراطيين واصبح التعرض له من اصعب الامور كما كان من الصعب التعرض لسلطان الكنيسة فى الزمن السابق

ولكن اراء الديمقراطيين فى هذا الموضوع كما هى فى كثير من الموضوعات الآخر مناقضة كل المناقضة لما اثبته علم النفس ولما دلت عليه التجارب فيما اثبته الكثيرون من

كبار الفلاسفة بلا عناء خصوصا (هربرت سبنسر) كون التعليم لا يزيد فى تهذيب الانسان ولا فى سعادته ولا يغير من غرائزه وشهواته التى تلقاها بالوراثة وانه اذا ساء طريقه كان ضرره اكبر من نفعه وأيد علماء الاحصاء هذه النظريات فقالوا ان الميل الى الجرائم يزداد بانتشار التعليم او هو يزداد بانتشاره على طريقة مخصوصة وان الد اعداء الهيئة الاجتماعية وهم الفوضويون ينسلون غالبا الى مذهبهم ممن حازوا السبق فى المدارس واشار موسيو (ادولف جيو) وهو احد اعاظم القضاة انه يوجد الآن فى كل اربعة آلاف مجرم ثلاثة الاف متعلمون والف واحد أميون وان عدد الجرائم زاد مدى خمسين سنة من (٢٢٧) جريمة لكل مائة الف نسمة الى (٥٥٢) اعنى بنسبة (١٣٣) فى المائة ولاحظ ايضاً هو ورفقاؤه ان الجرائم تكثر بين الشبان الذين ابدلوا تعلم المهن على يد المعلمين بتعليمها فى المدارس الاجبارية المجانية

نعم مما لا يشك فيه انسان ان التعليم اذا حسنت طرائقه ينتج نتائج عملية ذات فائدة كبيرة فاذا هو لم يرفع درجة التهذيب ويؤثر فى رقى الاخلاق فانه ينمى الكفاآت الفنية

ولكن من سوء الحظ ان الامم اللاتينية اسست التعليم على قواعد غير صحيحة ولا سيما منذ خمس وعشرين سنة ومع كون فطاحل العلماء مثل (بريال)و(فوستيل دى كولانج) و (تاين) وكثير غيرهم قد انتقدوها لاتزال تلك الامم على خطئها فيها وقد شرحت انا ايضاً فى كتاب لى اصبح قديما ان طريقة التعليم الحالى عندنا تحول القسم الاكبر ممن يتلقونه الى اعداء للهيئة الاجتماعية وتزيد كثيراً فى اصحاب اشد المذاهب الاشتراكية ضرراً

واول خطر ينجم عن هذه التربية المسماة بحق تربية لاتينية آت من بنائها على قاعدة يحكم علم النفس بفسادها . ذلك انهم قالوا أن الحفظ عن ظهر القلب يربى الذكاء ويقوى الفطنة ثم انتقلوا من هذا الى وجوب الاكثار من الحفظ مااستطاعوا وصار المتعلم فى المدرسة الابتدائية والعالية حتى الذى يتلقى علوم الاستاذية لايعمل الا للحفظ وهو فى ذلك كله لا يدرب مداركه ولا يمرن ملكة الاقدام على العمل من نفسه لان التعليم فى نظره ينحصر فى القاء المحفوظ وفى الخضوع قال موسيو (جول سيمون) وهو أحد وزراء المعارف الأقدمين « ان

حفظ الدروس عن ظهر قلب وكذا حفظ متن فى النحو او مختصر وحسن الالقاء وحسن التقليد تربية هى من الهزء بمكان اذ كل همة يبديها المتعلم فى هذه السبيل عبارة عن الاعتقاد بان المعلم مصون عن الخطأ وذلك لا ينتج الا نقصنا وضعفنا »

ولو ان ضرر هذه التربية كان قاصراً على عدم فائدتها لاكتفينا بالعطف على اولئك الاطفال المساكين الذين يحفظون فى المدرسة نسب (كلوتير) ومصارعات (نوستيرى) وفصيلات الحيوان وغير ذلك بدلا من ان يتعلموا اشياء كثيرة اخر نافعة لكن ضررها اكبر من ذلك فهى تولد فى نفس المتعلم سآمة شديدة من حالته التى هو عليها بمقتضى نشأته ورغبة شديدة فى الانسلاخ عنها فلا الصانع يبغى البقاء على صنعته ولا الفلاح يميل الى الدوام فى فلاحته وأقل الناس فى الطبقة الوسطى لا يختار لابنائه عملا الا فى وظائف الحكومة والمدرسة لا تربى رجالا قادرين على الحياة وانما تخرج عمالا لوظائف ينجح فيها الانسان دون ان يهتم بقيادة نفسه ولا ان يتقدم الى عمل من ذاته . فهى توجد فى أسفل

سلم الهيئة الاجتماعية جيوشاً من الصعاليك المتعضين المتهيئين دائماً الثورة . وفي اعلاه طبقتنا الوسطى الفارغة الحذرة المغفلة التي تعتقد اعتقاداً دينياً في قدرة الحكومة وبعد امكانها وهي مع ذلك لاتنفك عن القدح فيها والتي تخطىء ثم تؤاخذ الحكومة بما أخطأت والتي لا تقدر على القيام بعمل لا يد للحكومة فيه

أما الحكومة التي تصنع حملة الشهادات من تلك المختصرات فلا يسعها ان تستخدم منهم الا القليل وتترك الباقين بالضرورة بلا عمل . فوقعت بذلك بين ضرورة تغذية أولئك والصبر على عداء هؤلاء احتشد ذلك الجمع العظيم من حملة الشهادات يحاصر جميع الوظائف من القمة الى القاعدة اي من الكاتب الصغير الى المعلم فالمدير وصرنا نرى التاجر لايجد الا مع المشقة نائباً يتولى أعماله في المستعمرات . ونشاهد الالوف من الشهادات مكتظة امام باب كل وظيفة مهما صغرت . ويوجد الآن في مديرية السين وحدها من المعلمين والمعلمات عشرون الفاً لا عمل لهم ترفعوا عن المعامل والمصانع وشخصوا الى الحكومة يطلبون القوت منها ولما كان عدد الذين يختار منهم قليلاً فعدد

الغضاب كثير بالضرورة وهؤلاء مستعدون لكل نوع من انواع الثورة والهرج تحت قيادة أى رئيس كان وكيفما كان الغرض . ذلك لان اكتساب معارف لايجد صاحبها سبيلا الى استعمالها هو من انجع الوسائل فى تهيئة المرء الى الخروج على امته (١)

ومن الواضح ان الوقت قد فات لمقاومة هذا التيار وانما

---

(١) على ان هذه الظاهرة ليست خاصة بالامم اللاتينية بل تشاهد فى بلاد الصين لكونها محكومة أيضاً بنظام قوى من « المندران » والمندرانية تنال هناك كما هو الحال عندنا بطريق الامتحان وهو عندهم عبارة عن تلاوة الطالب كتباً ضخمة عن ظهر قلبه والصينيون الآن يرون فى جيش المتعلمين الذين لا عمل لهم طامة كبرى على الأمة كذلك الحال فى الهند فمن يوم ان فتح الانكليز فيها المدارس لمجرد تعليم الوطنيين لا لتربيتهم كما يفعلون فى انكلترا ظهرت فيها طائفة مخصوصة من المتعلمين يقال لهم (بابوس) اذا لم يجدوا وظيفة انقلبوا اعداء ألداء أشداء ضد الحكومة الانكليزية وكانت نتيجة التعليم سرعة انحطاط اخلاق جميع البابوس الذين دخلوا الخدمة منهم والذين لم يدخلوها وقد افضت الكلام عن ذلك فى كتاب (تمدن الهند) ولاحظه أيضاً جميع المؤلفين الذين زاروا تلك البلاد الواسعة

التجارب وهى آخر مرب للأمم ستظهر انا خطأنا فهى التى تبرهن على ضرورة الاقلاع عن استعمال تلك الكتب الرذيلة وابطال هذه الامتحانات التعسة واتباع طريقة تعليم فنى عملى يرد النشء الى المصانع والمعامل والمشروعات الاستعمارية وغير ذلك من الاعمال التى يجتهد أولئك النشء فى الهرب منها

هذا التعليم الفنى الذى تطلبه الآن العقول النيرة هو الذى تلقاه آباؤنا وهو الذى حافظت عليه الامم التى تحكم الدنيا بقوة ارادتها وبما اوتيت من الاقدام الذاتى فى الاعمال والقدرة على التصرف بالمشروعات

كتب احد كبار المفكرين موسيو (تاين) صفحات فى هذا الموضوع ما اجلها وسأنقل للقراء طرفا منها فيما يلى فابان باوضح برهان ان تربيتنا فى الماضى كانت تماثل التربية عند الانكليز او الامريكان فى الوقت الحاضر او ما يقرب من ذلك ثم اتى بمقارنة جميلة بين الطريقة اللاتينية والطريقة الانكليزية واعرب بافصح لسان عن نتائج الاثنتين

ولو كان الاكتساب السطحى لتلك المعارف الكثيرة واجادة تلاوة تلك الكتب التى لا عد لها مما يرقى ملكات

العقل فينا لاجهدنا النفس لاحتمال مضار هـذه التربية التي تعودناها ولو لم تخرج الا عطلة ممتعضين فهل لما هذا الأثر ؟ لا والاسف يملأ قلبنا ان الادراك والتجارب والاقدام والخلق هي عدة الحياة ولا نجاح الا بها وليس شيء من ذلك في الكتب . الكتب معاجم يستفيد المرء من مراجعتها لكن مما لا فائدة فيه نقل الفصول المطولة منها الى الدماغ

اما كون التعليم الفني يربي العقل بما لا ينال من التربية العلمية الجارية فذلك ماشرحه موسيو (تاين) شرحا وافياً اذ قال « لا تتولد الافكار الا في مولدها الطبيعي الاعتيادي والذي ينبت بذورها هو المؤثرات الكثيرة المختلفة التي يتأثر بها الشاب كل يوم في المصنع والمعدن والمحكمة ومكتب المحامي ودائرة الاشغال والمستشفى ومن مشاهدة الآلات والعدد والادوات ومن العمليات ومن اجتماع المبتاعين والفعلة ومن العمل نفسه ومما يصنع رديئا كان الصنع او حسناً غالي الثمن او رخيصاً . هذه هي الملتقطات الصغيرة التي تتناولها العين والاذن او الايدي او الشم ايضاً التقاطا غير مقصود حيث تجتمع وتختمر وتأخذ لها حيز اً تنتظم فيه من نفس الشباب فترشده عاجلا او آجلا

الى تركيب جديد او تبسيط مركب او طريقة اقتصاد او تحسين اختراع والشاب الفرنساوى محروم من هذا الامتزاج النفسى فقد غابت عنه كل هذه العناصر السهلة التناول الضرورية فى الوقت الذى هو احوج للاستفادة منها لانه متصور مدى سبع سنين او ثمان فى المدرسة بعيد عن التجارب الشخصية السهلة القريبة المنال التى تحصل فى الذهن صورة قوية صحيحة من الاشياء والناس وتكسب معرفة الطرق المختلفة لاستعمال ذلك كله فضاع على تسعة من العشرة وقتهم وتعبهم مدى سنوات عدة من عمرهم سنوات ما كان انفعها وا كبر اهميتها بل قد كانت تكون الحد الفاصل بين بؤس ماض ومستقبل سعيد اليك اولا نصف الذين يتقدمون الى الامتحان او الثلثين انهم لا ينجحون واخرج من بين الناجحين نصفهم او ثلثيهم وهم الذين ابلاهم الدرس فلا يعودون ينفعون. كلفوهم بما لا يطيقون اذ طلبوا منهم يوم يجلسون على مقعد او امام لوحة ان يكونوا مدى ساعتين اشبه بمعجم يلقى على السامعين جملة من العلوم التى يبحث فيها عن جميع ما علم الانسان والواقع انهم كانوا ذلك او ما يقرب منه مدة ساعتين ولكنهم

لا يبقون كذلك بعد مضي شهر من الزمان فلا يقدروا ان يجوزوا الامتحان مرة اخرى لان معارفهم كانت كثيرة كثيفة فتسربت من عقولهم ثم هم لا يكسبون منها جديدا لان الملكات التى سلاحها ونضب ماء الاثمار منها اذذاك يبرز الشاب وعليه مخايل الرجل التمام وهو فى الغالب الرجل الذى قد فرغ منه. هذا الرجل يجمع اليه نفسه ثم يتزوج ويوطن النفس على ان يدور فى دائرة معينة وان يستقر على الدوران فى الدائرة عينها وينزوى الى العمل الضيق الذى اقام فيه وصار يؤديه بانتظام . ولا شئ بعد ذلك. هذه هى الثمرة فى المتوسط ولاشك فى ان الوارد لا يساوى المنصرف اما فى انكلترا وفى امريكا كما كان فى فرنسا قبل سنة ١٧٨٩ فانهم يستعملون عكس ذلك وعندهم تساوى الثمرة ما صرف او تربو عليه »

وبعد ذلك شرح لنا هذا المؤرخ المجيد الفرق بين طريقتنا وطريقة الانكليز السكسونيين فابان ان ليس لهؤلاء من المدارس الخصوصية الكثيرة مالنا . وان التعليم عندهم لا يتلقى من الكتاب بل من الشئ نفسه فالمهندس مثلا يتكون

فى المصنع لا فى المدرسة وهو ما يسمح لكل واحد ان يصل فى حرفته الى الحد الذى تصل اليه قدرته العقلية فيكون عاملا او رئيس عمال اذا قعد به الذكاء عند هذا القدر . وهو مهندس اذا قاده استعداده الى هذا الدرج . تلك هى الطريقة الديموقراطية المثلى وفيها الفائدة الصحيحة للأمة لا التى تجعل مستقبل المرء كله معلقا على نتيجة امتحان يؤديه الطالب وهو فى التاسعة عشرة أو المتممة للعشرين مدة سويعات معدودة

قال موسيو (تاين)

« يدخل التلميذ والعود اخضر فى المستشفى او المعدن او المصنع أو مكتب المتشرع فيتعلم ويقضى زمن التمرين كما يفعل كاتب المحامى أو المبتدىء فى الحرفة عندنا ويكون قد تلقى اولا بعض دروس عامة مختصرة اوجدت فيه محيطاً تمشى فيه الملاحظات التى تعرض له من يوم دخوله ومع ذلك يجد كل يوم بجانبه دروساً فنية يختلف اليها فى اوقات الفراغ ويتمكن بما يستفيده منها من ترتيب تجاربه وتنسيقها كلما اكتسب شيئاً منها . هذا نظام تنمو فيه القدرة العملية وتتقدم من نفسها بحسب ما تسمح به ملكات التلميذ وتسير فى

طريق العمل المستقبل الذى اختار التمرن عليه منذ الآن وبهذه الواسطة يتمكن الشاب بسرعة من ان ينتزع من نفسه كل ما ملكت ويصير منذ الخامسة والعشرين واحياناً قبل ذلك ان ساعدته كفاءته ومادته منفذا نافعاً بل مبدئا مقداماً مندفعاً من ذاته فهو عجلة فى الآلة وهو ايضاً المحرك لها

اما فى فرنسا حيث سارت الطريقة الأخرى وصارت تقرب من طريقة اهل الصين فى كل جيل فان مجموع القوى الضائعة عظيم »

ثم استنتج ذلك الحكيم الكبير مما تقدم النتيجة الآتية التى تدل على مخالفة تربيتنا اللاتينية لمقتضيات الحياة مخالفة تعظم كل يوم فقال « امتد زمن التحضير النظرى فى ادوار التعليم الثلاثة الطفولية والصبا والشباب وقد زادت المواد على حد الطاقة والتلميذ جالس على المقعد وعيناه فى الكتاب انتظاراً ليوم الامتحان يوم ينال الشهادة يوم تتقرر الرتبة يوم تعطى الاجازة او الامتياز لا انتظاراً لشىء آخر وقد اعدوا لذلك اردأ الوسائل فاخضعوا التلميذ لنظام تأباه الطبيعة وتنفر منه دواعى الاجتماع فاجلوا التمرين العملى وقصروا التلامذة

فى حجور المدارس وربوهم تربية جسمانية صناعية وشحنوا الذهن شحناً مادياً بالمواد واجهدوا الفكرة وكلفوهم فوق المستطاع غير ملتفتين الى المستقبل ولا مهتمين بسن الرجولة ولا بالوظائف التى لا بد للطالب من القيام بها اذا اكتمل ولا ناظرين الى الوجود الحقيقى الذى اضحى على وشك الهبوط اليه ولا بالجمع المتلاطم الذى يجب تطبيعه بطبائعه أو اخضاعه لاحكامه قبل الانطلاق فيه ولا بالمعترك الانسانى الذى يلزم المرء فيه ان يأخذ اهبته ويتقلد عدته ويتدرب ويتقوى ليتمكن من الكفاح ويبقى قائماً على قدميه. مدارسنا لا تكسب الشاب هذا المتاع على ضرورته وكونه أهم ما يجب ان يقتنى . لا تكسبه ملكة حسن التميز ولا مكنة الأرادة ولا صلابة الاعصاب بل على الضد من ذلك بدلا من ان تجهزه وتهيئه فانها تضعفه وتبعد وجه الشبه بينه هو ومستقبله القريب المحتوم لذلك تراه غالباً يسقط فى اول خطوة يخطوها بين الناس ويكون فى بداية امره كلما مدة يده للعمل تولاه الكمد وأخذه الخزى زماناً طويلا وقد يصير كالاعرج ويبقى كذلك دائماً . تجربة قاسية ذات خطر

تضطرب فيها الاخلاق ويختل ميزان العقل ويخشى من البقاء هكذا على الدوام فقد انكشف الستار وولى الخيال وعظم اليأس واشتد الاسى (١)

---

(١) راجع تاين (النظام الحالى جزء ٢ صفحة ١٨٩) وهذه الصفحات هى آخر ما كتب تاين تقريبا وفيها خلاصة تجارب ذلك الحكيم العظيم ولكنى مع الاسف ارى اساتذة مدارسنا الذين لم يقيموا زمنا خارج فرنسا لايدركونها على ان التربية هى الوسيلة الوحيدة التى نستطيع بها التأثير فى نفس الامة ومن سوء الحظ انه لا يكاد احد عندنا يدرك ان طريقة التعليم التى تجرى عليها هى من اشد عوامل الانحطاط العاجل وانها لا ترفع قيمة نشئنا بل تحط منه وتفسده

ومما يفيد القراء ان يجمعوا بين ما كتب (تاين) والمشاهدات المتعلقة بالتربية في امريكا التى ذكرها موسيو (پول بورجيه) فى كتاب (بحر اخر) فقد لاحظ هو ايضا ان تربيتنا لا تخرج الا اواسط محدودة كفاءتهم فلا اقدام على العمل من انفسهم ولا ارادة فيهم أو فوضويين قال « وهما نموذجان تعسان للرجل المتمدن اذا خاب بانحطاط اخلاقه وعجزه أو فقد الرشد فصار آلة هدم وتخريب » ثم جاء بمقارنة جديرة بالامعان بين مدارسنا الفرنساوية التى هى مصانع اتلاف والمدارس التى تربى الرجل للحياة تربية تفوق الوصف هناك يتبين الفرق بين الامم الديمقراطية الصحيحة والتى ليس لها من ذلك الا مناجاة على السنة خطبائها لا الذى رسخ فى عقولهم

كأني بالقراء يظنون انا قد بعدنا عن موضوعنا روح الاجتماع لكن نحن مازلنا فيه لأنه يجب علينا لمعرفة الافكار والمعتقدات التي تتولد الآن في الجماعات ان نعرف كيف هيئت الأرض التي تنبت فيها فالتعليم الذي يعطى الأمة هو المرآة التي يرى فيها مصيرها يوماً من الأيام والذي يبذل منه الآن لشباننا يدل على مستقبل مظلم جداً . كذلك نفوس الجماعات انما تتحسن او تفسد من بعض الجهات بواسطة التربية والتعليم لهذا وجب ان نعرف كيف هيأت الطريقة المتبعة عندنا في التعليم روح جماعاتنا وكيف انها بعد ان كانت لاهية بنفسها او لا تشتغل بغيرها تحولت الى جيش كثيف من المتعضين مستعد لتنفيذ ما يشير به المهوسون اهل التخيلات او المتفيهقون تجار الكلام فالآن نحن نعلم ان الاشتراكيين والفوضويين يربون في المدارس وان فيها تختمر اوقات انحطاط الامم اللاتينية عما قريب

الفصل الثانى

العوامل القريبة فى افكار الجماعات

—

(١) الصور والالفاظ والجمل — فيما للالفاظ والجمل من القوة السحرية — فى ان قوة الالفاظ مرتبطة بالصور التى تحدثها فى الخيال وغير متعلقة بمعناها الحقيقى — فى ان تلك الصور تختلف باختلاف الازمان والامم — كثرة الالفاظ — امثلة على كثرة اختلاف معانى بعض الالفاظ المستعملة — الفائدة السياسية من اطلاق اسماء جديدة لمسميات قديمة متى صارت اسماؤها الاولى تحدث تأثيراً سيئاً فى نفوس الجماعات - اختلاف معانى الالفاظ الواحدة باختلاف الامم — اختلاف معنى ديموقراطية فى اوروبا وفى امريكا

(٢) — فى الاوهام — فى اهمية الاوهام - فى ان الاوهام موجودة فى أساس كل مدينة - ضرورة الاوهام فى الاجتماع - فى ان الجماعات تفضل الوهم على الحقيقة

(٣) — التجارب ـ يجوز ان تولد التجارب وحدها فى نفوس الجماعات حقائق لازمة وتهدم اوهاما ضارة — انما تؤثر التجارب اذا كثرت — ماتقتضيه التجارب اللازمة لاقناع الجماعات

(٤) ـ العقل ـ عدم تأثيره فى الجماعات ـ فى انه لايمكن التأثير في الجماعات الا من طريق مشاعرها الغريزية ـ شأن المنطق في التاريخ ـ في الاسباب الخفية للحوادث الخارجة عن المعقول

—

فرغنا من البحث فى العوامل البعيدة التحضيرية التى تهيئ نفوس الجماعات لظهور بعض الاميال والافكار وبقى علينا ان نبحث فى العوامل التى تؤثر فيها مباشرة وسنرى فى الفصل الآتى كيف تستعمل هذه العوامل لتظهر آثارها كلها

وقد بحثنا فى القسم الاول من هذا الكتاب فى مشاعر الجماعات وافكارها ومداركها ومما عرفناه يسهل علينا غالباً استنباط الوسائل التى تؤثر فيها فنحن نعرف مما تقدم أى العوامل يفعل فى تصوراتها ونعرف قوة المؤثرات وعدواها خصوصاً ما جاءها منها فى شكل صور ترتسم فى الخيال ولما كانت مناشئ المؤثرات مختلفة كانت العوامل التى لها قوة

التأثير في نفوس الجماعات تتنوع كثيراً تبعاً لها لهـذا ينبغى الـكلام فى كل واحد منها وليس البحث غير مفيد لان احوال الجماعات تشـبه بعض الشبه طلاسم الارصاد عند القـدماء فاما انـ تمـكن من حل طلاسمها واما ان نستسلم لها فتأكلنا :

١

الصور والالفاظ والجمل

تبين عندالبحث فى تصورالجماعات أنها تتأثر على الاخص بالصور وليـت الصور ممكنة فى كل وقت لـكن من السهل استحضارها فى الذهن بالحذق فى اسـتمال الالفاظ والجمـل ومتى كان المستعمل لها بارعا فلها قوة السحر عند معـتقديه فى الزمن السـابق فهى التى تثير فى نفوس الجماعات اشد صواعق الغضب وهى التى تسكنها اذا جاشت ولو جمعت عظام من ذهبوا ضحية الالفاظ والجمل لامكن ان يقام منها هرم ارفع من هرم خيوبس القديم

السر فى تأثير الالفاظ للصور التى تحضر فى الذهن بواسطتها وليس لذلك التأثير ارتباط بمعانيها الحقيقية بل الغالب ان اشدها تأثيراً ما كان معناه غير واضح تماماً مثال ذلك كلمات ديموقراطية . اشتراكية . مساواة حرية.وهكذا مما ابهم معناه ويحتاج فى تحديده الى مؤلفات ضخمة والكل يسلم ان لها سلطاناً ينساب فى النفوس كأنها اشتملت على حل المسائل الاجتماعية كلها وفيها تمثل الاميال اللاشعورية على اختلافها والامل فى تحقيقها

لبعض الالفاظ والجمل سلطان لا يضعفه العقل ولا يؤثر فيه الدليل الفاظ وجمل ينطقها المتكلم خاشعاً امام الجماعات فلا تكاد تخرج من فيه حتى تعلو الهيبة وجوه السامعين وتعنو الوجوه لها احتراماً وكثير يعتقدون ان فيها قوة الهية.الفاظ وجمل تثير فى النفوس صورا لا كيف لها ولا انحصار محفوفة بالاكبار والاعظام ابهامها يزيد فى قوتها الخفية فهى آلهة لا تدركها الابصار قد احتجبت خلف (المظلة) التى ترتعد لهيبتها فرائص العابد اذا تقدم نحوها

ولما كانت الصور التى تستحضرها الالفاظ مستقلة عن

معانيها كانت مختلفة باختلاف الأجيال والامم وان اتحدت صيغها وبعض الالفاظ صور تتلوها على الأثر كأن الكلمة منبه اذا تحرك برزت صورته

ومن الالفاظ ما هو مجرد عن قوة استحضار صورة ما ومنها ما تكون له تلك القوة اولا ثم تبلى بالاستعمال فتفقدها تماما وتصير اصواتا فارغة تنحصر فائدتها فى اعفاء المتكلم بها من التفكر والامعان ومن السهل على الانسان اذا حفظ فى صغره قليلا من الالفاظ وشيئاً من الجمل المصطلح عليها ان يجتاز الحياة بها من دون احتياج الى اجهاد نفسه بالفكر فى امر من أمور الدنيا

من تأمل فى لغة من اللغات وجد ان الالفاظ التى تتركب منها لا تتغير مع الزمان الا ببطء عظيم انما الذى يتغير على الدوام هو الصور التى تلازم تلك الالفاظ والمعانى التى تؤديها ومن هنا قلت فى بعض مؤلفاتى ان ترجمة لغة تمامها ضرب من المستحيل خصوصا اذا كانت لغة أمة ميتة ونحن اذا ترجمنا الى الفرنساوية كلمة يونانية او لاتينية او سنسيكريتية اواردنا فهم كتاب بلغتنا منذ قرنين او ثلاثة فذلك عبارة عن احلال

الصور والمعانى المنتزعة من حياتنا الحاضرة محل صور ومعارف مغايرة لها بالمرة وكانت معروفة لامم لا نسبة بين حياتها وحياتنا . نقل رجال الثورة الفرنساوية عن الرومان وعن اليونان الفاظا وظنوا انهم بذلك يقلدونهم فى نظاماتهم وهم انما أثبتوا لالفاظ قديمة معانى ما كانت لها ابدا فأى شبه بين نظامات الاغريق ونظاماتنا وان تقابلت الاسماء السنا نعلم ان كلمة جمهورية كانت تدل عندهم على نظام سداه الشرفاء ولحمته الشرفاء اجتمع فيه افراد من صغار المستبدين وتحكموا فى قطيع من العبيد المسخرين . تلك جمعيات اشراف قروية كان الرق قوامها ولولا الاسترقاق ما عاشت لحظة واحدة

وتلك كلمة الحرية أى شبه بين معناها الآن عندنا ومعناها قديماً عند قوم لم يمر بخاطر واحد منهم طائف الحرية فى الافكار أيام كان اكبر الجرائم النادرة الوقوع تطرق البحث الى الآلهة أو القوانين أو العادات فى مدينة من المدن فكان معنى وطن عند اهل اتينا او اهل اسبرطة تمجيد المدينة لا البلاد اليونانية لانها كانت مدائن متباغضة وفى حرب مستديم ولم يكن لهذا اللفظ معنى عند أهل الغلوا الاقدمين وهم قبائل

متنافرة وأجناس متغايرة وأهل لغات متنوعة وديانات شتى وقهرهم قيصر بدون عناء اذ كان له من بينهم حلفاء على الدوام وروما هى التى اوجدت وطن الغلوى بايجادها الوحدة السياسية والدينية فيها مالنا ولذلك الزمن البعيد فمن قرنين اثنين لم يكن للفظ الوطن فى نفوس الامراء الفرنساويين ما نفهم نحن منه الآن اذ كانوا يحاربون الاجنبي على ملكهم كما فعل البرنس كونديه ولا فى نفوس المهاجرين الذين كانوا يعتقدون ان الشرف وحفظ العهد يقضيان عليهم بمحاربة فرنسا وكانوا يعملون بهذا الاعتقاد لأن نظام حكم الشرفاء كان يربط التابع بالمتبوع لا بالبلاد التى هو منها فحيثما كان المتبوع يوجد الوطن

وما اكثر الالفاظ التى تغير معناها تغيراً كلياً من جيل الى جيل ولم نعد ندرك معانيها الاولى الا مع الجهد والمشقة ولقد أصاب القائل بوجوب الاطلاع على كتب كثيرة للوقوف على ما كان يفهمه آباء اجدادنا من بعض الالفاظ مثل ملك وعائلة ملكية فما بالك بغيرها مما له معنى دقيق

نتج من هذا ان معانى الالفاظ غير ثابتة وانها عرضية اى وقتية تتغير بتغير الاجيال وتختلف باختلاف الامم فاذا أردنا

ان نؤثر فى الجماعات لزمنا ان نعرف معنى الالفاظ عندها وقت مخاطبتها لا معناها القديم ولا الذى يفهمه منها من يختلف معها فى الفكر والمعقول

ومن اجل هذا متى تمت الانقلابات السياسية واستقرت معتقدات مكان اخرى وتمكن بذلك نفور الجماعات من الصور التى تحضرها من بعض الالفاظ وجب على رجال السياسة الجديرين بهذا الاسم ان يسارعوا الى تغيير تلك الالفاظ من دون ان يتعرضوا لتغيير المسميات لان هذه مرتبطة بمزاج القوم الموروث ارتباطاً ليس من السهل تغييره

وقد لاحظ توكفيل منذ بعيد وكان نقاداً ان حيل اعمال القنصلية والامبراطورية (فى فرنسا) كان الباس القسم الاكبر من النظامات القديمة لباساً جديداً من الالفاظ اعنى الاعتياض من ألفاظ اصبحت تؤدى فى الاذهان صوراً مكروهة بألفاظ لا تثير فيها هذا التأثر لجدتها فسموا العوائد الشخصية ضرائب عقارية والعونة ضرائب غير مقررة وهكذا

فمن اهم وظائف سواس الامم تسمية المسميات التى صارت الجماعات لا تطيق سماع اسمائها المعروفة باسماء مقبولة

او على الاقل لامقبولة ولا مكروهة لان قوة الالفاظ شديدة حتى انه يكفي تسمية أشد الاشياء كراهة للجماعات باسماء مختارة لترضى بها ومن هنا لاحظ (تاين) ان اليعقوبيين تمكنوا باسم الحرية والمساواة وهما كلمتان محبوبتان فى زمانهما عند الناس (من اقامة استبداد احق به بلاد الداهومية وتأليف محكمة شبيهة بمحكمة الاضطهاد واحداث مذابح فى الناس شبيهة بمذابح بلاد المكسيك)

فالحكام كالمحامين يرجع فنهم الى اختيار الالفاظ وحسن استعمالها وصعوبة هذا الفن ناشئة من كون معنى اللفظ الواحد يختلف غالباً باختلاف طبقات الامة الواحدة اختلافا كبيراً فهى وان استعملت الالفاظ بذاتها لا تتكلم مع ذلك بلغة واحدة

رأينا فى الامثلة التى اتينا عليها ان الزمان هو أهم العوامل فى تغيير معانى الالفاظ وكذلك تختلف المعانى فى الزمن الواحد اختلافا كلياً عند الامم التى اختلفت فى الجنس وان تماثلت فى المدنية ومن المتعذر ادراك ذلك لمن لم يسبق له تطواف طويل فى الامم فلا اطل الكلام فيه ولكنى اشير الى ان

اختلاف المعانى واتحاد الالفاظ عند الامم المختلفة يكون بالاخص فيما يكثر استعماله منها على لسان الجماعات مثل لفظى ديموقراطية واشتراكية اللذين شاع استعمالهما الآن

الافكار والصور التى تتحصل من هذين اللفظين تختلف اختلافاً بينا عند الجنسين اللاتينى والانكليزى السكسونى فمعنى الديموقراطية عند الاول انزواء ارادة الفرد واقدامه على العمل من نفسه امام ارادة المجموع وهمته والمجموع تشخصه الحكومة (١) فالحكومة هى المكلفة بأدارة كل شئ وحصر كل شئ واحتكار كل شئ وصنع كل شئ وهى التى تلجأ اليها دائماً الاحزاب بلا استثناء من احرار الى اشتراكيين الى ملكيين وعلى الضد من ذلك يفهم الانكليزى السكسونى وبالاخص الامريكى من كلمة ديموقراطية نمو ارادة الفرد واقدامه الذاتى الى الحد الاقصى وانزواء الحكومة بقدر ما امكن فلا تكلف بعد الشرطة والجيش والعلاقات السياسية بشئ حتى التعليم وعليه فاللفظ الواحد يفيد فى بلد جمود

(١) الحكومة هنا عبارة عن مجموع السلطات التى بيدها زمام الامر فى البلاد

ارادة الفرد وسكون اقدامه الذاتى واستعلاء كلمة الحكومة ويفيد فى بلد أخر انزواء هذه وارتفاع صوت الاول (١)

٣

الاوهام

خضعت الجماعات منذ بزغ فجر المدنية لتأثير الاوهام فاقامت لموجديها اكثر التماثيل والهياكل والمعابد وما من مدنية ومامن حضارة تبلج صبحها فوق ظهر الارض الا وكانت تلك الملوك الهائلة فى طليعة جيوشها اريد المعتقدات الدينية قديمًا والسياسية والاجتماعية فى هذه الايام . هى التى شيدت هياكل الكلدان ومصر واقامت المساجد والبيع فى القرون الوسطى وهى التى قلبت القارة الاوروبية من الرأس

---

(١) شرحت القول باسهاب في كتابي (ناموس تطور الامم النفسى) على الفرق بين الديموقراطية عند الامم اللاتينية والامم السكسونية وجاءت نتيجة بحث موسيو (بول بورجيه) في كتابة (بحر اخر) مطابقة على التقريب لما ذكرت وان كان بحثه مستقلا بذاته

الى القدم منذ مائة عام وخاتمها مطبوع فى جبين كل ما ابرزه العقل من المستحدثات الفنية او السياسية او الاجتماعية . يهدمها الانسان احيانا ولكنه يعانى فى ذلك هول الانقلاب المنيس ثم هو محكوم عليه دائما ان يقيمها من جديد فلولا هى ما خرج من بربرته الاولى ولولا هى لراح مسرعا يتخبط فى اودية الخشونة والتوحش نعم هى خيالات باطلة وهى من نبات الاحلام ولكنها هى التى ساقت الامم الى ايجاد ما فى الفنون من رفيع وجميل وما فى الحضارة من عظيم وجليل

قال (دانيال لوزيار) لو أبيد ما فى دور العاديات وما فى المكتبات العمومية وكسرت فوق بلاط مماشيها جميع التحف والآثار الفخمة التى ابدعتها الفنون والاديان ما بقى فى العالم شىء مما ولدته الاحلام وما كانت الالهة والابطال ولا الشعراء الا لتحدث فى النفوس شيئاً من الرجاء وبعضاً من الخيال اذ لا حياة للناس بغير الامل والرجاء . حمل العلم هذه الامانة الثقيلة خمسين عاما ثم تغلبت عليه قوة الخيال لانه اصبح غير قادر على الوعد بادائها كلها عاجزاً عن الكذب الى النهاية

اشتد ولع فلاسفة القرن الماضى بهدم الاوهام الدينية

والسياسية والاجتماعية التى عاش بها آباؤنا قرونا واجيالا فلما ظهروا عليها كانوا قد سدوا ايضا منابع الرجاء واغلقوا باب احتمال القضاء وبرزت من خلف الخيال الذى خنقوه قوى الطبيعة العمياء الصماء التى لا تشفق على الضعفاء ولا تحنو على التعساء

سارت الفلسفة الى الامام شوطاً بعيداً ولكنها مع تقدمها لم تهيء للجماعات خيالا يلذ لها والجماعات لاغنى لها عن الاوهام لذلك اندفعت وراء غريزتها وذهبت الى تجار البلاغة الذين يبيعونها تجارة حاضرة مثلها كمثل الحشرة تدب حيث يكون الضياء . ان الحقيقة لم تكن ابداً العامل الاكبر فى تطور الامم ولكنه الباطل على الدوام واذا بحثت عن السبب فى قوة مذهب الاشتراكية فى عصرنا هذا وجدته ما اشتمل عليه من الخيال الذى لا يزال حياً فى العقول فهو يعظم ويتجسم مع تزاحم انوار العلم التى تبرهن على فساده ذلك لان قوته آتية من جهل دعاته بحقائق الاشياء جهلا كافياً يجرئهم على وعد الناس بالسعادة فى الحياة والآن اصبح هذا الوهم سائداً فوق اطلال الزمن الماضى وله الملك آجلا فما كانت الجماعات فى ظمأ الى الحقيقة طول حياتها واذا تبدت

امامها وكانت تغضبها اعرضت ونأت وراحت تعبد الاوهام التى ترضى الامرة عليها من اضلها والويل منها لمن هداها

٣

التجارب

التجارب هى على التقريب الوسيلة الفعالة لتقرير الحقيقة فى نفوس الجماعات وازالة الاوهام التى عظم ضررها انما ينبغى ان تكون عامة ماامكن وان تتكرر اذ تجارب جيل لاتؤثر غالبا فى الذى يليه ولذلك لا تصلح الحوادث التاريخية للدليل بل تصلح لبيان انه يجب تكرار التجارب من جيل الى جيل ليكون بعض الاثر وليتوصل بها الى زعزعة الوهم المتأصل فى نفوس الجماعة

ومن المحقق ان مؤرخى العصور الآتية سيكثرون من ذكر حوادث هذا القرن والذى تقدمه لاحتوائها على تجارب لا مثيل لها لان الناس لم يباشروا نظائرها فى زمن من الازمان واكبر هذه التجارب ثورتنا الفرنساوية لانها تدل على اننا احتجنا الى قتل عشرة ملايين من الرجال واضرام نار

يوحون به عندنا منذ ثلاثين عاماً

ولو أردنا ان برهن للأمم التى تعمل بمذهب حماية التجارة الوطنية لتقييد التجارة الاجنبية للزمنا القيام بتجارب ضارة بثروتنا مدة عشرين عاماً ومن السهل الاكثار من الامثلة على ماتقدم .

العقل

لولا الحاجة الى بيان ان لا تأثير للعقل فى الجماعات ما

الجماعات متعديا الى قوادها كما يقع ذلك غالباً بالنسبة للافكار العامة فقد رأينا موسيو (تيرس) يقول ما يأتي ضمن خطابه الذي القاه على مجلس النواب في ٣١ ديسمبر سنة ١٨٦٧ ونقله موسيو أوليفيه في كتاب نشره حديثاً وكان ذلك القطب السياسى يتبع دائماً افكار الجماعة الا انه لم يسبقهم فى فكر أبداً قال ناقلا « ليس لبروسيا غير جيشها العامل المساوى لجيشنا على التقريب الاحرس ملى يشبه الحرس الذى كان لنا وعليه لا أهمية له » وهى رواية تبلغ صحتها ما بلغه رأى ذلك السياسى في ضعف مستقبل السكك الحديدية .

احتجنا الى ذكره بين العوامل التى تؤثر فيها لانا قدمنا ان البراهين والادلة لا تأخذ من نفوس الجماعات وانها لا تعقل الا بالمشابهات الردينة ولهذا فان الخطباء الذين عرفوا كيف تتأثر انما يخاطبون شعورها دون العقل لانه لا سلطان لقواعد المنطق عليها [1] فلأجل اقناع الجماعة ينبغى الوقوف اولا على

---

(١) ترجع ملاحظاتى فى فن التأثير فى الجموع وضعف قواعد المنطق فى هذا الموضوع الى زمن حصار (باريس) رأيت ذات يوم اناساً يسوقون أحد قواد الجيش العظام الى سراى اللوفر حيث مقر الحكومة والناس أكداس من حوله يزبجرون ويتميزون غيظاً وهم يتهمونه بأنه كان يأخذ رسم احد المعاقل ليبيعه للبروسيانيين فلما وصلوا به خرج أحد أعضاء الحكومة وكان خطيبا ذائع الصيت ليخطب فى الناس وهم ينادون الموت الموت عاجلا وكنت انتظر منه ان يبرهن لهم على فساد التهمة بقوله ان الفريق المتهم هو أحد المهندسين الذين اقاموا الحصون وان رسومها تباع فى المدينة عند جميع باعة الكتب غير انى بهت ـ كنت شابا فى ذلك الحين ـ اذ سمعته على نقيض ما ظننت يقول وهو يتقدم نحو الجموع « سيأخذ منه العدل اخذاً لا رحمة فيه فاتركوا حكومة الدفاع عن الامة (١) تتم التحقيق الذى بدأتموه

---

(١) هو اسم الحكومة فى ذلك الحين

المشاعر القائمة بها والتظاهر بموافقتها فيها ثم يحاول الخطيب تعديلها باستعمال مقارنات بسيطة عادية تشخص امامها صورا مؤثرة وينبغي ان يكون مقتدرا على الرجوع القهقرى متى وجد المقتضى وان يتفرس في كل لحظة أثر كلامه في نفس سامعه حتى يغير منه كلما مست الحاجة وهذه الضرورة التي تلجيء الخطيب الى سرعة تغيير الكلام بحسب الأثر الحاصل في نفس السامع هي التي تدلنا على ضعف الخطابة بالكلام المحضر من قبل لان الخطيب يتبع في هذه الحالة سلسلة افكاره لا حركة فكر سامعيه فلا يكون لكلامه اقل تأثير عندهم

أما المناطقة فلانهم تعودوا الاقتناع بالادلة المتسلسلة الدامغة لا يمكنهم الخروج عن عادتهم هذه في مخاطبة الجماعات لذلك يدهشهم على الدوام عدم تأثير استدلالهم قال بعض هؤلاء المنطقيين « ان للقياس المنطقي اعنى الجمع بين الشيء ونظيره

وسنزجه في السجن حتى حين » قال هـذا فرأيت الثورة قد سكنت وتفرق الجمع ولم يمض ربع ساعة الا والفريق في داره ولوانه خاطبهم بمـا جال بخاطرى من الادلة المنطقية التي اعتقدتها دامغـة لمزقوه اربا

فى الاستدلال نتيجة لازمة لا تتخلف عنه وهذا اللزوم يقتضى التسليم حتى من المادة لو ان فيها قدرة على ان تمثل النظائر » وهو مسلم غير انه لا فرق بين الجماعة والمادة فى عدم ادراك النظائر بل فى عدم القدرة على سماعها ومن لم يصدق فليجرب اقناع الهمجى أو المتوحش أو الصبي بالحجة العقلية والدليل المنطقي وهو يقتنع بضعف تأثير هذه الطريقة فى اقناعهم

على انه لا داعى للتجربة فى الهمجى لمعرفة عدم تأثير الادلة العقلية متى عارضت الشعور ويكفينا أن نذكر كم من القرون امسكت الاوهام الدينية بالعقول على ما بها من مخالفة قواعد المنطق الابتدائية وان اكبر الناس عقلا وأسماهم فكرا انوا تحت حكمها الفى عام وبقى الحال هكذا حتى جاء هذا الزمان وأمكن البحث فى صحتها ولقد كان أصحاب العقول النيرة كثيرين فى القرون الوسطى وزمن النهضة الفكرية ومع ذلك ليس منهم من هدته الحجة وارشده الدليل الى ما كان فى الاوهام التى استولت على قلبه من الهزء والشطط أو شك يوما فى صحة اساءة الشيطان او فى ضرورة احراق الساحرين

رب سائل أما يوجب الاسف ان العقل ليس هو الذى

يهدى الجموع على الدوام . نحن لا يسعنا ان نقول به بل نرى انه لو كان المدى للعقل ما اندفعت الانسانية فى سبل المدنية والحضارة بالهمة التى اوجدتها الخيالات والاوهام . فليس لنا غنى عن الاوهام لانها نبات الغرائز.

كل شعب يحمل فى كيانه العقلى نواميس مآله فى الوجود والظاهر انه يسير محكوما بتلك النواميس وانه ينقاد لحكمها بفطرة لا مقدور له فيها حتى فى نزعاته التى يرى انها خارجة عن كل معقول كذلك يظهر احيانا ان الامم مدفوعة بقوى خفية مثل التى تجعل بذرة البلوط شجرة كأمها او التى تدور بها (ذوات الاذناب) فى دائرتها

على انه لا يسعنا ان نعرف الا قليلا من تلك القوى وذلك بالبحث عنها فى حركة تطور الامة العمومية لا فى الحوادث الفردية التى يخال انها سبب ذلك التطور اذ لو قصرنا النظر على هذه الحوادث لظهر ان التاريخ يتكون من مصادفات غير معقولة بالمرة . فلقد كان مما لا يصدقه العقل ان نجاراً جاهلا هو (غاليليه)[1] يصير مدة الفى عام كأله جلت قدرته يؤسس

---

(١) كذا فى الاصل لانه ولد سنة ١٥٦٤ وتوفى سنة ١٦٤٢

باسمه اهم اركان المدنيات فى الدنيا . وكان مما لا يصدقه العقل ان عصابات من العرب تندلع من صحاريها وتبسط فتوحاتها على القسم الاكبر من الدنيا القديمة التى عرفها اليونان والرومان وتختط مملكة فاقت ضخامتها مملكة الاسكندر . كذلك كان مما لا يتصوره العقل أن يقوم ضابط صغير فى أوروبا التى لها قدم راسخة في التاريخ وأهلها طبقات منظمة بعضها فوق بعض ويتمكن من السيادة على جميع أولئك الملوك وتلك الامم

اذن لندع العقل للحكماء ولا نطلبن منه ان يتداخل كثيرا فى حكم الامم فما بالعقل بل على الرغم منه فى غالب الاحيان تولدت مشاعر مثل الشرف وانكار اللذات والايمان بالدين وحب المجد والوطن وهى الصفات التى كانت ولا تزال اقوى دعائم المدنيات كلها

الفصل الثالث

قواد الجماعات وطرقهم فى الاقناع

—

(١) قواد الجماعات ـ حاجة الجماعات الفطرية الى قائد تطيعه ـ روح القواد ـ القواد هم الذين يمكنهم وحدهم ايجاد الاعتقاد ووضع نظام للجماعات ـ استبداد القواد نتيجة لازمة ـ أنواع القواد ـ شأن الارادة

(٢) وسائل التأثير التى يستعملها القواد ـ التوكيد و التكرار والعدوى ـ تأثير كل واحد من هذه العوامل ـ كيف ترتقى العدوى فى الامة من الطبقة السفلى الى الطبقة العليا ـ فى ان الفكر يكون للعامة فلا يلبث أن يصير عاما

(٣) النفوذ ـ تعريف النفوذ وأنواعه ـ النفوذ المكتسب والنفوذ الشخصى ـ أمثلة متنوعة ـ كيف يزول النفوذ

نحن الآن نعرف تركيب الجماعات الفكرى والعوامل التى تؤثر فى نفوسها بقى علينا ان نذكر كيفية استعمال هذه العوامل ومن الذى يمكنه استعمالها استعمالا مفيدا

١

قواد الجماعات

ما اجتمع عدد من الاحياء سواء كان من الحيوان او من بنى الانسان الا جعل له بمقتضى الفطرة رئيساً

والرئيس فى الجماعات البشرية عبارة عن قائد فى الغالب الا ان له بذلك شأناً كبيراً تجتمع الافكار وتتحد حول ارادته وهو الركن الاول الذى يقوم به نظام وحدة الجماعات ويهيئها لان تصير طائفة خاصة

والعادة ان القائد يكون قبل ذلك مقوداً . اعنى انه كان مسحوراً بالفكرة التى صار هو الداعى اليها حتى استولت عليه استيلاء لا يرى معه الا ما كان منها وان كل ما خالفها وهم وباطل كما جرى للزعيم (روبسبير) اسكرته افكار (روسو) فقام يدعو اليها . واستعمل الاضطهاد وسيلة لنشرها .

ليس القواد غالبا من اهل الرأى والحصافة بل هم من اهل العمل والاقدام وهم قليلو التبصر . على انه ليس فى قدرتهم ان يكونوا بصراء . لان التأمل يؤدى غالبا الى الشك ثم الى السكون. وهم يخرجون عادة من بين ذوى الاعصاب المريضة المتهوسين الذين اضطربت قواهم العقلية الى النصف وامسوا على شفا جرف الجنون . لا ينفع الدليل على فساد ما اعتقدوا كيفما كان معتقدهم باطلا . ولا تثنيهم حجة عن طلب ما قصدوا بالغاً منه الخطل ما بلغ . ولا يؤثر فيهم الاحتقار ولا الاضطهاد بل ذلك يزيدهم تهوساً وعنادا . حتى انهم يفقدون غريزة المحافظة على النفس فلا يبتغون فى الغالب اجرا على عملهم الا ان يكونوا من ضحاياه . تزيد شدة اعتقادهم فى قوة تأثير اقوالهم . والجموع تصغى دائما الى قول ذى الارادة القوية الذى يعرف كيف يتسلط عليها ومتى صار الناس جماعة فقدوا ارادتهم والتفوا كلهم حول من كان له شيء منها

وجد القواد فى الامم على الدوام . غير انهم ليسوا جميعاً من اهل الاعتقاد الصادق الذى يصير به المرء رسولاً فى قومه .

بل هم فى الغالب قوالون سوفسطائيون لا يسعون الا وراء منافعهم الذاتية فيتملقون ذوى المشاعر السافلة ليكتسبوا رضاهم وقد يكون النفوذ الذى ينالونه بهذه الوسائل كبيراً جدا الا انه سريع الزوال . اما اصحاب المعتقدات الصحيحة الذين تمكنوا من نفوس الجماعات وحركوها مثل (بطرس الراهب) و (لوثر) و (سافونارول) ورجال الثورة الفرنساوية وغيرهم فانهم لم يتمكنوا من خلب العقول واجتذاب الارواح الا بعد ان سكروا بخمر المذهب الذى اعتقدوه . وبذلك توصلوا الى توليد تلك القوة الهائلة فى النفوس وهى التصديق الذى يجعل المرء عبداً لخياله .

كان عمل قواد الجموع على الدوام خلق الاعتقاد فى النفوس لافرق بين ان يكون دينياً او سياسياً او اجتماعيا . ولا ان يكون محله عملا او انسانا او رأياً بهذا كان تأثيرهم عظيما جدا . لان الايمان اكبر قوة فى تصرف الانسان . وقد صدق الانجيل فى قوله انه يزحزح الجبال عن مواضعها . فمن كان مؤمنا زادت قوته عشر امثالها . والذى قام با كبر حوادث التاريخ افراد من الضعفاء المؤمنين الذين لم يكن لهم من الحول الا

الايمان . وليس المستبدون ولا الفلاسفة ولا اهل البأس على الاخص هم الذين اقاموا الاديان الكبر التى سادت على الدنيا . واختطوا المبانى الشاسعة التى امتدت فوق السطحين

غير ان الامثلة التى ذكرناها تختص بقواد عظام يندر ظهورهم فمن السهل على التاريخ حصرهم . وهم رأس سلسلة تتدلى من أولئك القواد العظام الى العامل الذى يقف فى قهوة اطبق الدخان فى سمائها ويسترعى اسماع اخوته وهو يلوك صيغاً حفظها من دون ان يدرك معانيها . ولكنه يؤكد ان فى العمل بها تحقيق جميع الامانى والآمال

لا يلبث الانسان ان يقع تحت حكم قائد يتبعه كلما خرج عن العزلة الى الجماعة ذلك امر واقع فى جميع الطبقات ارقاها وادناها . فاما افراد طبقة العامة فان الواحد منهم متى خرج عن حرفته او مهنته لا تجد عنده فكراً واضحا فى أمر من الامور . وكلهم غير كفء لقيادة ذاته . ومرشدهم هو القائد وربما امكن الاستعاضة عنه بتلك الصحف الدورية التى تصنع لقرائها افكاراً وتحصل لهم جملا مصوغة تغنيهم عن التفكير الا ان البدل لا يقوم مقام الاصل تماماً

من لوازم سلطة القواد ان تكون مستبدة على ان استبدادهم هو علة سيادتهم وقد لوحظ كثيراً ان فيهم مقدرة على اطاعة طبقات العمال الذين هم أشد عربدة واصعب مراساً مع تجرد اولئك القواد من كل شيء يستندون عليه فى سلطتهم . فهم يحددون ساعات العمل ويقررون الاعتصابات وينفذونها بعيقات ويفضونها بعيقات

قواد هذه الايام صائرون الى الحلول مكان السلطات الحاكمة كلما تركت هى الناس يبحثون فيها ويضعفون من نفوذها . وتعسف المولى الجديد وظلمه يجعل الجماعة تطيعه بسهولة اكثر مما اطاعت حكوماتها . واذا حدث حادث اختفى بسببه القائد ولم يول الخلف على الاثر تصبح الجماعة جمهوراً مفكك الاجزاء ولا قدرة فيها . فلما اعتصب عمال شركة الامنيبوس اعتصابهم الاخير فى باريس وقبض على الرئيسين اللذين كانا القائدين بطل الاعتصاب لساعته . . انما الحاجة التى يشتد شعور الجماعة بها هى الخضوع لا الحرية وقد بلغ منها الظمأ الى الطاعة انها تخضع بفطرتها لكل من ادعى السيادة عليها

تنقسم القواد الى فريقين ممتازين فقواد أولو عزم وارادة قوية لكنها وقتية . وقواد ذوو ارادة جمعت بين القوة والدوام وهؤلاء قليلون والفريق الاول اصحاب حدة ونزق وشجاعة واقدام . وهم على الاخص نافعون فى تنفيذ ما دبر او كسب الجموع بلا خوف من الخطر وفى جعل الجبان بطلا مغواراً ذلك مثل (ناى) و (مورات) زمن الامبراطورية الاولى ومثل (غاريبالدى) فى عصرنا هذا فانه كان رجلا هجوما لاذكاء فيه لكن ذا عزم ومضاء . وبذلك تمكن مع نفر قليل من الاستيلاء على مملكة (نابولى) القديمة على رغم الجيش المنظم الذى كان يحميها

عزيمة أولئك القواد على قوتها قلما تبقى بعد زوال السبب الذى دعا اليها . وكثيراً ما يبرهن الذين تجملوا بها على ضعف مدهش متى عادوا الى حياتهم الاعتيادية كالذين ذكرناهم فتراهم لا يستطيعون التصرف فى أصغر الحوادث مع كونهم كانوا ماهرين فى تصريف غيرهم . أولئك قواد لا يمكنهم القيام بوظائفهم الا اذا كانوا نفسهم مقودين وكان لهم مهيج على الدوام واستولت عليهم يد أو فكر من الافكار

وساروا فى طريق مرسوم من قبل

اما الفريق الثانى من القواد وهم ذوو الأرادة الثابتة فان تأثيرهم اعظم بكثير وان كانوا اقل ظهوراً فى الشكل وهم الذين نبغ من بينهم اصحاب الاعمال الكبيرة كالقديس (بولص) ومحمد (صلى الله عليه وسلم) و(كريستوف كولومب) و(دولسبس). وسواء كان قوادهذا الفريق من الاذكياء او الاغبياء لهم الدنيا أبد الآبدين لان الارادة الثابتة التى اتصفوا بها ملكة نادرة الوجود لكنها قوية يخضع لها كل شىء الا ان الناس لا يدركون دائما ما عسى ان يكون من وراء الارادة القوية المستمرة فالذى يكون من ورائها هو أنه لا شىء يقف أمامها حتى الطبيعة حتى الآلهة حتى الرجال

وأقرب الامثال على ما تأتى به الادارة القوية الثابتـه هو ذلك الرجل العظيم الذى فصل الدينين . وأنجز عملا قصرت عنه همة أكبر الملوك منذ ثلاثة آلاف عام . نعم لم ينجح بعد ذلك فى عمل يضارع هذا العمل . لكن الشيخوخة كانت قدأدركته وكل شىء ينطفىء أمامها حتى الارادة

من أراد بيان ماتأتى به الارادة وحدهافما عليه الا أن يذكر

العقبات التي ذللت لفتح قناة السويس . وقد لخص الدكتور (كزاليس) وهو من شهود الحال فى أسطر تسحر الالباب تاريخ ذلك العمل المجيد نقلا عن صاحبه الذى خلد التاريخ ذكره فقال «كان - يعنى دلسبس - يقص علينا حيناً فحيناً حوادث القناة مرحلة بعد أخرى . فحكى لنا مالاقى من الصعاب التي ذللها . وكيف جعل المستحيل ممكناً وروى المقاومات التي صادفته . والتحزبات التي اعترضته واليأس الذى كان قد استولى على تابعيه والخيبة التي كان يؤوب بها وكيف ان ذلك كله لم يكن ليثنى عزيمته . ولا ليضعف من ارادته . وكان يذكر انكلترا وهى تحاربه وتحمل عليه الحملة بعد الحملة . وفرنسا ومصر مترددتان والعميد الفرنساوى أشد الجميع معارضة فى البدء بالعمل . حتى أنه لما رأى عدم الامتثال أنحى على العمال بالعطش فسعى فى منع عنهم الماء الفرات . ولا تنسى ان ناظر البحرية وفريق المهندسين والناس من رجل الجد وذى الخبرة وصاحب العلم كانوا خصماء . وكلهم مقتنعون علما بان الخيبة محتمة يحسبون سيرها ويحددون يوم حلولها كما ينبأ بالكسوف او الخسوف»

ان الكتاب الذى يضم سيرة أولئك القواد العظام لا يكون فيه عدد كثير من الاسماء لكن تلك الاسماء هى التى كانت على هامة أكبر حوادث الحضارة والتاريخ .

٣

وسائل القواد فى التأثير
التوكيد والتكرار والعدوى

—

اذا مست الحاجة الى قيادة جماعة وحملها على عمل من الاعمال كاحراق قصر أو الاستماتة فى الدفاع عن حصن أو معقل وجب التأثير فيها بخواطر سريعة . والامثولة أشد ذلك تأثيراً فى نفوسها الا انه يجب أن تكون هناك أحوال جعلتها مستعدة للتأثر وأن يكون من يريد تحريكها حائزاً للنفوذ وسيأتى الكلام فيه

لكن اذا كان الغرض بث افكار فى عقولها أو معتقدات فى نفوسها كالافكار الاشتراكية العصرية فالوسائل غير ما

تقدم . واخص ما يستعمله القواد منها ثلاث : التوكيد . والتكرار . والعدوى . ولذلك تأثير بطيء الا انه متى انبث فيها المطلوب لزمها زمناً طويلا

فاما التوكيد فانه من أهم العوامل لبث الفكر فى نفوس الجماعات متى كان بسيطاً خالياً من التعقل والدليل . وكلما كان التوكيد موجزاً ومجرداً عن كل ماله مسحة الحجة والتقرير كان عظيم التأثير . هكذا اعتمدت الكتب الدينية وقوانين جميع القرون على مجرد التوكيد فالتوكيد قيمته يعرفها أهل السياسة الذين يريدون الدفاع عن عمل سياسى واهل الصناعات الذين يروجون بضاعتهم بالنشر عنها

الآ ان قيمة التوكيد هى بدوام تكراره بالالفاظ عينها ما أمكن ذلك . وأظن ان نابوليون هو القائل بان أهم صيغ البيان التكرار فاذا تكرر الشيء رسخ فى الاذهان رسوخا تنتهى بقبوله حقيقة ناصعة .

للتكرار تأثير فى عقول المستنيرين وتأثيره اكبر فى عقول الجماعات من باب أولى . والسبب فى ذلك كون المكرر ينطبع فى تجاويف الملكات اللاشعورية التى تختمر فيها اسباب

انفعال الانسان . فاذا انقضى شطر من الزمن نسى الواحد منا صاحب التكرار وانتهى بتصديق المكرر . وهذا هو السر فى تأثير الاعلانات العجيب . يقرأ الواحد مائة مرة ان احسن الحلوى ما كان من صنع زيد فيخيل اليه من التكرار انه سمع ذلك من مصادر شتى وينتهى باعتقاد صحة الخبر . ويقرأ ألف مرة ان دقيق فلان شفى اعاظم القوم من مرض عضال فيميل الى التجربة ان اصيب بمثل المرض المذكور . ويقرأ كل يوم فى الصحف ان زيداً من الانذال وعمراً من الفضلاء فينتهى باعتقاد ذلك الا اذا كان يقرأ دائماً فى جريدة أخرى ما يخالفه فانه لا يفل التكرار الا التكرار .

ومتى كثر تكرار أمر واجمع المكررون عليه تولد من عملهم تيار فكرى يتلوه ذلك المؤثر العظيم اى العدوى كما وقع ذلك فى بعض المشروعات المالية الشهيرة التى تمكن أصحابها بثروتهم من كسب كل قادر على معونتهم لان للافكار والمشاعر والتأثرات والمعتقدات عدوى فى الجماعات تماثل فى قوتها عدوى المكروبات وذلك امر طبيعى لوجوده فى الحيوانات متى اجتمعت فالفرس يقبع فى مربطه فتفعل فعله

الخيل كلها . وتجزع الشاة او تضطرب في حركتها فتفعل الغنم مثلها . كذلك لحركات الانسان في الجماعة عدوى سريعة جداً وهذا هو السبب في سرعة انزعاج الكل لفزع الواحد بينهم . حتى ان اختلال القوى العقلية معد . وكثير ما هم اطباء المجانين الذين جنوا . وشاهد بعضهم نوعا من الجنون تنتقل عدواه من الانسان الى الحيوان

ولا يجب في العدوى وجود الافراد الكثيرين في مكان واحد بل يجوز أن تحصل عن بعد من الحوادث التي تتحد لاجلها وجهة افكار المتأثرين بها فتجعلهم بذلك كالجماعة لاسيما اذا كانت النفوس مهيأة من قبل باحد العوامل البعيدة التي مر ذكرها . ذلك ما كان من ثورة سنة ١٨٤٨ فانها بدأت في باريس وما عتمت ان امتدت الى قسم كبير من اوروبا وهزت اركان كثير من الممالك

قالوا ان لحب التقليد تأثيراً كبيراً في الناس وليس التقليد الا أثراً بسيطاً من العدوى . وقد بينت أثر التقليد منذ خمس عشرة سنة في غير هذا الكتاب فاكتفي بايراد ماقلته اذ ذاك مما شرحه بعد ذلك الكتاب حديثاً

« الرجل شبيه بالحيوان يميل بطبعه الى التقليد . فالتقليد من حاجاته على شرط سهولته . وهذه الحاجة هى التى تجعل للبدئ (المودة) تأثيراً كبيراً . والقليل من الناس لا يقلد سواء كان ذلك فى الافكار او الاراء أو الاديبات او اللباس لان الذى تقاد به الجماعات هو المثال لا البرهان . ولكل عصر اناس قليل عددهم يستحدثون البدىء فيقلدهم ابناء عصرهم فيها . وانما يشترط ان لا يتعد المبتدع كثيراً عن المألوف حتى لا يصعب التقليد فيضعف تأثير المبتدع ولذلك لم يكن للذين فاقوا عصرهم من كبار الرجال تأثير فى قومهم الا نادراً لبعد البون بينهما . ومن هنا قل تأثير الاوروبى فى الشرقى مع ما للاول من المزايا المدنية لان الخلف شديد بين الرجلين

يتشابه اهل كل عصر فى كل امة بتأثير الزمن وتبادل التقليد حتى الذين يخيل انهم متفاوتون كالحكماء والعلماء والادباء فانك ترى على افكارهم وما يكتبون صبغة عشيرة واحدة تدلك فى الحال على انهم ابناء عصر واحد . ولا يلزم ان يطول الحديث مع رجل لمعرفة الدرس الذى يصبو اليه . والعمل

الذى اعتاده . والبيئة التى يختلف اليها »[١]

ويبلغ تأثير العدوى الى حد أنه يتعدى توحيد الافكار الى توحيد كيفية التأثر بالحوادث . فالعدوى هى التى تنفر من الشيء فى وقت من الاوقات ثم ترغب فيه ثانية من كان اشد الناس بغضاً له كما وقع فى (تانها وزر)[٢]

والعدوى هى الاصل فى انتشار افكار الجماعات ومعتقداتها لا الحجج والبراهين ففى الخمارة تتولد افكار الفعلة من طريق التوكيد والتكرار والعدوى . وقليلا ما تولدت افكار الجماعات فى كل عصر من غير هذا الطريق . وقد اصاب (رنان[٣]) اذ شبه مؤسسى النصرانية الاولين

---

(١) راجع كتاب الانسان والهيئة الاجتماعية لمؤلفه جوستاف لوبون سنة ١٨٨١ جزء ٢ ص ١١٦

(٢) رواية وضعها وجنر نفر الناس منها أولا ثم أعجبوا بها

(٣) حكيم مشهور بفرنسا فى اواخر القرن الماضى وكان قسيسا فى مبدأ أمره وهو صاحب الكتاب المعروف المسمى (حياة المسيح)

« بالفعلة الاشتراكيين الذين ينشرون مبادئهم من خمارة الى اخرى » وقال (فولتير)[1] قبل ذلك بالنسبة للديانة المسيحية « انها استمرت لايدين بها الا اخس الناس مدة مائة عام »

ويؤخذ من الامثلة المتقدمة ان العدوى فى مثل تلك الاحوال تبتدىء فى الطبقات النازلة ثم تصعد منها الى الطبقات الرفيعة ونحن الآن نشاهد هذه الظاهرة فى مذهب الاشتراكيين لانه بدأ يمتد بين الذين يخال انهم سيكونون اول ضحاياه . لكن قوة العدوى شديدة بحيث يضعف امامها أثر المنافع الذاتية

هذا هو السبب فى ان الفكر اذا انتشر بين طبقات العامة لابد له من الانتشار ايضاً بين بقية طبقات الامة الى ارفعها وان كان فاسدا بعيدا عن الصواب . وهنا رد فعل يتسرب من الطبقات الدنيا الى الطبقات العليا . وذلك من اغرب المشاهدات الاجتماعية لان الافكار العامة لاتأتيهم دائما الا من افكار عالية تخلف عنها أثرها فى البيئة التى ولدت فيها فيتناولها قائدو الجماعة بعد ان تتمكن منهم ويشوهونها ثم

(١) اشهر كتاب الفرنساويين فى القرن الثامن عشر

يؤلفون فئة تزيد فى تغييرها . ثم يبثونها فى الجماعات وهذه تضاعف التغيير . ثم تصير حقيقة عند العامة وبعد ذلك تصعد الى منبعها فتتمكن من نفوس الطبقة العالية . وعلى هذا يكون العقل هو الذى يحكم الدنيا ولكن من بعد باعد . فقد تفنى عظام الحكماء الذين يوجدون الافكار وتصير ترابا ويمر عليها كذلك الزمن الطويل قبل ان تسود الافكار التى اوجدوها

٣

النفوذ

مما يساعد كثيراً على قوة تأثير الافكار التى بثت فى الجماعات بواسطة التوكيد والتكرار والعدوى كونها تنتهى باكتساب قوة خفية تسمى النفوذ

للنفوذ قوة لاتقف امامها قوة اخرى . وكل سلطة سادت فى الوجود سواء كانت سلطة الافكار او الرجال فهو السبب فى قيامها وسيادتها . والنفوذ كلمة يعرف الجميع معناها ولكنها تستعمل استعمالات كثيرة . ولذلك لم يكن من السهل تعريفها . وقد

يجتمع النفوذ مع بعض المشاعر كالاعجاب او الرهبة . وربما كان الاثنان اصلا له في احوال كثيرة . الاّ انه قد يوجد بدونهما . مثل نفوذ الذين ماتوا فانه لا محل للخوف منهم . ودليل ذلك ان اكثر من نشعر بنفوذه فيناهم من الذين ارتحلوا عن هذه الدار ولم نعد نخاف منهم مثل الاسكندر وقيصر ومحمد (صلى الله عليه وسلم) وبوذا . كذلك لبعض الكائنات او البدع تأثير في النفوس وان كان مما لا يعجب به كالآلهة المنغوليين الذين يوجدون في معابد الهند التي تحت سطح الارض

ويمكن ان يقال ان النفوذ عبارة عن سلطة رجل او عمل او فكر يستولى بها على العقول . وتلك السلطة تعطل ملكة النقد فتملأ النفس اندهاشاً واحتراما . ولا يمكن تفسير الشعور الذي يحدث منه كما هو الشأن في كل شعور . الا انه لابد ان يكون من جنس الاجتذاب الذي يحدث في نفس الشخص النائم نوما مغناطيسياً . والنفوذ اعظم مقوم لكل سيادة في العالم اذ لولا هو ما ساد الآلهة والملوك والنساء

ثم النفوذ انواع يمكن حصرها في قسمين . النفوذ المكتسب

والنفوذ الشخصي . فالاول هو الذي يرجع لاسم صاحبه او ثروته او شهرته . وقد يكون منفصلا عن النفوذ الشخصي واما النفوذ الشخصي فهو امر ذاتي قد يجتمع مع الشهرة والمجد والثروة ويشتد بانضمامها اليه . وقد يكون وحده

واكثر النوعين شيوعا هو النفوذ المكتسب اوالعرضي فهو يثبت للرجل بمجرد كونه يشغل مركزاً او يملك ثروة او يتحلى ببعض الالقاب وان لم يكن له قيمة من نفسه فالجندي في لباسه والقاضي في زيه الرسمي نفوذ ما ارتديا لباسهما . ولذلك قال (باسكال) بضرورة الجبة والشعر للقضاة[1]

---

(١) للالقاب والاوسمة والشارات تأثير في الجماعات في كل بلد حتى التي بلغ فيها استقلال الفرد وحريته ارفع الدرجات . واني أنقل هنا جملة غريبة من كتاب حديث نشره أحد السياح ياتاً النفوذ بعض العظماء في انكلترا قال « لاحظت مراراً ان اجتماع احد الحائزين لقب (بير) مع أكبرهم عقلا وتمييزاً يحدث في نفوس هؤلاء شعوراً يكاد يكون سكراً من نوع خاص . فمتى كان له من اليسار ما يرتكز عليه لقبه فهم يحبونه قبل ان يروه . فاذا التقوا به تلقوا منه كل شيء فرحين . تحمر وجوههم سروراً بقدمه . فاذا خاطبهم كتموا جذلهم فيشتد احمرار الوجنتين . ويظهر في العينين بريق غير معهود . اللوردية

ولولا الجنة والشعر لفقدوا ثلاثة ارباع نفوذهم ولا يزال الاشتراكي كيفما اشتد جفاؤه يشعر بشيء من الاضطراب اذا رأى أميراً أو عظيما من الشرفاء ويكفي ان يكون هذا اللقب لرجل ليتمكن من النصب على التاجر فيما يشاء

والنفوذ الذي اشرنا اليه خاص بالانسان . وبجانبه يوجد النفوذ الذي يكون للافكار او الادبيات او الفنيات وغير ذلك وهو في غالب الاحوال ناشيء من التكرار وما التاريخ وبالاخص تاريخ الاداب والفنون الا تكرار رأى سبق ولم يعارضه احد فيؤول الامر الى ان كل واحد يكرر ما قرأ في المدرسة ووجدت بذلك اسماء واشياء لا يجرأ احد على الحديث فيها فما لا شبهة فيه ان مطالعة « هومير » تورث قراء هذا الزمان مللا شديداً الا انه لا يجرأ احد على القول به و« البارتينون » اصبح اليوم خرابة تراكمت فيها الانقاض

في دمهم كالرقص عند الاندلسي . والموسيقى عند الالماني والثورة عند الفرنساوي . شهوتهم في الخيل وشكسبير اقل من شهوتهم في الشرفاء وارتياحهم وتيههم لهؤلاء أكبر . كتاب تلك الرتبة عندهم في رواج وهو كالتوراة موجود عند كل انسان

رلا فائدة منها . الا أن نفوذه لا يزال قويا حتى انهم لا يبصرونه كما هو الآن بل كما كان فى القدم محفوفا بأبهته وفخامته فمن خواص النفوذ ان لا يجعل الانسان يرى الشيء على حقيقته وان يعطل فيه ملكة النقد والتمييز

تحتاج الجماعات دائماً والافراد غالباً الى آراء حاضرة فى جميع المباحث وانتشار هذه الاراء غير مرتبط بما اشتملت عليه من الصواب او الخطأ بل مرجعه مالها من النفوذ

ننتقل الآن الى النفوذ الشخصى وهو يختلف مع النفوذ المكتسب لانه صفة تنفرد عن كل لقب وكل وظيفة يتصف بها أفراد معدودون فيبهرون بها نفوس من حولهم ويجذبونها اليهم كالمغناطيس وان ساووهم فى المنزلة بين أمتهم ولم يكن لهم شيء من وسائل التسلط والغلبة ويبثون فيهم افكارهم وينقلون اليهم مشاعرهم . وأولئك يطيعون امرهم كما يطيع الحيوان المفترس أوامر مروضه . وان كان فى استطاعته افتراسه بالسهولة لو اراد

كان هذا النفوذ الكبير لجميع العظماء من قواد الجماعات مثل بوذا وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم وجان دارك

ونابليون. وهو السبب فى تمكنهم فانما تتسلط الآلهة والابطال والمذاهب تسلطاً لا دخول للمناظرة فيه . بل ذلك السلطان يزول اذا بحث فيه

كان اولئك العظماء ذوى قوة اخاذة قبل اشتهارهم . وتلك القوة هى السبب فى شهرتهم . فلما بلغ نابليون مثلا ذروة المعالى كان له نفوذ شامل بمقتضى منعته وسلطانه . الا انه كان له شئ منه يوم لم يكن له شئ من السلطة ولم يكن معروفا لدى احد فلما ترقى الى رتبة لواء (جنرال) وكان لا يزال مجهولا عهد اليه من كان مستصنعاً له بقيادة الجيش الفرنساوى المحارب فى بلاد ايتاليا فوجد نفسه بين لواآت عتاة اشداء وكانوا قد اجمعوا امرهم على الاغلاظ له فى المقابلة لاعتبارهم اياه دخيلا بينهم . ولكنه ما عتم ان اخذ بزمامهم من اول التقائه بهم بلا كلام ولا اشارة ولا وعيد بل باول نظرة من ذلك الذى قدر له ان يكون من العظماء . واليك كيف كان اللقاء

« جاء قواد الفرق الى المعسكر العام وقلوبهم نافرة من هذا الرجل حديث النعمة وكان بينهم اللواء (اوجيرو) وهو

جندى عظيم الجثة غليظ الطبع . مختال بطول نجاده فخور بشجاعته وكان ممتعضاً ينساب بالشتائم على نابليون من يوم ن سمع به وعرف اوصافه فسماه صنيعة (باراس) ولواء الشارع ونعته بالدب لانه كان يحب التفكر منعزلا وذا سمنة صغيرة ومشهوراً بالرياضى الصغير وبالخيال فلما اكتملوا ادخلوهم غرفة الاستقبال فابطأ نابليون فى الخروج اليهم وبعد زمن بان لهم متقلداً سيفه ثم اتشح برداته واخبرهم بنياته وانفذ اليهم اوامره واشار اليهم بالانصراف اما (اوجيرو) فقد تولاه الصمت ولم يرجع الى نفسه الا بعد ان خرج فجعل يسب كما كان يشتم من قبل ولكنه اقر مع زميله (مسينا) ان هذا القائد الصغير اوقع الرعب فى قلبه وانه حائر فى التأثير الذى اخذه به اول ما وقع بصره عليه »

صار نابليون من كبار الرجال فزاد نفوذه بمقدار ما اوتى من المجد واصبح فى اعين الجماعات مساويا للآلهة عند المتعبدين اتفق ان القائد (فاندام) وكان جنديا ثوريا خشن الطباع جاف الاخلاق اكثر من زميله « اوجيرو » قصد ذات يوم سراى تويلرى حيث نابليون وذلك سنة ١٨١٥ ومعه القائد

(اورنانو) فقال الاول للثانى وهما صاعدان فوق سلم القصر يحدثه عن نابليون «ايها الصديق ان لذلك الرجل الشيطان فى نفسى تأثيراً لست ادرك كنهه حتى انك لترانى مع كونى لا اخاف الله ولا الشيطان اذا اقتربت منه تأخذنى الرعشة كالطفل الصغير ويخيل الى انه قادر على ادخالى فى سم الخياط واحراقى بالنار» وقد كان لنابليون مثل ذلك التأثير فى جميع من يقترب منه (١)

---

(١) وكان هو يعلم ذلك من نفسه ويعلم انه يزيد فيه بمعاملته أكبر من حوله من الرجال معاملة لا تليق بعلاف الخيل على أنه كان من بينهم كثيرون من رجال الثورة الذين ازعجوا أوروبا . وروايات عصره مشحونة بالامثلة فى هذا الموضوع . فمنها انه انتهر ذات يوم (بونيو) وسط مجلس شورى الدولة ونعته بخادم قليل التربية . فارتعد المشتوم . فاقترب منه نابليون وقال له « أثاب اليك رشدك ايها الابله الكبير » . وكان بونيو واقفاً على قدميه كالمارد فانحنى ملياً فمد الصغير يده وقبض على اذن الكبير . قال (بونو) « علامة رضا تسكر من وجهت اليه وصفاء سيد يتلطف » . هذه الحوادث وامثالها تدل على ما يفعله النفوذ في النفوس اذ يجعلها تخنع خنوع الذلة والصغار . وتبين

هذا التأثير الذى فاق حد الاعجاب يبين لنا السبب فى الاستقبال العظيم الذى قوبل به نابليون يوم عودته من جزيرة « البا » وكيف انه افتتح ثانية بلا امهال قلوب الامة الفرنساوية وهو أعزل وليس معه معين وامامه جيوش تلك الامة المنظمة وكان الناس يظنون انها سئمت من جبروته عليها . حلف القواد الذين ارسلوا للقبض عليه ان يفعلوا فلم تكن الا نظرة منه اخضعتهم وهم صامتون وكتب القائد (ولسلى) فى ذلك يقول « نزل نابليون من السفينة الى بر البلاد الفرنساوية وليس معه الا قليل من رجاله الخصوصيين كانه فار من جزيرة « البا » الصغيرة التى كانت بكل مايقدران يتسلط عليه فما لبث بضعة اسابيع حتى قلب نظام الادارة الفرنساوية كلها على مرأى من ملكها الشرعى وذلك من غير ان يريق قطرة دم لواحد من اهلها بل بمحض نفوذه الشخصى مما لم يسبق له مثيل فى الدنيا واعجب منه ما كان له من التأثير فى حلفائه اثناء هذه الحركة الطويلة التى ختمت فيها حياته العمومية

درجة احتقار ذلك الجبار العظيم لمن حوله فهو الذى كان يقول عنهم انهم لا يصلحون الا حشوا للمدافع

فانه كان يلجئهم الى تتبع خطاه حتى كاد يسحقهم لولا المقادير

مات نابليون ولكن نفوذه بقي حياً بعده او صار ينمو وتأثيره هذا هو الذى حمل الناس على الاعتراف بابن اخته امبراطوراً وكان من المستضعفين وهانحن اولاء اليوم نشهد ظهور اقاصيصه من جديد وذلك برهان على ان خياله لا يزال قويا في النفوس . اسيء معاملة الرجال كما تشاء واقتلهم الوفا الوفا وانزل على البلاد غارة وغارة انك في حل مما تصنع مادمت ذا نفوذ وكان فيك من الذكاء ما تحمى به ذالك النفوذ

رب قائل ولكنك قد اخترت التمثيل للنفوذ باكبر مثال عزيز المثال والحق انى اخترته عمداً لابين للقراء كيف ثبتت اركان الديانات الكبر . وقامت المذاهب العظام . وانشئت الممالك الواسعة اذ لولا تأثير النفوذ في الجماعات ما كنا لذلك مدركين

لا يقوم النفوذ بالتأثير الشخصي والفخار العسكرى والرهبة الدينية دون سواها . بل يجوز ان يتسبب عن امر اصغر منها بكثير ويكون مع ذلك شديداً . ولنا من القرن الحاضر امثلة كثيرة اكبرها مثال سيتوارثه السلف عن

الخلف جيلا بعد جيل . وهو الذى نرد فى تاريخ ذلك الرجل العظيم الذى غير وجه البسيطة كما غير طرق المواصلات التجارية بين الامم يوم ان فصل بين القارتين . وقد كان السبب فى نجاحه ما اوتيه من قوة الارادة . ولا تنس تأثيره الذى كان ينفذه الى نفوس مخالطيه . كان الناس كلهم اضداداً له فاذا ما وجد فيهم انقلبوا برأيه معجبين . واذا خاطبهم اسكرتهم عذوبة القول فاصبحوا بعد النفور احبة صادقين ولقد انفرد الانكليز بالشدة فى معارضته فلما ظهر فى بلادهم صاروا له اعواناً مخلصين . ثم مرَّ بمدينة (سوثمبتون) فدقوا النواقيس فرحا بمقدمه وهم يفكرون الآن فى اقامة تمثال يخلد ذكره دهر الداهرين . قامت فى وجهه الحوائل من مادة ورجال وماء وصخور ورمال فقهر الكل وسخره فلما فاز اصبح لا يؤمن بالصعاب ولا يخشى الصدام واراد ان يبدأ عملا جديداً ففكر فى الذهاب من السويس الى باناما . وشرع فى العمل بالوسائل نفسها لكن الشيخوخة كانت قد اقبلت واليقين لا يزحزح الجبال الا اذا لم تتصل بذروتها السماء هنالك استعصى الجبل . وحم القضاء . ونزلت الكارثة فهدمت

صرح مجد اقامه ذلك البطل العظيم ان في حياته لمرشداً كيف يحيا النفوذ وكيف يموت. ابلغ الرجل في المجد ارفع منزلة رقيها كبار الرجال . وانزله قضاة امته الى اخس دركات المجرمين فلما مات ، رت جنازته كانها تشيع نفسها بين الجماهير وهم عنه لاهون وانما ملوك الدول الاجنبية هم الذين ذكروه يوم مماته فاعربوا عن اعجابهم به كما يقع لاعاظم الرجال (١)

---

(١) لما مات دولسبس نشرت جريدة « نوى فراى بريسه » النمساوية بمدينة « فينا » مقالة في مآل ذلك الرجل جاءت فيها بخواطر جديرة بالامعان ولذلك تنقلها للقراء قالت « لم يبق موجب للعجب من مآل كريستوف كولمبو (١) الذي يثير الحزن والاسى بعد الحكم على « فرديناند دولسبس » لانه اذا كان فرديناند دولسبس نصابا فكل أمل من الآمال الكبار جرم عظيم ولو كان دولسبس من أهل العصور الاولى لتوجه اهل زمانه بابهى تاج من المجد والفخار . ولسقوه الرحيق في حجرة آلهتهم التي كانوا يعبدون لانه غير وجه الارض . واتى من الاعمال ما يدعو الى تحسين الخلق في الوجود

خلد رئيس محكمة الاستئناف اسمه في التاريخ بحكمه على دولسبس

---

(١) هو الذي اكتشف امريكا

الامثلة التى قدمناها تعد اقصى ما يبلغ النفوذ اليه . فاذا

لأن الامم لا تنفك تسأل عن اسم الذى اجترأ غير هياب فحط من قدر عصره . والبس طاقية المجرمين رأس شيخ كانت حياته مجداً وفخاراً لمعاصريه

« الا فليكفوا منذ اليوم عن ذكر العدالة بين ربوع تمكنت البغضاء من نفوس صغار الموظفين فى مصالحها فحنقوا على كل من قام بعمل مجيد . الا ان الامم فى حاجة الى رجال ذوى عزم واقدام يثقون بانفسهم ويقتحمون كل صعب وهم لذواتهم غير ملتفتين الا انه لا حذر لنابغ اذ لو كان حذراً ما امكنه ان يرقى هامة العصر الذى هو فيه

« ذاق فرديناند دولسبس حلاوة المجد وغضاضة الجندل . السويس وبناما . وهنا يحق للنفس ان تغضب من اداب الفوز والانتصار فلما افلح دولسبس وجمع بين البحرين جاءته الملوك والامراء تهديه التهانى . واليوم لما ادركه الفشل امام صخور (كورديليير) كان نصاباً حقيراً . ان هذه الا حرب تقوم بين الطبقات فى الامم يثيرها حقد الموظفين الذين الفوا المكاتب ولاذوا يتأنون العقوبات انتقاما ممن يصبو الى المجد والمعالى . ولقد يحار مشرعو هذى العصور امام تلك الافكار العالية التى يولدها النبغاء . والعامة فى ذلك اقل فهما وادنى ادراكا . لكن من السهل على الافوكاتو العمومي اقامة البرهان على ان ستانلى من القتلة وان دولسبس من الخادعين

والناس من يلق خيراً قائلون له ما يشتهى ولأم المخطىء الهبل

اردت ان تعرف ماهيــة النفوذ مفصلاً وجب ان تضع تلك الامثلة فى اعلى السلم ثم تتدرج من منشئى الديانات ومقيمى الممالك حتى تصل الى الرجل البسيط الذى يحاول ان يبهر جاره بثوب جديد او وسام

وبين هاتين النهايتين درجات كثيرة من النفوذ تراها فى جميع اركان المدنيــة من علوم وفنون واداب . وترى النفوذ اول مؤثر فى تحصيل الاعتقاد . فالناس يقلدون ذا النفوذ عمداً او بمحض الفطرة سواء كان انساناً او رأياً او شيئاً آخر . ويتولد فى اهل عصر من قلدوه طريقة مخصوصة يحسون بها ويترجمون عما به يشعرون . ويكون التقليد فى الغالب فطرياً لذلك يبلغ حد الكمال والاتقان . ومن ذلك ان مصورى هذه الايام اخذوا يعيدون رسم الصور ذات الالوان الباهتة والازياء العابسة التى تمثل اناساً من اهل الفطرة الاولى . وهم لا يشعرون من اين جاءهم هذا الميل ويظنون انهم هم الذين اوجدوه لانفسهم وفاتهم انه صنع احد كبار المصورين ولولا ذلك لاستمروا على النظر الى تلك الصور من جهة سذاجتها وانحطاط درجتها فى فن التصوير . ومنهم من قلدوا احد

المشاهير فجعلوا يكثرون في مصوراتهم من الظلال البنفسجية اللون مع انهم لا يرون هذا اللون منتشراً في الطبيعة اكثر مما كان يراه غيرهم منذ خمسين عاماً . والواقع انهم متأثرون بفعل استاذ من عظماء اساتذة الفن كانت له في ذلك التلوين شهرة فائقة وان كان هذا الاختراع مما يعد غريبا . وامثال المصورين كثيرة في جميع عناصر المدنية

ويؤخذ مما تقدم ان النفوذ يتكون بعوامل شتى أهمها النجاح . فمتى نجح الآمر في امره دانت له الناس وبطلت معارضتهم له وكذلك الفكر اذا تمكن من العقول والدليل على ان النجاح اقوى عامل في تحصيل النفوذ ان هذا يذهب بذهاب ذاك . فالناس يهللون في المساء لبطل كلل بالنصر ويسخرون منه في الصباح اذا قلب له الزمان ظهر المجن وبقدر النفوذ يكون انعكاس الرأى في صاحبه اذا تولته الخيبة فتراد الجماعة من اندادها فتميل الى الانتقام منه جزاء ذلها امام سلطانه الذي لم تعد تعترف له بشيء منه. هكذا كان نفوذ روبسبير شديداً يوم كان يقطع رؤوس زملائه ورؤوس الكثير من معاصريه . فلما ضاعت منه بعض الاصوات

وقت الانتخاب وسقط من مركزه نازقه النفوذ لساعته .
وشيعته الجماعة الى المشنقة وهى تتميز من الغيظ كما كانت
تشيع بالامس موجاياه . ومن عبد الآلهة وزاغ عنها كاد يقتله
الغضب وهو يحطم الاصنام .

يذهب الخذلان بالنفوذ فجأة وقد يذهب النفوذ بالبحث
فيه . لكن ذلك لا يتم الا بالتدريج . وهذه الوسيلة هى
اضمن الوسائل لاضاعته وما من اله او انسان دام له النفوذ
زمناً طويلا الا كان لا يحتمل المناظرة فيه . انما تعجب الجماعات
بمن يترفع عن مقامها

الفصل الرابع

حدود تغير معتقدات الجماعات وافكارها

—

(١) فى المعتقدات الثابتة — في عدم تقلب بعض المعتقدات العامة — في ان هذه المعتقدات هى التى تهتدى بها المدنية — في صعوبة ازالتها — فى ان التعصب احد فضائل الامم من بعض الوجوه — في ان بطلان معتقد عقلا لا يؤثر فى انتشاره ورسوخه

(٢) — فيما للجماعات من الافكار غير الثابتة — فى ان الافكار التى لا ترجع الى المعتقدات العامة كثيرة التغير — فى ان تغير المعتقدات والافكار يظهر فى أقل من قرن واحد — فى حدود هذا التغير الحقيقية — فيما يكون فيه التغير — فى ان زوال المعتقدات العامة فى العصر الحاضر وشدة انتشار المطبوعات مما يزيد فى كثرة تغير الافكار — فى ان أفكار الجماعات تميل الى عدم الاهتمام بكثير من الاحوال — فى ضعف الحكومات عن قيادة الافكار كما فى الزمن السابق — فى أن تشعب الافكار في الزمن الحاضر يمنع من تسلطها تسلط القاهر المستبد

١

فى المعتقدات الثابتة

يوجد بين الخواص التشريحية اى الجسمانية والخواص النفسية تشابه تام . فمن الاولى ماهو ثابت اولا يتغير الا ببطء شديد بحيث يلزم لتغييره زمن كالذى بيننا وبين الطوفان. ومنها ما هو متقلب يتغير بالسهولة من أثر البيئة أو المربى . وقد يبلغ التغيير درجة تختفى فيها الخواص الاصلية على غير المتأمل

وكذلك الحال فى الخواص الأدبية . فمن اخلاق الشعب ماهو ثابت لا يغيره كرور الايام . ومنها ما هو متقلب يتغير. ومن ينعم النظر فى معتقدات الامم وافكارها يرى دائما فى اخلاقها اصلا ثابتاً ترسب فوقه افكار متقلبة كما ترسب الرمال فوق الصخر

وعليه تنقسم معتقدات الجماعات الى قسمين الأول المعتقدات الدائمة التى تعمر عدة قرون واليها ترجع مدنية

الأمة كلها . الاقطار التي سادت ايام حكم الشرفاء والمعتقدات المسيحية وافكار الاصلاح (البروتستانتية) وكالجنسية . والافكار الديموقراطية والاجتماعية في ايامنا والقسم الثاني يشمل الافكار الوقتية المتغيرة . وهي مشتقة في الغالب من الافكار العامة تظهر وتغيب في الجيل الواحد كالنظريات التي تسترشد بها الفنون والادب في اوقات معلومة ومذهب حرية الكتابة (الانشا) (١) ومذهب الطبيعيين ومذهب الصوفية . وهكذا . وتلك الافكار كلها سطحية سريعة التغير كالبدىء (المودة) مثلها كمثل الامواج الصغيرة التي تظهر وتختفي من دون انقطاع على سطح بحيرة عميقة

المعتقدات الكبيرة العامة قليلة جدا . وقيامها وسقوطها في كل امة ذات تاريخ يمثلان اعظم دور في حياتها . ولا قوام للمدنية بدونها

---

(١) هو مذهب يقول أصحابه بعدم وجوب التقيد دائما بما جرى عليه السلف في فن التحرير من التزام قواعد وتراكيب مخصوصة

ومن السهل جداً ايجاد فكر وقتى فى عقول الجماعات لكن من الصعب جداً تقرير معتقد دائم فى نفوسها كما انه من الصعب جداً هدم اعتقاد تمكن منها . ولا سبيل الى التغيير غالباً الا بالثورات العنيفة بل ان الثورة لا تؤدى الى ذلك الا اذا اضمحل قبلها أثر المعتقد فى النفوس. فهى تصلح لكسح تلك البقية التى تكاد تكون فى حكم المهمل لولا ان سلطان العادة يمنع من الاقلاع عنها بالمرة . فالثورة التى تقبل عبارة عن معتقد يدبر

ومن السهل تحديد اليوم الذى يندك فيه احد المعتقدات الكبرى ذلك هو يوم ياخذ الناس بالبحث فى قيمة هذا الاعتماد لان كل اعتقاد عام يكاد يكون امراً فرضياً . فهو لا يحتمل البقاء الا بشرط عدم البحث فيه

غير ان النظامات التى اسست على اعتقاد عام تستمر حافظة لقوتها ولا تتحلل الا ببطء ان تزعزع ذلك الاعتقاد فاذا تم له الهدم تساقط ما بنى عليه

ومما قضت به سنة الوجود حتى الآن ان كل امة اصبحت متمكنة من تغيير معتقداتها لابد لها عاجلا من تغيير جميع

اركان حضارتها فهي تغير وتبدل فيها حتى تهتدي الى معتقد جديد عام ترضاه النفوس وتعيش في فوضى حتى تعثر عليه فالمعتقدات العامة هي دعائم الحضارة التي لا بد منها وهي التي ترسم للافكار طريقها الذي تسير فيه وهي التي توحي بالايمان وتفرض الواجبات

ادركت الامم على الدوام فائدة المعتقدات العامة وفطنت الى ان يوم زوالها هو يوم بدء سقوطها . عبد الرومانيون مدينة روما عبادة المتعصبين فسادوا على الدنيا اجمع . فلما انطفأ هذا الاعتقاد ماتت مدينة روما . واستمر المتبربرون الذين خربوا ملكها على همجيتهم حتى اذا رسخت بينهم بعض المعتقدات العامة وجد فيهم شيء من الامتزاج والتآلف وخرجوا من الفوضى

وعليه تعذر الامم في دفاعها المستميت عن معتقداتها . اذ الحقيقة ان هذا التعصب هو ارقى الفضائل في حياة الامم وان كان مذموماً جداً من الجهة الفلسفية

ما احرق اهل القرون الوسطى الالوف من الناس الا للدفاع عن معتقد عام موجود أو لادخال معتقد عام جديد في النفوس وما مات

الكثير من المخترعين والمبتدعين والاسى ملء قلوبهم الالانهم لم ينالوا اقسطاً من العذاب لاجل تلك المعتقدات وما اضطربت الدنيا المرة بعد المرة الا للدفاع عنها . وما ماتت الملايين فى ساحة الوغى الا بسببها . وكذلك يكون فى مستقبل الايام

من الصعب غرس معتقد جديد لكنه بعد ان يتمكن من النفس يدوم شديد التأثير زمنا طويلا وكيفما كان خطأ من الجهة الفلسفية فانه يتسلط على أكبر ذوى الالباب . بدليل ان الامم الاوروباوية دانت لاقاصيص واعتقدتها حقائق لا شك فيها خمسة عشر قرنا . والمتأمل فى تلك الاقاصيص يراها أحق بالقوم الهمج[1] كاقاصيص (مولوخ)[2] هكذا بقى العالم قرونا وهو لا يفقه تلك الخرافة الرائعة القائلة بان

---

(١) أقول الهمج من حيث الفلسفة والنظر اما عملا فقداوجدت تلك الاقاصيص مدنية جديدة صرفة . وأبصر الناس من ورائها مدى خمسة عشر قرنا حاتيك الجنان دانية القطوف واحيت قلوبهم بالآمال مما لم يعودوا يذوقون حلاوته الآن

(٢) اله عبده الكلدانيون واهل قرطاجه وكانوا يحرقون الاطفال قرباناً له ويعتقدون انه يمد ذراعيه دائماً ليتلقاها (م) .

الهاً اذاق ابنه عذاب الهون انتقاما ممن عصاه من خلقه . ولم يجل بخاطر اعظم الرجال عقلا وادراكاً مثل (غاليله) و (نيوتن) و (لا يبنيتز) انه يجوز النظر فى حقيقة هـذه الافكار . ذلك مما يبرهن على قوة استيلاء المعتقدات العامة وسحرها النفوس . ولكنه يبرهن ايضاً على ان العقل محدود بحدود مخجلة

ومتى تمكنت عقيدة جديدة من نفوس الجماعات اصبحت مصدر نظاماتها ومرجع فنونها وقاعدة سيرها . هنالك يستحكم سلطانها وتتم غلبتها . فترى أهل العزائم لا يفكرون الا فى تحقيقها . وواضعى القوانين الا فى الاخذ بها . والفلاسفة وأرباب الفنون والكتاب الا فى تمثيلها على صور شتى

وقد يتولد عن العقيدة العامة افكار وقتيـة ثانوية الا انها تكون على الدوام مصبوغة بصبغتها فقـد تولدت حضارة المصريين وحضارة الاوروبيين فى القرون الوسطى وحضارة المسلمين من عقائد دينية قليلة العدد طبعت كل عقيدة منها خاتمها على كل جزئية من جزئيات حضارتها وسهلت بذلك معرفتها .

من هذا يتبين ان الفضل للعقائد العامة فى احاطة أهل كل عصر بتقاليد وافكار وعادات تقيدوا بها وصاروا متشابهين والذى يهدى الناس فى سيرهم انما هى الافكار والعادات المتولدة عن تلك العقائد فهى الحاكمة على اعمالنا جليلها وصغيرها وكيفما سمت مداركنا فانا لا نفكر فى الخلاص منها . اذ الاستبداد الحقيقى هو الذى يدخل على النفوس من طريق الغرائز . لانه هو الذى لا يتمكن المرء من محاربته. فلقد كان (تيبير) و (جنكيزخان) و (نابوليون) جبارين مستبدين ولكن استئثار «موسى» و «بوذا» و «عيسى» و «محمد» صلى الله عليه وسلم و «لوتر» وهم فى القبور أشد وأبقى . ان مكيدة قد تبيد سطوة الجبار ولكن ماذا ينفع الكيد فى عقيدة استقرت فى النفوس . قامت حرب عنيفة بين الثورة الفرنساوية والدين المسيحى وكانت الجماعات فى ظواهر الامر من جانب الاولى واستعمل الثوارمن وسائل القهر والاضطهاد ما استعمله الاندلسيون والثورة هى التى دارت عليها الدائرة انما الجبابرة الذين سادوا فى البشر هم خيال الاموات أو الاوهام التى اوجدتها الامم لنفسها

ما كان بطلان العقائد العامة من حيث الذر والفلسفة مانعاً من استغلالها وقد يظهر أن فوزها مشروط باحتوائها على شيء من الهزء الخفي واذا كانت مذاهب الاشتراكيين في العصر الحاضر واضحة الضعف فليس ضعفها هذا هو الذى يكون سبباً فى عدم استيلائها على نفوس الجماعات . وانما السبب فى انحطاطها عن جميع العقائد الدينية راجع الى ان السعادة التى وعدت بها الديانات لا تتحقق الا فى الدار الباقية فلم يكن لاحد ان يمارى فى تحقيقها واما السعادة التى وعد بها مذهب الاشتراكيين فانها يجب ان تتحقق فى الحياة الدنيا ومتى شرع فى ذلك بان ان الوعد خاب وسقط بذلك نفوذ العقيدة الجديدة وعليه فلا يعظم سلطان هذه العقيدة ان تم لها الظفر الا الى اليوم الذى يبدأ فيه بتحقيقها وذلك هو السبب فى ان هذا الدين الجديد له من قوة التخريب ما كان لغيره من الاديان التى سبقته ولكنه لن يكون له ما كان لها من قوة البناء

٢

فيما للجماعات من الافكار غير الثابته

—

يوجد فوق سطح العقائد الثابتة التي شرحنا تأثيرها العظيم طبقة من الافكار والاراء التي تتجدد وتزول دائماً . فمنها ما يدوم يوماً واحداً . وأهمها لا يدوم اكثر من الجيل الذي نشأ فيه . وقد قدمنا ان التغيير الذي يطرأ على هذه الافكار صوري اكثر مما هو حقيقي في الغالب . وانها مصبوغة على الدوام بصبغة الشعب الذي توجد فيه . ومثلنا لذلك بنظام بلادنا السياسي فأوضحنا ان أشد المذاهب خلفاً من ملوكيين وجمهوريين وامبراطوريين واشتراكيين وهكذا يشتركون فيما يرمى جميعهم اليه وان هذا المرمى راجع الى طبيعة شعبنا النفسية او الادبية واستظهرنا على ذلك بوجود اسماء هذه النظامات

وانها عنـد أمم أخرى ودلالتها على شيء آخر وبأن وضع الاسماء للافـكار والباس الشيء ثوباً يريه في صورة غيره لا يغير من حقيقة ذلك الشيء . كان أهل الثورة الفرنساوية متشبعين بادبيات الرومانيين شاخصين على الدوام الى جمهوريتهم فنقلوا اليهم شرائعهم وقضبانهم(١) وارديتهم واجتهدوا في تقليدهم في نظاماتهم واحوالهم . ومع هذا لم يصيروا رومانيين لانهم كانوا محكومين بتقاليدهم التاريخيـة . ووظيفة الحـكيم هي استخلاص ما بقي من العقائد الاصلية وسط التقلبات الصورية وان يميز في معمعة الافـكار المتغيرة ما يرجع منهـا الى روح الشعب وعقائده العامة

واذا لم يوجد هذا الفارق الفلسفي جاز الظن بأن الجماعات تغير كثيراً عقائدها الدينية والسياسية كما تشاء . والظاهر ان التاريخ يؤيد هذا الظن سواء كان تاريخ السياسة او الدين أو الفنون أو الادب . لانا اذا نظرنا في تاريخنا الى الفترة القصيرة الواقعة بين سنة ١٧٩٠ وسنة ١٨٢٠ اعني ثلاثين سنة وهو عمر جيل واحد رأينا الجماعات التي كانت ملوكية تحولت

---

(١) شارات القوة والعظمة عند الرومانيين

فصارت ثورية للغاية ثم امبراطورية كذلك ثم عادت ملوكية كما كانت هذا في السياسة واما في الدين فانها كانت كاثوليكية ثم كفرت ثم قالت بالالوهية ثم رجعت الى الكثلكة الضيقة الى حد التغالى ولم يكن ذلك شأن الجماعات وحدها بل شاركها فيه كله قوادها فشهدنا والعجب يأخذ منا أولئك الثوار الذين تقاسموا على بغض الملوك وانكروا الله والسلطان امسوا خداماً خاضعين لنابوليون. واصبحوا يحملون الشموع والخشوع ملء جوانحهم في احتفالات الملك لويز الثامن عشر

وما اكثر الانقلابات التي طرأت على افكار الجماعات في السبعين سنة التالية. فقد صار الانكليز حلفاء أمة الفرنساويين في عهد خليفة نابوليون. وكانوا في أول القرن أعداء ماكرين واغرنا مرتين على بلاد الروس وكم خفقت قلوبهم فرحا بانكسارنا ثم صاروا لنا أصدقاء

واسرع من ذلك تقلب الافكار في الادب والفنون والفلسفة فكنا لانتقيد بقواعد اللغة . وكنا طبيعيين وكنا صوفيين . وكنا غير ذلك كل هذا ظهر واختفى . وكان الناس

يتغنون باسم هذا الكاتب او ذاك المصور فى المساء فاذا أصبح الصباح حقروه ورذلوه .

واذا دققنا البحث فى هذه التقلبات التى يخال انها حقيقية متأصلة فى النفس رأينا ان ما كان منها مخالفاً للاعتقادات العامة ومشاعر الشعب فهو زائل لا يدوم الا يسيراً ولا تلبث المياه أن تعود الى مجاريها . فمن المعلوم انه يستحيل دوام الافكار التى لارابطة بينها هى والمعتقدات العامة ومشاعر الشعب لانها معرضة لتأثير الطوارئ والاتفاق تتغير باقل تغيير فى البيئة التى وجدت فيها . ومما يدل أيضاً على عدم بقائها انها تولدت من طريق الالقاء والعدوى فهى تولد ثم تموت بسرعة الرمل الذى يتكون اكداساً على شاطئ البحر ثم تذهب به الريح ثم تعيده وهكذا .

ولقد كثرت فى أيامنا هذه افكار الجماعات التى لا بقاء لها . ولذلك ثلاثة أسباب

الاول ان الاعتقادات القديمة أخذت تضعف شيئاً فشيئاً فلم تعد تؤثر فى الافكار العرضية تأثيراً ينظمها ويهديها وضعف تلك الاعتقادات العامة من شأنه ان يفسح المجال لتولد أفكار

خاصة لا رابطة بينها وبين الماضي، ولا يرجى بقاؤها في المستقبل

السبب الثاني أن قوة الجموع تزداد شيئاً فشيئاً والقوة المضادة تضعف بمقدار ذلك وقد عرفنا ان الجماعات كثيرة التقلب في افكارها فالنتيجة انها أصبحت أكثر حرية في اظهار تلك الافكار المتقلبة

والسبب الثالث هو كثرة انتشار المطبوعات لما فيها من كثرة الافكار المتناقضة التي تعرضها على الجماعات فالفكرة لا تكاد تظهر حتى تبطل بظهور فكرة تخالفها وما من فكر ينتشر تماماً وكلها محكوم عليها بسرعة الزوال فهي تموت قبل ان تنتشر انتشاراً يثبتها ويجعلها معتمداً عاماً

من تلك الاسباب تولدت ظاهرة جديدة في تاريخ البشر ينفرد بها العصر الحاضر وهي ضعف الحكومات عن قيادة الرأي العام

كان زمام الرأي في الزمن السابق ما هو في يد الحكومات وبعض ذوي النفوذ من الكتاب وعدد مخصوص من الجرائد فأما الكتاب فقد انعدم تأثيرهم. وأما الجرائد فان

وظيفتها أصبحت قاصرة على ان تكون مرآة للرأى وأما السياسيون فانهم لا يديرونه بل يسيرون خلفه . وقد أخذتهم منه رهبة تكاد أحيانًا تبلغ حد الذعر والانذهال فهم لا يثبتون فى أى طريق يسلكون

نتج من هذا ان رأى الجماعات يقرب كل يوم من الاستيلاء على زمام السياسة . وقد وصل الآن الى الجاء الامم لعقد المحالفات كما وقع اخيراً فى المحالفة الروسية التى كانت حركة الرأى العام مصدرها الوحيد . ومن اعجب ما يشاهد الآن استسلام البابوات والملوك والقياصرة لنظام الاحاديث (١) ليصرحوا بأفكارهم ويعرضوا آرائهم فى أمر من الامور الى حكم الجمهور . قالوا فيما مضى ان السياسة ليست من الامور التى تسيرها المشاعر وانا نشك فى انه يمكن القول بذلك الآن بعد ما بان ان نزعات الجماعات تقودها كل يوم اكثر من الذى قبله . والجماعات لا تعرف العقل ولا تندفع الا بالمشاعر

واما الجرائد فبعد ان كانت تقود الرأى العام كالحكومات

---

(١) يشير الى ما الفه الناس فى هذه الايام من محادثة الملوك والعظماء و نشر احاديثهم فى الكتب والصحف

اضطرت الى التسليم امام سلطان الجماعات نعم للجرائد أثر شديد فى الناس لكن ذلك سببه انها صارت مرآة لارائهم ومتغيرة بتغير افكارهم المستمر . أصبحت الجرائد رسل اخبار فلم تعد قادرة على نشر رأى او تقرير مذهب بل هى تسير خلف اهواء الجماعات مكرهة على ذلك بحكم المسابقة والتزاحم والا خسرت قراءها ألا ترى الجرائد الكبرى القديمة التى كان لها المقام الاول والتأثير القوى مثل (لوكونستيتوسيونيل) و (الديبا) و (السييكل) وهى التى كان يتلقى آباؤنا أقوالها كالوحى المنزل من السماء قد احتجبت أو صارت صحف أخبار محلاة ببعض الفكاهات القصصية ولطائف المجتمعات والاعلانات التجارية . لا توجد اليوم جريدة تسمح ماليتها للمحررين بابداء آرائهم الذاتية على انها ان وجدت ما كان لتلك الاراء والافكار قيمة عند القراء لأنهم انما يطلبون خبراً يقرأونه او نكتة يتفكهون بها وصاروا فى ريب من كل رأى ونصيحة توجه اليهم اذ يظنون ان وراءها طمعاً فى ربح أو سعياً لمنفعة خاصة . بل ان اهل النقد أصبحوا لا يجرأون على نشر كتاب أو رواية تمثل فى المراسح فان النقد صار مما قد

يجلب الضرر ولا يجر اليهم نفعاً أيقنت الجرائد بعدم الفائدة من النقد او ابداء الاراء الشخصية فجعلت تقلل منه فى عالم الادب حتى بطل واستعاضته بذكر اسم الكتاب الجديد متبوعاً بسطرين او ثلاثة للاعلان عنه والحث على اقتنائه وربما آل الامر الى مثل ذلك بعد عشرين سنة فيما يتعلق بنقد الروايات التى تشخص فى الملاهى

أصبح الشغل الشاغل للجرائد والحكومات تتبع حركات الرأى العام فالذى يهمهم من حادث يقع أو من مشروع قانون يحضر أو من خطاب يلقى انما هو أثر ذلك فى الناس وما ذلك بهين على طلابه لشدة تغير أفكار الجماعات فما أسرعها فى السخط على أمر لم تكد تفرغ من التهليل له

ينتج عن فقد ان ضابط الرأى واقتران ذلك بانحلال الاعتقادات العامة تفتت اليقين وتمزق الوجدانيات وعدم اهتمام الجماعات بشىء لا تظهر فيه لها منفعة حاضرة ظهوراً تاماً وأما المذاهب كالاشتراكية فان حماتها المخلصين من أجهل الطبقات كعمال المعادن والمصانع أما متوسطو الحال وكل من ناله قليل من التعليم فهم فى شك من كل شىء أو هم

كثيرو التقلب

التطور الذى تم من هذه الجهة فى الخمس والعشرين سنة الماضية واضح . فقبل ذلك والعهد قريب كان للافكار وجهة عامة لانها كانت مشتقة من بعض اعتقادات أصلية . وكان للملوكى بمقتضى كونه ملوكياً افكار واراء ثابتة فى التاريخ وفى العلوم . وكان للجمهورى بمقتضى كونه جمهوريا افكار واراء تناقض الاولى على خط مستقيم . الاول يعتقد ان الرجل ليس متولداً من القرد والثانى يعتقد الضد تماماً . الاول يرى من الواجب عليه اذا تكلم فى الثورة ان يغضب وينفر والثانى ان يعجب ويبالغ فى التعظيم والتبجيل . وكان من الناس من لا يجوز ذكر اسمه الا مقروناً بالخشوع والاجلال مثل (روبسبيير) و (مارات) أو متبوعاً بالترذيل والامتهان مثل (قيصر) و (أوغسطس) و (نابوليون) . وعم هذا المذهب السخيف فى التاريخ حتى تفشى فى مدرسة (السربون) نفسها[1]

---

(١) يوجد فى هذا الباب بعض صفحات من كتاب المعلمين الرسميين فى مدارسنا غاية فى الغرابة وهى تدل على ضعف ملكة النقد الناشىء عن طريقة التربية فى المدارس وانى انقل للقراء الاسطر الآتية

ليس لفكر ولا لرأى فى هذه الايام وتع فى النفوس لكثرة المناظرة والتحليل مما يذهب بطلاوتها ولا يجعل تأثيرا للبقية والذى ينفرد به أهل هذا الزمان هو عدم الاهتمام بالامور شيئاً فشيئاً

على انه ينبغى ان لا نحزن من انتشار الافكار نعم لا شبهة فى انه منذر بانحطاط الامة لانه من المحقق ان تأثير اهل الخيالات والرسل وقواد الجماعات وعلى الاطلاق جميع الذين سكن اليقين قلوبهم اكبر جداً من تأثير اهل الجحود والنقادين ومن لا يهتمون بشيء لكن لا يذهب عنا انه اذا تمكن رأى واحد من النفوس والجماعات على ما هى عليه الآن من القوة والنفوذ لا يلبث اهله ان يصيروا مستبدين استبدادا

من كتاب الثورة الفرنساوية لاحد مدرسى التاريخ فى مدرسة (السربون) المذكورة قال «ان الاستيلاء على (الباستيل) عمل من اكبر اعمال تاريخ الامة الفرنساوية بل تاريخ اوروبا كلها لانه كان فاتحة دور جديد فى حياة الامم» وقال عن (روبسبير) «ان استبداده بالناس كان استبداد رأى ويقين ونفوذ أدبى وكان اشبه بسلطة روحية عليا فى يد رجل من الاخيار» (صفحة ٩١ و ٢٢٠)

يذل له كل مافى الوجود ويغلق باب حرية الافكار وحرية النقد زمناً طويلا . لا يقال ان من سلاطين الجماعات من كان ندى الخلق لين الملمس لان طبعها قلب فهى هوائية سريعة الغضب والانفعال. فاذا قدر لحضارة ان تقع في يدها اضحت هدفا للطوارىء والمصادفات وقصر بذلك اجلها . وان كان يرجى تأجيل زمن الانحدار والسقوط فانما يكون. ذلك من شدة تقلبات اراء الجماعات وعدم اهتمامها بالاعتقادات العامة

الباب الثالث

اقسام الجماعات وبيان انواعها

الفصل الأول

اقسام الجماعات

—

اقسام الجماعات العامة — انواعها

١ — الجماعات المختلفة العناصر ـ اوجه اختلافها ـ تأثير الشعب — في ان روح الجماعات تكون ضعيفة بقدر ماتكون روح الشعب قوية ـ في ان روح الشعب تمثل حالة الحضارة وروح الجماعات تمثل حالة الهمجية

٢ ـ الجماعات المؤتلفة العناصر ـ انواعها ـ الافئاء والطوائف والطبقات

بعد ان بينا الصفات العامة للجماعات النفسية ينبغي ان نبين الصفات الخاصة التي تنفرد بها المجامع عن بعضها اذا صارت جماعات بتأثير الاسباب المؤدية الى ذلك

ولنبدأ بقول موجز في تقسيم الجماعات

فاولها الجمع مطلقا وادنى مراتبه ما كان مؤلفاً من افراد ليسوا من شعب واحد ولا رابطة بينهم الا ارادة رئيسهم بقدر ماله من المنزلة فيهم ويمكن التمثيل لهذه المجامع بالمتبربرين مختلفي الاصول الذين أغاروا على المملكة الرومانية مدة قرون عدة

ويليها الجموع التي احتفتها احوال وعوامل ولدت فيها صفات عامة وانتهت بان صارت شعباً واحداً. ولهذه الجموع في بعض الاحيان الصفات الخاصة بالجماعات الا ان هذه الصفات الخاصة تكون دائماً متأثرة بصفات الشعب العامة

فاذا اجتمعت في هذه المجامع بقسميها العوامل التي ذكرناها في هذا الكتاب صارت جماعات منظمة او نفسية وهذه الجماعات تنقسم الى الاقسام الآتية

اولا الجماعات المختلفة العناصر وفيها	(١) الجماعات التى لا اسم لها (كجماعات الطريق العام) (٢) الجماعات التى لها اسم خاص (كالعدول المحلفين والمجالس النيابية وهكذا)
ثانياً الجماعات المؤتلفة العناصر وفيها	(١) الافناء (كالجموع السياسية والدينية وهكذا) (٢) الطوائف . (كالجموع العسكرية ورؤساء الدين والعمال وهكذا) (٣) الطبقات (كجموع الاواسط وجموع اهل الريف وهكذا)

واليك قولاً موجزاً فى بيان مميزات كل نوع من هذه الانواع

القسم الاول

الجماعات المختلفة العناصر

هذه الجموع هى التى شرحنا صفاتها فى هذا الكتاب وهى

تتألف من افراد ايا كانوا و كيفما كانت حرفهم و مهنتهم وعقولهم ونحن الآن نعرف انه متى اجتمع قوم و كونوا جماعة عاملة اختلفت احوالهم النفسية الاجتماعية مع احوالهم النفسية الفردية اختلافا عظيما وان العقل لا ينتفع من هذا الاختلاف لانه لا تأثير له فى الجماعات وان الذى يؤثر فيها انما هو المشاعر الغريزية

ومن العوامل الاصلية ما يسهل معه تمييز الجماعات المختلفة العناصر تمييزاً تاماً وهو الشعب وقد ذكرنا مراراً وقلنا انه اعظم المؤثرات التى تنبعث عنهـا افعال الناس ونقول ان له كذلك اثراً ظاهراً فى صفات الجماعات فالجماعة المؤلفـة من افراد ايًا كانوا وهم انكليز تختلف كثيراً مع الجماعة التى تتألف من افراد ايًا كانوا وهم خليط من الروس والفرنساويين والاسبانيين مثلا

اشد مظاهر الافتراق الناشىء عن الوراثة العقلية فى كيفية الشعور والنظر فى الامور يعرض فجأة متى اجتمع افراد مختلفو الجنسية لسبب من الاسباب — وذلك نادر — كيفما اتحدت فى الظاهر المنافع التى اجتمعوا لاجلها . حاول الاشتراكيون عقد مؤتمرات تضم نوابًا عن جميع العمال فى

كل امة فأدى ذلك دائما الى خلف عنيف . والجماعة اللاتينية تطلب على الدوام معاونة الحكومة على ما تريد تستوى فى ذلك الجماعة الثورية الصرفة والجماعة المحافظة المحضة فهى تميل بطبعها الى حصر السلطة وجمعها فى يد واحدة والى من يجمع تلك السلطة فى يده . واما الجماعة الانكليزية او الامريكية فانها لا تعرف الحكومة ولا تستعين الا بهمة الافراد الذاتية . اول ما تهتم له الجماعة الفرنساوية المساواة . واول ما تهتم له الجماعة الانكليزية الحرية الشخصية . وبقدر اختلاف الشعوب تختلف المذاهب الاشتراكية والديمقراطية

وعليه تحكم روح الشعب دائما روح الجماعة فهى لها كالدائرة المنيعة التى تنظم تقلباتها وتحدد حركاتها . ومن هنا ينبغى ان نقرر القاعدة الآتية : تكون الصفات المنحطة فى الجماعة ضعيفة بقدر ما تكون روح الشعب قوية . فحالة الجماعة هى الهمجية وتسلطها رجوع الى الهمجية . ولا يخرج الشعب من الهمجية ويتخلص من سلطة الجماعات التى لا يحكمها العقل الا اذا كانت له روح قوية شديدة . وذلك يتأتى بالتدريج

ويلى الجماعات المتقدمة الجماعات التى لا اسم لها كجماعات

الشوارع ثم الجماعات التي لها اسم تعرف به كجماعات العدول والمجالس النيابية والذي يوجب اختلاف هذين النوعين غالباً في انفعالها هو ان الاولى لا تشعر بتبعة ما نتج عن اعمالها بخلاف الثانية فانها تقدر تبعة عملها كما ينبغي

القسم الثاني

الجماعات المؤتلفة العناصر

تفترق الجماعات المؤتلفة العناصر الى افناء وطوائف وطبقات فالافناء اول المراتب وهي تتألف من افراد مختلفين في التربية والحرفة والبيئة احياناً ولا جامعة تجمعهم الا وحدة الاعتقاد ومن هذا النوع الافناء السياسية والافناء الدينية

والطوائف ارقاها وهي تتألف من افراد متحدين في الحرفة فيهم متشابهون في التربية والبيئة كجماعة الجند وجماعة الرؤساء الروحانيين

والطبقات هي التي افرادها من مناشئ مختلفة اجتمعوا لا بجامعة الاعتقاد كالافناء ولا بجامعة وحدة الحرفة كالطوائف بل بجامعة المنافع والشبه في حالة المعيشة والتربية كطبقة الاواسط في الامة وطبقة الزراع وهكذا

ولما كان بحثى فى هذا الكتاب قاصراً على الجماعات المختلفة العناصر ومن نيتى ان افرد للكلام على الجماعات المؤتلفة العناصر كتاباً خاصاً فلا اطيل فى بيان صفات هذه الاخيرة واختم الكلام على الاولى بذكر بعض انواعها مثالا للبقية

الفصل الثانى

الجماعات الجارمة

يجوز ان تكون الجماعة جارمة شرعاً لكنها لا تعد كذلك فلسفيا ـ فى ان افعال الجماعة لاشعورية محضة ـ امثلة شتى ـ روح جماعة شهر ستمبر ـ افكارها وشعورها وقسوتها واخلاقها

—

بعد ان يمضى زمن على الجماعة وهى فى هياج تعتورها حالة هبوط تجعلها آلة صماء غير شاعرة يحركها الالقاء فى نفسها ولذلك يتعذر تأثيمها فلسفياً كيفما كان الحال وانما جريت فى الكلام على استعمال هذا الوصف غير الصحيح لانى اقرأه فى بعض كتب علماء النفس الحديثة نعم ان بعض اعمال الجماعات تعتبر جرائم من حيث هى لكن كما يعتبر عمل النمر الذى يلتهم الهندى بعد ان يكون قد تركه لصغاره يفرحون بتمزيقه تصدر الجرائم عن الجماعة غالباً بسبب تحريض قوى ·

ويعتقد الذين ارتكبوها من افرادها انهم قاموا بواجب كان مفروضاً عليهم وهذا ليس شأن الجناة فى الاحوال الاعتيادية وتاريخ جرائم الجماعات يوضح ذلك باجلى بيان

فمن امثلة ذلك قتل موسيو (لونى) مدير سجن (الباستيل) وواقعة الحال انه بعد استيلاء الثائرين على هذا الحصن احاطت الجماعة الثائرة بالمدير المشار اليه وصارت الضربات تتساقط عليه من كل جانب . وهذا يشير بشنقه وذاك بضرب عنقه وثالث بربطه فى ذيل فرس وهكذا . وبينما هو يدافع عن نفسه فرطت منه رفسة اصابت واحداً من الجماعة . اذ ذاك اقترح احدهم ان يقطع المضروب رأس الضارب فهلل الجمع بالموافقة قال راوى الواقعة « وكان المضروب طباخا خالياً من العمل ويقرب من ان يكون بهلولا ذهب الى (الباستيل) لينظر ماذا يجرى هناك . فلما سمع الاجماع ظن ان الفعل مما تقضى به الوطنية . وانه ينال وساما اذا أعدم ذلك الوحش . ثم ناولوه سيفا ضرب به عنق المدير وكان غير مشحوذ فلم يقطع فالقاه واخرج من جيبه سكيناً صغيرة ذات مقبض اسود واستعان بخبرته فى تقطيع اللحوم فساعده الحظ واتم عمله »

ومن هذا المثال يظهر لك كيف تصدر افعال الجماعه فقد انقادت هنا الى تحريض قوى بالاجماع عليه واعتقد القاتل انه اتى عملا شريفاً اعتقاداً مكنه من نفسه ذلك الاجماع . وقد يكون مثل هذا العمل آثماً بحكم القانون لكنه ليس كذلك فى حكم علم النفس

أما الصفات العامة للجماعات الجارمة فهى بعينها الصفات التى شاهدناها فى غيرها . من قابلية التأثر . والتصديق . والتقلب والتطرف فى المشاعر طيبة كانت او رديئة . والتخلق ببعض الاخلاق الخاصة وغير ذلك

وستظهر لنا هذه الصفات كلها فى احدى الجماعات التى تركت فى تاريخنا اقبح ذكرى محزنة وهى جماعة شهر سبتمبر (١) وبين هذه الجماعة وجماعة (سانت بارثلمى) شبه عظيم وانى انقل شرح الواقعة عن موسيو (تاين) فهو الذى

---

(١) هى كارثة شهيرة وقعت أيام الثورة الفرنساوية في باريس يوم ٢ سبتمبر سنة ١٧٩٢ بتحريض رجل يقال له (مارات) على الارجح اصله طبيب انقلب صحافياً دموياً صرفاً فكان يطلب أعدام مائتين وسبعين الف نفس مدعياً ان فى ذلك فداء الوطن

استخلصها من المفكرات التي كتبت ايام حدوثها .

لا نعرف بالتحقيق الآمر والمحرض على تخلية السجون بقتل من فيها وسواء كان هو (دانتون) كما هو المظنون او غيره [١] فالذي يهمنا منه انه وجد تحريض قوى تأثرت به الجماعة التي وليت المقتلة

كانت تلك الجماعة مؤلفة من نحو ثلاثمائة سفاك كلهم اشتات فهي تمثل الجماعة المختلفة العناصر اكبر تمثيل اذ لم يكن فيها من الغوغاء الا نفر يسير والباقون من اصحاب الحوانيت والصناع في كل حرفة وكل مهنة من حذائين وقفالين وحلاقين وبنائين ومستخدمين وسماسرة وغيرهم كلهم متأثرون بالتحريض الذي وقع عليهم . كالطاهي الذي مرّ ذكره . وكلهم يعتقد انه قائم بواجب وطني . وقد قاموا بعملين . فكانوا قضاة وجلادين . ولكنهم لم يروا انفسهم من الجناة ابداً . بل وقر في نفوسهم انه واجب من اكبر الواجبات . واول ما بدأوا به ان شكلوا محكمة . هنالك ظهرت بساطة روح الجماعات وبساطة عدالتها . ذلك ان المحكمة رأت عدد المتهمين كبيراً

---

(١) هو (مارات) على ما ذكر في معاجم التاريخ كما تقدم

فقررت اولا قتل الشرفاء والقسوس والضباط وخدام الملك وبالجملة قتل جميع الذين يعتبرون فى نظر كل وطنى جناة بمقتضى صناعتهم . وان يكون القتل جملة من دون احتياج الى حكم خاص . واما الباقون فيحكم عليهم بناء على سمعتهم او شهرتهم . فلما اطمأنت نفوس الجماعة بهذا القرار انطلقت تنفذ ما حكم به القضاء فبرزت كوامن القسوة والتوحش اللذين شرحناهما من قبل . والتوحش يزداد فظاعة وعنفاً فى المجامع . الاّ ان الغرائز الهمجية لا تمنع من ظهور مشاعر تناقضها كما هو الشأن فى الجماعات . ولذلك كان يوجد فى تلك الجماعة من عاطفة التأثر ما يبلغ فى شدته تلك القسوة الماثلة .

كان لاولئك القتالين عطف صناع باريس ولطف شعورهم من ذلك ان احدهم علم ان المسجونين لم يذوقوا الماء منذ ست وعشرين ساعة فشرع فى قتل السجان لولا شفاعة السجناء وكانوا اذا برأت المحكمة التى اقاموها واحدا من المتهمين فرحوا وهللوا وانهالوا عليه يقبلونه وصفقوا تصفيقا طويلا ثم انقلبوا يقتلون غيره اكداساً . كانوا يقتلون والسرور

لا يفارق محياهم . يغنون ويرقصون . ويعدون المقاعد للنساء لتشاهد وهى فرحة قتل الشرفاء . وكان لهم عدل من نوع خاص يدلك عليه أن أحد الموكلين بالتقتيل شكا من ان النساء لا يشاهدن القتل لبعدهن عن مكانه . وان القليل من الناس هو الذى ينال حظ ضرب الشرفاء . فصوب الجميع شكواه وقرروا ان يمشى المتهمون الهوينا بين صفين من القتالين . وأمروا هؤلاء ان لا يضربوهم الا بظاهر السيوف حتى يطول امد العذاب . وكان فريق يأتى بالمتهمين عراة كما ولدتهم الامهات ثم يمزقون اجسامهم مدى نصف ساعة كاملة فاذا تمت للجميع مشاهدة هذا المنظر أجهزوا على المعذبين فبقروا بطونهم

ومع ذلك كنت تشاهد الامانة لا تزال ملازمة القاتلين فكانوا يظهرون من الفضائل ما ذكرناه للجماعات من قبل ويأبون ان يتناولوا شيئاً من نقود المقتولين وحليهم بل يقدمونها للجنة

وكانت بساطة التعقل التى انفردت بها روح الجماعات تظهر فى افعالهم . من ذلك انهم لما فرغوا من قتل الالف والمائتين

او الالف وخمسمائة العدو للأمة لاحظ بعضهم ان السجون الاخر تضم اناساً لا فائدة منهم وان الاولى اعدامهم . فسارعت الجماعة الى الموافقة على هذا الرأى . وكان من فى السجون الاخر اناساً من الشحاذين والهمل (المتشردين) والاولاد فرأت الجماعة انه لا بد من وجود اعداء للامة بينهم كامرأة رجل كان قد قتل نفساً بالسم اذ قال بعضهم « لا بد انها متغيظة من وجودها فى السجن . ولو تمكنت لوضعت النار في باريس ولا بد ان تكون قد قالت ذلك . بل قالته . اذن حق عليها الاعدام » سرى هذا القول فى النفوس كالحجة الناصعة . وهرولت الجماعة فقتلت كل من كان فى تلك السجون وبينهم نحو خمسين غلاما ما بين الثانية عشرة والثامنة عشرة . وقالوا فى قتلهم أنهم اذا عاشوا لا يبعد ان يصيروا من أعداء الامة فالواجب التخلص من شرهم

ولما اتم القاتلون عملهم بعد ان زاولوه مدة اسبوع كامل فكروا فى الراحة واعتقدوا انهم خدموا الوطن خدمة يستحقون الجزاء من اجلها . ورغبوا الى حكومة ذلك الزمن ان تكافئهم ومنهم من طلب وساماً

وفى تاريخ ثورة ١٨٧١ امثلة كثيرة كالتى قدمناها وسنرى كثيراً غيرها ما دام سلطان الجماعات ينمو ويعظم وسلطان الحكومة ينزوى ويضعف

الفصل الثالث

العدول المحلفون امام محاكم الجنايات

—

الصفات العامة للعدول ـ في ان الاحصاء يدل على انه لا تلازم بين قراراتهم وكيفية تشكيلهم ـ كيف يتأثر العدول ـ ضعف تاثير الدليل العقلي ـ طريقة الاقناع التي استعملها اشهر المحامين ـ الجرائم التي يرأف العدول بمن ارتكبها او التي يقسون من أجلها ـ فائدة العدول وخطر تبديلهم بالقضاة

—

لما كان لا يتيسر لنا ذكر جميع انواع العدول في هذا الكتاب رأينا ان نقتصر على اهمها وهم العدول المحلفون امام محاكم الجنايات وهم احسن مثال يمثل به للجماعات المختلفة العناصر التي لها اسم خاص . واذا بحثنا عن الصفات التي لها نجد قابلية التأثر . وسيادة المشاعر الغريزية . وضعف التأثر بالمعقول . والانصياع الى القواد . وهكذا . وسنبين اثناء بحثنا

فى هذه الجماعات بعض الغلطات التى يرتكبها من لم يكن خبيرا بعلم روح الجماعات لما فى ذلك من الفائدة

نجد اولا فى العدول المحلفين من حيث القرارات التى يصدرونها مثالا حسنا يبين أن تأثير الاذكياء الذين يوجدون فى جماعتهم ضعيف لما تقدم من انه لا تأثير للعقل المستنير فى رأى الجماعة اذا كان فى موضوع غير فنى . وان رأى جمع من العلماء واهل الفن فى موضوع عام خارج عن علومهم وفنونهم . لا يختلف كثيراً مع رأى جمع من البنائين او البدالين فى ذلك الموضوع . كانت الحكومة قبل سنة ١٨٤٨ تعتنى فى كثير من الاوقات بانتقاء العدول من المستنيرين . فتختارهم من بين المدرسين والموظفين ورجال الادب وامثالهم وهم الآن ينتخبون خصوصاً من صغار الباعة وصغار المحترفين والمستخدمين . وقد اندهش الكتاب الاختصاصيون اذ دل الاحصاء على تشابه القرارات وان اختلف تشكيل جماعة العدول . واقر القضاة انفسهم بهذه الحقيقة مع كونهم من اعداء هذا النظام واليك ما كتبه موسيو (بيرار دى جلاجر) أحد رؤساء محاكم الجنايات فى مفكراته «اصبح الآن اختيار العدول فى يد نواب

المجالس البلدية وهم يرفضون هذا ويقبلون ذاك على حسب أميالهم السياسية واحوال الانتخابات . وسارت اغلبية العدول من تجار اقل درجة ممن كانوا ينتخبونه قبل الآن ، ومن مستخدمى بعض المصالح . ومع هذا لم تتغير روح العدول ولا تزال قراراتهم كما كانت عليه لان جميع الافكار تمتزج بجميع المهن فى وظيفة القضاء ولان كثيراً من المنتخبين يجتهدون اجتهاد المؤمن الحديث فى الايمان . ولان الطبقة الدنيا لا تخلو من اهل المروآت »

والذى يهمنا من هذا القول هو النتيجة لصحتها الا المقدمات لضعفها . ولا غرابة فى هذا الضعف لان المحامين والقضاة لا يعرفون فى الغالب روح الجماعات ومنها العدول . والدليل على ذلك ماذكره الرئيس المشار اليه من أن (لاشو) وهو من اشهر المحامين أمام محاكم الجنايات كان لا ينفك عن اختصام جميع العدول المستنيرين . وقد برهنت التجارب . وما كان لغيرها ان يقيم هذا البرهان . على ان ذلك العمل كان عقيما حتى ان النيابة والمحاماة تركتا هذه العادة فى باريس . ولم تتغير القرارات كما أشار اليه موسيو « جلاجو » فلا هى احسن مما كانت

عليه ولا هى اردأ منه

العدول كغيرهم من الجماعات، يتأثرون بالمشاعر كثيراً ولا يتأثرون بالمعقول الا قليلا فهم كما قال احد المحامين « لا يثبتون امام امرأة ترضع طفلها او امام صغار يتامى اذا نظروا اليهم »

قال موسيو (جلاجز): ويكفى ان تكون المرأة ظريفة لتنال عطف العدول

العدول قساة القلوب على من يرتكب الجرائم التى يخشون هم منها . وهذه الجرائم هى التى تهم الهيئة الاجتماعية ـ ورحماء بمرتكبى الجرائم التى مصدرها الغيرة والحب وهكذا .

فقلما يقسون على البنات الامهات اللاتى يقتلن مواليدهن ولا على البنت يخدعها الخادع ويهجرها فترميه بماء النار . وذلك لان العدول يشعرون انه لا خطر من مثل هذه الجرائم على الهيئة الاجتماعية وأنه ما دام القانون لا يحمى البنت التى هجرها من خدعها يكون نفع جنايتها اكبر من ضررها لان فى ذلك للخداع مزدجراً (١)

---

(١) مما يجب ملاحظته ان هذا الفرق التى جاء بها العدول لا عن قصد بين الجرائم المضرة بالهيئة والتى لا تكاد تضرها لا

والعدول كبقية الجماعات يبهرها النفوذ . لاحظ الرئيس (جلاجو) انهم ديموقراطيون في جمهم شرفاء في عواطفهم فالاسم . والحسب . والثروة الطائلة . والشهرة والاستعانة . بمحام ذائع الصيت . وكل شيء يتفرد به الرجل ويظهر به كل ذلك عدة كبيرة وسلاح قوى في يد المتهمين

اراد بعضهم بيان الطريقة التي ينبغي استعمالها في هذا المقام فوصف احد محامى الانجليز وكان ذا شهرة فائقة بنجاحه امام محاكم الجنايات ومما قاله :

اول ما يجب على المحامى اللبيب الاهتمام به تعمد التأثير على شعور

يخلو من صواب اذ يجب ان يكون الغرض من القوانين الجنائية حماية الهيئة من المجرمين المضرين بها لا الانتقام لها مطلقا . غير ان الغالب على واضعى قوانيننا وعلى قضاتنا هي فكرة الانتقام التي كانت سائدة في زمن الشرائع القديمة . ودليلنا على هذا الميل في قضاتنا ان الكثير منهم لا يزال يأبى العمل بقانون (بيرانجيه) الذى يبيح ايقاف التنفيذ فلا يقضى المحكوم عليه عقوبته الا اذا عاد فأجرم مع ان جميع القضاة يعلمون جيدا ان تنفيذ العقوبة الاولى يجر حتما الى العود كما يؤيد ذلك الاحصاء . (لعل ذلك مبالغ فيه م) وكانى بالقضاة يعتقدون انهم اذا افلتوا محكوما عليه لا يكونون قد انتقموا للامة فهم يفضلون خلق مجرم بتعود الاجرام على عدم الانتقام

العدول . والاقلال من التقرير والاستدلال او اختيار السهل البسيط من الادلة العادية كما هو الشان مع بقية الجماعات. (كان يترافع وهو يرقب حركات العدول وتحين مناسبة الوقت فكان يقرأ في وجوههم اثر كل جملة وكل كلمة مما أوتي من الفراسة والتجارب ليعرف ما ينبغى بعد ذلك وكان يتفرس اولا العدول الذين صاروا من جانبه ويخطو معهم في خطابه الخطوة الاخيرة التي تمكنه من انحيازهم اليه ثم يلتفت لمن يشعر منه الانحراف عنه ويجتهد في استكناه سبب ميله عن المتهم . وهذا ادق ما في عمل المحامى . لان الاسباب التي تبعث الرغبة في الحكم على رجل بالعقوبة كثيرة بقطع النظر عن كون الحكم عدلا ام ظلما)

ولقد تلخص فن الخطابة في هذه الاسطر على قلتها وبان ان السبب في عدم تأثير ما حضر منها من قبل هو اضطرار الخطيب الى تغيير الكلام طبقاً لاثره في نفوس السامعين

وليس من الضرورى ان يكسب الخطيب ميل جميع العدول . بل يكفيه اكتساب قلوب الرؤساء الذين هم قادة البقية وبهم يتكون رأى الاغلبية . فالذى يقود العدول انما

هم نفر قليل منهم كما يقع ذلك فى كل الجماعات . قال المحامى الذى مر ذكره « عرفت بالتجربة انه متى حان وقت اصدار القرار يكفى واحد أواثنان من أهل العزيمة فى الرأى لاقناع البقية » .

فالواجب اذن اقناع هذين الاثنين او الثلاثة . باستعمال الحذق فيما يلقى فى نفوسهم . واول ما ينبغى فعله هو الاجتهاد فى اعجابهم لان الرجل فى الجماعة اذا اعجبه المتكلم صار قريب الاقتناع . وقبل بالسهولة الادلة التى تعرض عليه كيفما كانت فقد قرأت فى بعض الكتب عن موسيو (لاشو) الحكاية الآتية (من المعروف عنه أنه كان فى مرافعاته امام محكمة الجنايات لا يفتر عن ملاحظة العدلين او الثلاثة الذين كان يتفرس فيهم انهم اصعب مراساً من البقية وانهم اهل النفوذ فيهم . وكان يتمكن غالباً من التغلب عليهم واتفق له مرة فى الريف انه لحظ بين العدول واحداً استعمل لاقناعه اشد وسائل الخطابة ثلاثة ارباع الساعة على غير جدوى . وكان جالساً فى أول الصف الثانى وهو السابع حتى كاد اليأس يدرك الخطيب وبينما لاشو مندفع فى البيان والبلاغة تدفق

من فيه اذا به قطع الكلام فجأة والتفت الى رئيس المحكمة قائلا « سيدى الرئيس اتسمحون فتأمرون باسدال الستار الذى امامنا فان الشمس تخدش عيني حضرة العدل السابع » فاحمر وجه العدل السابع وتبسم وشكر وقد صار من صف الدفاع)

قام فى هذه الايام كثير من الكتاب ومنهم الفطاحل وشددوا النكير على نظام العدول مع ان وجودهم هو الضمان الوحيد الذى يقينا شر الخطأ الكثير الوقوع من طائفة لا رقيب عليها (١) ومنهم من يذهب الى وجوب حصر اختيار العدول فى طبقة المستنيرين ولكنا

---

(١) المحاكم عندنا هى المصلحة الوحيدة التى تكاد تكون لا مراقبة على اعمالها ومعما اتته الامة الفرنساوية من الثورات لا يوجد فيها حتى الان قانون مثل قانون (الافراج) الذى تفتخر به الامة الانكليزية . نحن قد نفينا جميع الظالمين . ولكننا اقمنا فى كل مدينة قاضيا يتصرف فى شرف اهل الوطن وحريتهم كما يشاء . فويغى تحقيق خرج حديثاً من مدرسة الحقوق وله القدرة المنفردة على سجن أعلى الوطنيين منزلة كما يريد لمجرد الشبهة منه فى اجرامهم . وليس من يحاسبه على عمله . وله القدرة على ابقائهم فى سجنهم ستة اشهر بل سنة

اقمنا الدليل على ان قراراتهم فى هذه الحالة لن تختلف مع التى تصدر الآن . ومنهم من يتذرع بالخطأ الذى يقع من العدول فيذهب الى تبديلهم بالقضاة . ونحن لا ندرى كيف غاب عنهم ان ذلك الخطأ الذى بالغوا فى نسبته الى العدول انما سبقهم به القضاة . لان المتهم لا يمثل بين يدى اولئك الا بعد اعتباره جانيا من كثير من هؤلاء . من قاضى التحقيق ورئيس النيابة ودائرة الاتهام . الا يرى انه لو سلم الحكم النهائى عليه الى القضاة بدل العدول فاتته الفرصة الوحيدة للوصول الى اظهار براءته . ان يخطىء العدول فقد اخطأ القضاة من قبلهم . فالوزر على هؤلاء وحدهم فى كل خطأ قضائى مفزع كالحكم الذى صدر أخيراً على الطبيب (فلان) اذ اضطهده احد قضاة التحقيق المعروف بقصر العقل لان

بحجة التحقيق ثم يخلى سبيلهم ولا ضمان لهم عليه ولا يكلف لهم باعتذار يفعل ذلك بمقتضى (امر القبض) وهومساو (لخطاب السجن) الذى عرفه ابذؤنا الاولون غير ان هذا الاخير كان لا يجوز استعماله الا للعظماء من الاكابر وأما الاول فهو اليوم فى يد طبقة من الوطنيين هم بعيدون جداً عن ان يكونوا الاكثر تهذيباً والاكبر استقلالا .

شابة تكاد تكون من البله اتهمته بأنه اسقط حملها مقابل جعل قدره ثلاثون فرنكا . ولولا ثورة الرأى العام وصدور العفو عنه اذلك عقب الحكم عليه لارسل الى سجن الاشغال الشاقة . ظهر فى هذه الحادثة ان خطأ الحكم كان فاحشاً بمقدار اجماع الناس على وضوح براءة المحكوم عليه . وكان القضاة انفسهم مقتنعين بذلك لكن تحزبهم لطائفتهم دفعهم الى استنفاد كل وسيلة ليمنعوا العفو عن ذلك البرئ . والحاصل انه متى كانت الدعوى ذات احوال خصوصية فنية لا يدركها العدول ترى هؤلاء مضطرين الى الاخذ بأقوال النيابة العمومية لاعتقادهم ان الذى حقق التهمة قضاة لهم خبرة تامة بمثل هذه المسائل . وليت شعرى من يكون المخطئ الحقيق حينئذ العدول أم القضاة . يجب ان نحرص على العدول حرصنا على النفيس فربما كانوا هم الجماعة التى لا يمكن ان يقوم الفرد مقامها . وهم الذين يتيسر لهم وحدهم ان يخففوا من شدة القانون . فهو بمقتضى كونه واحداً لجميع الناس اعمى يضع القواعد مطلقة ولا يعرف الشواذ . اما القضاة فلا تدخل الشفقة عليهم من باب . ولا يعرفون الا النص . وهم قساة

بمقتضى صناعتهم . فلا يفرقون فى الحكم بين وغد ثقيل النفس المجرمة وفتاة هجرها من غواها وعضها الفقر فوارت مولودها . لكن العدول يشعرون بفطرتهم ان تلك الفتاة التى خدعت اقل اجراما من الذى خدعها ولا سلطان للقانون عليه . وانها جديرة بكل عطف وحنان

لقد عرفت حقيقة روح الطوائف كما عرفت روح الجماعات الأخرى . ولكنى لم اوفق الى معرفة حالة ا كون متهماً فيها بجرم وافضل القضاة على العدول ليحكموا فيها . لان لى بعض الامل فى البراءة امام هؤلاء والامل ضعيف امام اولئك . حذار من سطوة الجماعات وحذار ثم حذار من سطوة بعض الطوائف فقد تلين الاولى ولكن الثانية لا تلين ابداً

الفصل الرابع

جماعات الانتخاب

—

الصفات العامة لجماعات الانتخاب ـ طريقة اقناعها ـ الصفات التي يجب ان تكون للمترشح ـ ضرورة النفوذ ـ السبب في ان العملة والصناع قلما ينتخبون النائب من بينهم ـ سلطان الالفاظ والجمل على الناخب ـ صورة المناقشات الانتخابية ـ كيف يتكون رأي الناخب ـ سلطان اللجان ـ في انها تمثل اشد صور الاستبداد ـ لجان الثورة الفرنساوية ـ من المتعسر الاستعاضة عن الاقتراع العام كيفما كانت قيمته ضعيفة ـ في بيان ان النتيجة تكون هي بذاتها اذا قصر حق الانتخاب على فريق من الاهلين ـ في معنى الاقتراع العام عند كل امة

—

من الجماعات المختلفة العناصر جماعات الانتخاب اعني

المجامع التى تنتخب القائمين ببعض وظائف معينة ولما كان عملها محصوراً فى دائرة محدودة وهو إختيار واحد من بين افراد معينين لا يظهر فيها الا بعض الصفات التى تقدم بيانها . فالذى يشاهد عندها ضعف القدرة على التعقل . وفقدان ملكة النقد. وسرعة الغضب. والتصديق. والسذاجة .ويرى فى قرارتها اثر القواد واثر العوامل التى مرّ ذكرها . اى التوكيد . والتكرار . والنفوذ . والعدوى

فلنبحث فى طريقة اقناعها لانا اذا عرفنا انجع الوسائل فى ذلك وضحت لنا روحها تمام الوضوح

اول صفة يجب ان تكون للمترشح هى النفوذ . ولا يقوم مقام النفوذ الذاتى اذا فقد الا النفوذ المكتسب من الثروة . حتى ان الذكاء الفائق بل النبوغ ليسا من الوسائل التى تؤدى الى النجاح كثيراً فى هذا الباب

ولا غنى للمترشح عن النفوذ لانه العدة الكبرى التى تمكنه من التسلط على النفوس بدون ان يتناظر فيه والسبب فى كون العملة والصناع لا ينتخبون من ينوب عنهم من صفوفهم هو انه لا نفوذ عندهم لمن خرج من بينهم واذا

اختاروا في النادر واحداً من طبقتهم فانما ذلك لكي يضربوا به أحد العظماء كمعلم كبير الشأن ممن لهم سطوة على الناخب دائماً فينزع هذا الى مخالفته متخيلا انه يصير بذلك سيداً عليه لحظة من الزمان

الا ان النفوذ وحده لا يضمن النجاح لصاحبه في الانتخاب لان الناخب يحب ان يتملق ويمنى بنيل ما يصبو اليه من الرغبات فينبغي ان يساق اليه من التملق ما يعجزه حمله وان لا يحجم عن التكفل له بما يخرج عن حد المعقول من الوعود والاماني . فان كان عاملا فكل ذم في معلمه قليل . اما المترشح المزاحم فانه يجب ان يدخل اليه من طريق التوكيد والتكرار والعدوى لاثبات انه أخس الناس وانه مجرم أثام . ومن البديهي انه لا محل لاقامة دليل ما على ذلك . فان كان الخصم لا يعرف روح الجماعات مال الى تبرئة نفسه بالحجة والبرهان بدل ان يقابل التوكيد بالتوكيد ومن ثم يفقد كل أمل في النجاح

أما البرنامج الذي يحرره المترشح ببيان ما ينوي من الاعمال فينبغي ان لا يكون صريحاً حتى لا يتخذه خصومه

حجة عليه . لكن يجب ان يطيل في البرنامج الشفهي ما استطاع ولا خوف عليه من الوعد باجراء اعظم الاصلاحات فان ذلك يؤثر حالا في نفوس الناخبين وهو في حل منه آجلا اذ القاعدة المطردة ان الناخب لا يبحث ابداً في هل المنتخب جرى طبقاً لتصريحاته التي كانت السبب في انتخابه

ومن هنا يتبين ان جميع عوامل الاقناع التي تقدم ذكرها هي في جماعات الانتخاب . بقي علينا ان نذكر الالفاظ والجمل مما بينا تأثيره السحري في النفوس . الخطيب الذي يعرف كيف يتصرف بها يمكنه ان يوجه الجماعة حيث يشاء . فلمثل (رأس المال الدنس) و (اولئك المحتالين الادنياء) و (العامل الجليل) و (جعل الاموال شائعة بين الجميع) وهكذا . لمثل هذه الالفاظ تأثير لا يزال كبيراً وان كان الناس قد صاروا يمجونها . فاذا كان المنتخب ممن أسعدهم الحظ ووفق لايجاد صنعة جديدة خالية من المعنى المحدود لتصيب بذلك اهواء النفوس المختلفة كان نجاحه باهراً وفوزه محتما . والذي أوقد نار الثورة الدموية في اسبانيا سنة

١٨٧٣ انما هو لفظ من تلك الالفاظ السحرية ذات المعانى المضطربة التى يفهم منها كل واحد حسب ما يشتهى . ولقد يحسن بنا ايراد كيف كان ذلك نقلا عن أحد كتاب ذلك الحين. قال « ظن المتطرفون ان الجمهورية الجامعة للسلطة عبارة عن ملوكية خفية فارضاهم مجلس الامة وقرر بالاجماع أن تكون الجمهورية اتحادية من غير أن يعرف أحدهم معنى ما أقر عليه . لان الصنيعة كانت قد أخذت بلب الناس أجمعين فسكروا بخمرتها . وغالوا فى طلاوتها وقالوا لقد قامت فى الارض مملكة الفضيلة والسعادة» . وكان الجمهور يرى من المسبة العظيمة ان خصمه لا يعترف له بنعت (الاتحادى) . وكان بعض الناس يسلم على بعض بقوله (سلام على الجمهورى الاتحادى) . أما المعنى الذى كان يحضرهم من هذه التسمية فمنهم من كان يذهب الى انه عبارة عن اطلاق الاقاليم من كل قيد ليحكموا أنفسهم باستقلال . ومنهم من كان يظن ان النظام الجديد يشبه نظام الولايات المتحدة فى امريكا . واخرون يرون انه توزيع السلطة وتجزئة طريقة الحكم فى البلاد . والبعض كان يفهم ان كل سلطة قد بادت وان الوقت حان لتصفية حساب

الهيئة الاجتماعية . ونادى الاشتراكيون فى برشلونه بِثى الاندلس باستقلال كل قرية بنفسها . وذهبوا الى وجوب انتخاب عشرة آلاف نائب عن جميع البلاد الاسبانية كلهم احرار لا يحكمهم غير انفسهم . وقالوا بالغاء الجيش والشرطة ولم يمض الا قليل حتى أخذت الثورة تمتد فى الاقاليم الجنوبية من مدينة الى مدينة ومن قرية الى أخرى . فكانت كل بلدة فرغت من اعلان استقلالها تعمد الى تخريب الاسلاك البرقيه والسكك الحديدية لتقطع المواصلة بينها وجيرانها ومدريد ولم تبق نزلة حقيرة الا نزعت الى الاستقلال بنفسها . وحل محل الاتحاد تمزق فى الاقاليم علاماته التوحش والنار والدماء فأقيمت المذابح فى كل صقع وناد

اما تأثير المقول فى جماعات الانتخاب فلا يجهل ضعفه الا الذين لم يطلعوا مرة على ما يجرى فى اجتماعات الانتخابات لانها لا تحتوى على شيء غير تناول التوكيدات المتناقضة . والشتائم والمخازى . ولكنها مجردة عن كل حجة وبرهان . واذا اتفق وساد السكون لحظة فذلك لان احد الحاضرين ممن لا يقتنعون بالسهولة خرج وسط الجمع ليلقى على المترشح

سؤالا يعجزه الجواب عنه . وذلك يلذ دائما للسامعين . الا ان هذه اللذة لا تدوم طويلا لان صوت السائل لا يلبث ان يغيب فى صخب المعارضين وانى ناقل للقراء عن الجرائد اليومية شيئا مما يجرى فى الاجتماعات العمومية ليكون مثلا على ما تقدم . (اقام بعضهم اجتماعاً وطلب من الحاضرين انتخاب الرئيس فقامت القيامة واسرع الفوضويون الى محل اللجنة ليستولوا عليه ووقف فى وجههم الاشتراكيون فتلاكم الفريقان وانهالت الشتائم من مشاء . وبائع ذمته . وهكذا وخرج احد الحاضرين وعينه مورمة . وانتهى الحال ببقاء اللجنة فى مكانها وسط الهياج والاصطخاب . وتمت الرئاسة للوطنى فلان . واخذ الاشتراكيون يقطعون عليه الكلام وهو يحمل عليهم حملة منكرة . فقابلوه بالوغد . قاطع الطريق . الدنىء وهكذا من النعوت . فقابل الخطيب ذلك بنظرية مقتضاها ان الاشتراكيين من البله او النصابين)

وهذا مثال آخر (نظم الحزب المنحاز لالمانيا مساء امس فى قاعة التجارة بشارع كذا اجتماعاً كبيراً استعداداً لعيد عمال اول شهر مايو . وتقرر ان يكون الهدوء سائداً والسكون

شاملا وقد طعن الوطنى فلان على الاشتراكيين بأنهم اوغاد نصابون . وعليه تشاتم الخطباء والحضار وانتقلوا من المشاتمة الى الملاكمة . فاشتركت الكراسى والموائد فى الخصام الخ)

ولا يحسبن القراء أن هذا النوع من الخطابة خاص بفريق من الناخبين وانه آت من درجتهم الاجتماعية بل تلك صورة تتصف بها المناظرة فى كل جمعية أياً كانت حتى التى تتألف من مستنيرين . وقد بينت ان الافراد فى الجماعات يتقاربون الى حد التساوى فى ملكات العقل . ونحن نجد الدليل على ذلك فى كل مكان . اليك مادار فى اجتماع كان الحاضرون فيه كلهم من الطلبة نقلا عن جريدة الطان الصادرة فى ١٣ فبراير سنة ١٨٩٥ « كلما اوغل الليل ازداد الهياج ولا أظن ان خطيباً واحداً لفظ جملتين من دون ان يقطع الكلام عليه . اذ الصراخ كان يعلو فى كل لحظة تارة هنا وتارة هناك وآونة من جميع الجهات هؤلاء يصفقون واولئك يصفرون وكانت المناقشات الشديدة تحتدم بين السامعين فترى العصى تهدد الرؤوس والضرب على الموائد كالنغمة .

والاصطخاب مقذوفاً الى المشوشين . هذا يقول اخرجوه . وذاك يصيح . الى منبر الخطابة ثم قام موسيو فلان وجعل يخاطب الحضور بقوله هذا اجتماع ما اشد قبحه وجبنه . هذا اجتماع وحشي . دنئ . رذيل . متعصب . . ثم اعلن انه سيهدمه الخ) »

هنا يرد على الخاطر كيف يتمكن الناخب من تكوين رأيه وسط هذه الضوضاء . غير ان هذا الخاطر يؤذن بأن صاحبه يجهل تمام الجهل مقدار الحرية التي توجد في المجامع . وان اراء الجماعات انما تأتيها من طريق التسلط عليها لا من طريق الاقناع . والذي يكون الآراء ويجرى الانتخاب في الحالة التي نبحث فيها هي اللجان . واللجان يوجدها في الغالب بائعو النبيذ لما لهم من السيطرة على العمال بواسطة تسامحهم معهم في تأجيل ثمن ما يشربون . قال موسيو (شيرر) وهو من اكبر انصار الديموقراطية في الوقت الحاضر « أتعرفون ماهي لجنة الانتخاب . انها عبارة عن مفتاح نظاماتنا وأهم قطعة من الآلة السياسية عندنا . ان الذي يحكم فرنسا الآن هي اللجان[1] »

---

(١) اللجان على اختلاف مسمياتها كالنوادي والشركات هي

لذلك ليس من الصعب جداً التسلط على اللجان اذا كان المترشح مقبولا وذا يسار يفي بما يحتاج اليه في مثل ذلك . فثلاثة ملايين فرنك كفت باعتراف المتبرعين انفسهم لانتخاب القائد (بولونجيه) في مقاطعات عدة

تلك روح جماعات الانتخاب مثلها مثل روح بقية الجماعات لا أحسن ولا اردأ

وعليه فاني لا أستخلص مما تقدم نتيجة ضد الانتخاب

اشد الجماعات خطراً من حيث المقدرة . فهي التي تمثل اعظم جمعية لا أثر للشخصية فيها . ولذلك كانت اقسى الجماعات يداً واكبرها تسلطا فلا يشعر القواد الذين يتكلمون بلسان اللجان ان هناك تبعة ترجع اليهم . فهم يضربون في كل صوب آمنين . وما كان يخطر على بال اشد المستبدين عسفا ان يأمر بمثل ما امرت به اللجان الثورية التي فرقت شمل رجال (الاتفاق) وحصدتهم حصداً كما قال (باراس) . ظل (روبسبير) قابضا على الحكم كله بيده طول الزمن الذي كان ينطق فيه باسم اللجان فلما اختلف معها بسبب التشدد في الرأي وانفصل عنها ادركته الداهية . اجل ان حكم الجماعات هو حكم اللجان اعني حكم القواد ولن يهتدي الانسان الى حكم اشد واقسى .

العام . ولو ان الامر يبدى لا بقيته كما هو لاسباب عملية تنتزع من بحثنا فى روح الاجتماع . فلنذكرها

لا يسع أحداً انكار مضار الانتخاب العام لانها واضحة كالشمس . فلا يمارى فى ان المدنية عمل طائفة صغيرة من أهل العقول الراقية شبيهة بقمة هرم تتسع طبقاته كلما انحطت الدرجة العقلية . وتلك الطبقات تمثل الطبقات البعيدة للأمة. وعظمة المدنية لا تتوقف طبقاً على رأى العناصر الوضيعة التى ليس لها من القيمة الا كثرة العدد . ومن المحقق أيضاً ان اراء الجماعات خطرة فى غالب الاحيان فقد كلفتنا حتى الآن غارات كثيرة على بلادنا واذا تم لها ما تعده من فوز الاشتراكية فمن المظنون ان اهواء سيادة الامة تكلفنا أضعاف ذلك أيضاً

الا ان هذه المطاعن القوية نظراً تفقد قوتها تماماً من الجهة العملية اذا فكرنا فى قوة الاراء التى لا تغالب متى صارت عقيدة من العقائد وعقيدة سيادة الجماعات لا تختلف من الجهة النظرية مع العقائد الدينية التى وجدت فى القرون الوسطى من حيث الضعف فى كل غير ان ما كان لهذه من

القوة فى ذلك الزمان هو للاولى فى هذه الايام فهى منيعة حينئذ كما كانت افكارنا فى تلك القرون . لنفرض ان رجلا من أهل الافكار الحرة اى المطلقة السراح وجد فى القرون الوسطى أتظن انه كان يتحرك لمقاومة الافكار الدينية المتمكنة فى القوم بعد ان يرى مالها من السيادة المطلقة . أو كان يفكر فى انكار وجود الشيطان وحرمة يوم السبت اذا مثل امام قاض يريد احراقه بالنار بتهمة انه حازب الشيطان او ذهب الى المعبد يوم السبت . انه لا مناقشة مع الجماعات كما انه لا جدال مع العواصف . ولعقيدة الاقتراع العام فى ايامنا من القوة ما كان للعقائد الدينية فى ذلك الزمان . فترى الخطباء والكتاب يذكرونه مقرونًا بالتجلة والاحترام مصحوبًا بملق لم يعرفه لويز الرابع عشر . وجب اذن ان يسار معه كما يسار مع العقائد الدينية . وللزمان ان يفعل فى الجميع فعله على انه لا فائدة من التحفز لزعزعة هذه العقيدة مع وجود ما يؤيدها فى الظاهر . ولقد أصاب موسيو (توكفيل) حيث قال « ليس لاحد فى زمن المساواة اعتقاد فى أحد . لما بين الكل من التشابه . غير ان هذا التشابه يجعلهم يثقون

تمام الثقة بحكم الجمهور لانهم لا يتصورون ان الحقيقة لا تكون من جانب العدد الاكبر وفيه ذلك الجم الغفير من المستنيرين »

قد يذهب بعضهم الى ان حالة انتخابات الجماعات تتحسن بقصر حق الانتخاب على أهل الكفاآت . اما انا فلا أسلم بذلك لحظة واحدة للسبب الذى قدمته وهو انحطاط درجة الجماعات العقلية على اختلافها كيفما كان تركيبها . فان الناس يتساوون فى الجماعة دائماً . وليس رأى الاربعين عضواً الذين تتركب منهم جمعية المعارف فى مسألة عامة احسن من رأى اربعين سقاء . ولا اظن ان رأيا أقره الاقتراع العام وشدد النكير عليه من أجله كاعادة الامبراطورية كان يتغير لو ان المقترعين كانوا كلهم من أهل الادب والعلماء . لان الذى يجعل الرجل ذا بصر بالاحوال الاجتماعية ليس كونه يعرف اللغة اليونانية او الرياضيات او كونه معمارياً او طبيباً بيطرياً او طبيباً او محاميا . انظر الى علماء الاقتصاد عندنا تريهم كلهم من المستنيرين واغلبهم مدرسون او اعضاء فى جمعية المعارف ومع ذلك لم يتحدوا على مسألة عامة ابداً كحماية

التجارة او توحيد معدن النقود وهكذا . ذلك لان علمهم ليس الا صورة مخففة من الجهل العام . وكل جهل يستوى امام المسائل الاجتماعية التي لا حصر للمجهول فيها

وعلى ذلك اذا قصرنا الانتخاب على قوم افعموا علماً لا نصل الى نتيجة احسن مما لو تركناه فى يد اهل زماننا لان اولئك العلماء يعملون على الاخص بحسب مشاعرهم ومنافع طائفتهم . فلا نكون قد ذللنا شيئا من العقبات التى امامنا بل نكون قد زدنا عليها بدخولنا تحت نير الاستبداد الذى تنفرد به الطوائف

نتيجة انتخاب الجماعات واحدة وهو انما يترجم عن الرغائب والحاجات التى للشعب بمقتضى فطرته سواء كان الانتخاب عاماً او محصوراً فى طبقة او طبقات . فى جمهورية او ملوكية . فى فرنسا او فى البلجيك أو اليونان او البرتقال او اسبانيا . ومتوسط المنتخبين فى كل امة يمثل روح شعبها . وهو لا يكاد يتغير من جيل الى جيل

وهنا نجد مرة اخرى نظرية الشعب ذات الاهمية الكبرى وتلك النظرية الاخرى المشتقة منها وهى ضعف تأثير النظامات

والحكومات فى حياة الامم . هذه الامم انما تسير طبقاً لأرواح شعوبها . وبعبارة اخرى طبقاً لما ورثته عن ابائها وهو ما تمثله تلك الروح . فالشعب هو مستودع احتياجات كل يوم . وتلك الاحتياجات هى الملوك الخفية التى بيدها زمام مآلنا

الفصل الخامس

المجالس النيابية

—

أ كثر الصفات العامة للجماعات المختلفة العناصر غير الاسمية توجد فى الجماعات النيابية — بساطة الافكار — الانفعال وحدوده — الافكار الثابتة والافكار المتقلبة — السبب فى ان التردد هو الغالب — شأن القواد — سبب نفوذهم — هم الذين لهم الكلمة فى المجلس بحيث ان رأى الجميع يرجع الى رأى عدد محدود من الاعضاء — سلطان القواد الشامل — اركان خطابتهم — الالفاظ والصور — فى ان الضرورة تقتضى ان يكون القواد متعنتين بما يلقون من الاراء وان يكونوا من قصار النظر — في انه يستحيل ان تقبل اراء الخطيب الذى لا نفوذ له — غلو مشاعر الهيئة سواء كانت طيبة أو رديئة — فى انها تتحرك احياناً بحركة نفسية — فى جلسات « المتعاهدين » — فى الاحوال التى لا يكون للهيئة فيها صفة الجماعة — تأثير الاختصاصين

فى المسائل الفنية — منافع النظام النيابى ومضاره فى كل أمة — فإن النظام موافق لاحتياجات العصر ولكنه يؤدى الى تبذير الاموال وتحديد جميع الحريات شيئاً فشيئاً — خلاصة الكتاب

—

المجالس النيابية جماعات مختلفة العناصر غير اسمية . وهى تتشابه كثيراً فى صفاتها وان اختلفت طريقة تكوينها بحسب الامم والازمان . ولروح الشعب فيها أثر هو اضعاف تلك الصفات او تقويتها . الا انه لا يمنع من ظهورها البتة . وتتشابه المجالس النيابية فى البلاد المختلفة كاليونان وايتاليا والبرتقال واسبانيا وفرنسا وأمريكا من حيث المداولات والقرارات تشابها عظيما فتتشابه الصعوبات الناشئة عن ذلك امام جميع الحكومات

النظام النيابى هو اقصى ما تصبو اليه الامم المتحضرة فى العصر الحاضر لانه يعبر عن فكر سائد فى الناس وان كان علم النفس يراه خطأ وهو ان العدد الكثير أقدر من العدد القليل على البت فى الامور بالعقل والروية والاستقلال

والصفات المميزة للجماعات توجد فى المجالس النيابية

من بساطة الافكار . وسرعة الانفعال وقابلية التأثر برأى الغير . والغلو فى المشاعر . ونفوذ القواد . الا ان لها بمقتضى تكوينها الخاص بعض صفات لا تشترك فيها مع بقية الجماعات واليك بيانها

اما بساطة الافكار فمن أهم مميزات المجالس النيابية فتشاهد عند جميع الاحزاب خصوصا عند الامم اللاتينية الميل الى حل المسائل الاجتماعية العويصة بابسط المبادىء النظرية وبقوانين عامة يطبقونها على جميع الاحوال . ومن الواضح ان المبادىء تختلف باختلاف الاحزاب . لكن الرجل فى الجماعة يرمى دائما الى تقدير تلك المبادىء باكثر من قيمتها ويذهب فيها الى آخر ما تؤدى اليه من النتائج . لذلك كانت الافكار التى تمثلها المجالس النيابية هى المتطرفة

واكمل مثال لبساطة المجالس النيابية جماعة (اليعاقبة) ايام ثورتنا الكبرى . فقد كانوا كلهم من ارباب المذاهب وكلهم من المناطقة . وكانت رؤوسهم ملأى بالكليات المقولة بالتشكيك . لذلك كان همهم تطبيق المبادىء المقررة من غير التفات لظروف الاحوال . فصح ما قيل عنهم من انهم عبروا

الثورة ولم يروها . فهم قوم اتخذوا مبادئهم مرشداً وظنوا انهم يتمكنون بها من خلق هيئة اجتماعية جديدة ويرجعون بالمدنية الراقية الى مدنية كانت للامة قبل تطورها الحالى . كذلك كانت الوسائل التى استعملوها فى تحقيق احلامهم من ابسط الوسائل . فاذا اعترضتهم عقبة استعملوا العنف فى تذليلها وكانت الروح السارية فيهم جميعاً واحدة وان كانوا فرقا شتى

واما التأثر بالرأى فقابلية المجالس النيابية له شديدة . والتأثير يأتى من قبل القواد ذوى النفوذ كما هو الشأن فى الجماعات كلها الا ان لقابلية المجالس النيابية فى هذا الباب حدودا واضحة يجب ذكرها .

فلكل عضو رأى ثابت فى المسائل المتعلقة باقليمه لا يمكن زحزحته عنه . ولا تؤثر فيه حجة او دليل . فلو بعث (ديموستين) ما امكنه ان يقنع عضوا بعدم وجوب حماية المهن التى لبعض اصحابها النفوذ الاول فى الانتخابات . ذلك لان التأثير الذى وقع عليه اولا من الناخبين اوجد له رأيا ثابتا وعطل فيه ملكة الاقتناع بما يخالفه . ولعل احد نواب مجلس العموم الانكليزى ممن طال عهدهم فيه كان يشير الى تلك الافكار التى رسخت

من قبل فى ذهن كل عضو حتى صارت لا تقبل التغيير ولا التعديل لتأثير ضروريات الانتخاب حيث قال « سمعت مدى خمسين عاماً قضيتها فى (ويستمنستر) الافا من الخطب فالقليل منها حملني على تغيير رأيي ولكن لم يكن لواحدة منها ان تحملني على تغيير صوتى عند الاقتراع »

واذا دارت المناقشة فى مسألة عامة كاسقاط الوزارة او تقرير ضريبة جديدة وهكذا تقلبت الاراء وظهر نفوذ القواد. لكنه لا يساوى مالهم فى الجماعات الاعتيادية. اذ لكل حزب قواد قد يعادل نفوذهم نفوذ قواد الحزب الآخر. فيصبح الاعضاء بين مؤثرين متضادين ولذلك يترددون. فيقر الواحد منهم على أمر وبعد ربع ساعة يعمل بنقيضه كأن يقبل فى القانون نصا يهدم المبدأ الذى اقامه عليه مثال ذلك الاقرار على قانون يبيح لاصحاب المعامل حق اختيار العمال وطردهم. ثم الاقرار فى الجلسة ذاتها على تعديل يجعل هذا الحق أثرا بعد عين

وضح مما تقدم ان لكل مجلس فى كل دور افكاراً ثابتة واخرى غير ثابتة ولما كان الغالب فيما يعرض عليه هى المسائل العامة كان

التردد فى الاراء هو الغالب لما يجتمع فى نفس كل عضو من تأثير الناخبين وتأثير القواد فى المجالس

على ان القواد هم أصحاب الكلمة فى أغلب المسائل التى ليس للاعضاء فيها رأى ثابت من قبل . وضرورة أولئك القواد ظاهرة . لانهم يوجدون فى كل هيئة نيابية عند جميع الامم بعنوان رؤساء الفرق . أولئك الرؤساء هم السلاطين فى كل مجلس . لان الرجل فى الجماعة لا يستغنى عن السيد . ومن هنا كانت قرارات المجالس النيابية لا تمثل الاَّ رأى عدد صغير من اعضائها

والقليل من تأثير القواد فى تلك المجالس راجع الى فصاحتهم . وكثيره مستمد من نفوذهم . برهانه انهم اذا فقدوا نفوذهم انعدم تأثيرهم

وهذا النفوذ شخصى لادخل فيه للاسم والشهرة . ومن غرائب الامثلة ما أتى به موسيو (جول سيمون) فى عرض كلامه في مجلس نواب سنة ١٨٤٨ الذى كان عضواً فيه قال :

« لم يكن لويز نابوليون شيئاً مذكوراً قبل ان يتم له السلطان بشهرين

ارتقى (فيكتور هيجو) منبر الخطابة فلم ينل نجاحاً بل سمعه الناس كما يسمعون (فيلكس پايات) ولكنهم لم يصفقوا له مثله . قال لى (فولايل) عن (پايات) انه لا يحب افكاره ولكنه كاتب كبير وهو أكبر خطباء فرنسا . كذلك (ادجار كينيه) على علمه وقوة مفكرته لم يكن ذا شأن يذكر فان صيته ذاع قبل افتتاح المجلس فلما جاء اليه تخلفت عنه شهرته

والمجالس النيابية هى المكان الوحيد فى الارض الذى يضعف فيه نور الذكاء الفائق . فليس هناك للفصاحة قيمة الا ما وافق منها أحوال الزمان والمكان . ولا اهتمام الا بالخدم التى أديت للاحزاب لا للوطن . واذا كانت المجالس النيابية قد كبرت شأن (لامارتين) سنة ١٨٤٨ و (تيير) سنة ١٨٧١ فما ذلك الا بتأثير الضرورة الشديدة الحالّة ولهذا بعد ان زال الخطر شفى الناس من واجب الشكران ومن الخوف معاً »

نقلت هذا القول للاستفادة من الحوادث الواردة فيه لا من البيان الذى اشتمل عليه لانه يدل على علم ناقص جداً باحوال النفس . اذ الجماعة لا تكون كذلك اذا عرفت لقائدها ما

قد يكون اداه من الخدم للوطن أو للاحزاب على خدراء. والجماعة انما تطيع قائدها موقتة بسلطان نفوذه فيها من دون ان يقترن ذلك عندها بمنفعة او شكران

لذلك اذا كان للقائد نفوذ كبير فتسلطه عظيم . وكلنا يعرف هذا النائب الشهير الذى كانت له الكلمة العليا عدة سنين بما اوتى من النفوذ حتى فقد مركزه على أثر بعض الحوادث المالية . كانت اشارة منه تكفى لقلب الوزارة وقد اوضح احد الكتاب مقدار تأثير ذلك النائب فى الكلمات الآتية « انا مدينون لموسيو فلان وحده بكوننا اشترينا التونكين بثلاثة اضعاف ماتساويه وبكوننا لم نضع فى مدغشقر الا قدماً متزعزعة . وبكوننا غبنا فى مملكة كاملة جنوب نهر النيجر وبكوننا اضعنا ما كان لنا من النفوذ الخاص فى الديار المصرية الا ان نظريات موسيو (فلان) قد كلفتنا من الخسائر اكثر من مصائب نابوليون الاول»[1]

---

(١) لعل المؤلف يشير الى موسيو كليمانسو الذى سمى هدام الوزارات ولو تأخر صدور هذا الكتاب الى الآن لغير المؤلف رأيه فى

على انه لا ينبغى تشديد النكير على هذا القائد وان كان قد كلفنا كثيراً لان اكثر نفوذه جاءه من تتبع الرأى العام. ولم يكن الرأى العام اذ ذاك فى المسائل الاستعمارية كما هو عليه الآن. ومن النادر ان يسبق القائد الرأى العام والغالب انه يسير خلفه ويتبعه فى الخطأ

للقائد فى اقناع قومه وسائل غير النفوذ هى التى ذكرناها مراراً. ولابد له فى قيادتهم من ان يكون قد وقف على حقيقة الروح السارية فيهم ولو من طريق الوجدان وعرف طريقة الكلام معهم. فينبغى له على الأخص ان يعرف ما لبعض الالفاظ من التأثير الذى يجذب نفوس السامعين وان يكون على جانب من الفصاحة المخصوصة التى تقوم بالتوكيد الشديد الخالى من الدليل وبالصور الأخاذة المحلاة بالحجج الناقصة. هذه فصاحة موجودة فى كل مجلس من المجالس النيابية حتى البرلمان الانكليزى الذى هو اكثرها اعتدالا

قال الحكيم الانكليزى (ماين) « من السهل ان تقرأ دائما

الرجل القابض اليوم على زمام السياسة الفرنساوية المتربع فى رئاسة نظارها ونظارة خارجيها وله فى السياسة العامة مقام كبير (م)

مدا ولات لمجلس العموم مدارها تبادل كليات ضعيفة وشخصيات حادة فلمثل هذه الصيغ الكلية تأثير كبير فى خيال أهل الديمقراطية المحضة ومن الميسور على الدوام جعل الجماعة تقبل القضايا العامة اذا قدمت لها بالفاظ جذابة ولو كانت من القضايا التى لم يحققها أحد . وربما كانت لا تحتمل التحقيق »

يؤخذ من ذلك انه لاحد لتأثير « الالفاظ الجذابة » المذكورة وكم أتينا على بيان قوة الالفاظ والجمل . وما ينبغى أن يختار منها مما يمثل صوراً مؤثرة . واليك جملة تمثل ماتقدم اقتطفناها من خطابة أحد قواد مجالسنا « يوم يركب السياسى الافين والفوضوى السفاك ظهر باخرة واحدة تقودهما الى منفاهما فى الاراضى الحمية ذلك هو اليوم الذى يتجادث فيه الرجلان ويظهر كل واحد منهما لاخيه ممثلا احدى صورتى نظام اجتماعى واحد »

فالصورة التى يمثلها هذا المقال واضحة . وقد شعر خصوم الخطيب كلهم انهم مهددون بها . فهم يرون الاراضى الحمية مقرونة برؤية الباخرة التى تقودهم اليها لانهم من حزب أولئك

السياسيين الذين يهددهم ذلك العقاب . هنالك تولاهم الفزع الذى كان يدخل قلوب (المتعاهدين)اذ يسمعون (روبسبيير) يهددهم بتنجاة[1] الاعدام فيذينون له على الدوام

من مصلحة القواد أن يأتوا بالمبالغات التى لا يجوز فى العقل تصورها فمن ذلك ما أكده الخطيب الذى نقلنا عنه الصورة المتقدمة ولم يعارضه احد معارضة تذكر من ان أرباب المصارف المالية والقسوس يواسون الذين يقذفون قنابل الديناميت . وان مديرى الشركات المالية الكبرى يستحقون الجزاء الذى يستحقه الفوضويون . لمثل هذه التوكيدات دائماً أثر فى الجماعات . ولا يرمى الخطيب بالتطرف كيفما بالغ وأكد كما انه لاحرج عليه وان تعسف فى الطعن واشتد فى الهجاء ولا نظير لهذه الفصاحة من حيث التأثير فى السامعين لانهم ان جنحوا للمعارضة خافوا تهمة الخيانة او الاشتراك مع المجرمين .

سادت هذه الفصاحة فى المجالس النيابية فى كل زمان كما

---

(١) آلة اعدام تفصل الرأس عن بقية الجسد

قدرا . وهى تنشد فى ازمنة الشدة . ومن افيد المطالعات قراءة الخطب التى كان كبار الخطباء يلقونها فى مجالس الثورة فقد كانوا يشعرون بالحاجة الى قطع الكلام حيناً فحيناً لتقبيح الجرم وتمداح الفضيلة . ثم تنهمر الشتائم من افواههم على الظالمين . ويقسمون انهم اما ان يعيشوا أحراراً واما أن يموتوا ويقف الحاضرون يصفقون كمن بهم جنة . ثم يسكن جاشهم فيجلسون

قد يكون القائد احياناً ذكياً متعلماً ولكن ذلك يكون مضراً به فى الغالب . لان الذكى يميل الى بيان ما فى المسائل من اوجه التعقيد . ويقبل المناظرة والتفاهم . وذلك يؤدى الى التسامح والاغضاء ويكسر كثيراً من حدة العقيدة وحدة العقيدة لازمة للرسل . وكان اكبر القواد فى الامم خصوصاً قواد الثورة الفرنساوية من قصار العقول جداً وكان اكبرهم تأثيراً اشدهم قصراً فى العقل . فان الانسان ليدهش مما يراه من التخبط عند مطالعة رسائل اعظمهم قدراً وهو (روبسبيير) ومن لم يقرأ غيرها من ترجمة حياته لا يجد ما يعلل به قوة ذلك المسيطر الجبار قال بعضهم يصفها « صيغ كلية جارية على

كل لسان . وشقشقة فى الفصاحة المحفوظة من كتب التربية والتعليم على الطريقة اللاتينية اجتمعنا فى نفس خلوها اكثر من انحطاطها . نفس تكاد لا تعرف من وسائل الهجوم او الدفاع الا ما تعوده التلاميذ من قول الواحد منهم لزميله «هل من مبارز» وليس هناك رأى ولا تدبير ولا شاردة . عنف ممل وشدة مسئمة. فاذا فرغ القارىء من تلك المطالعة المملة شعر بالحاجة الى قول أف كما كان يفعل الرجل الظريف «كاميل ديمولان»

من المفزعات ما يناله الرجل ذو النفوذ من السلطة اذا صدقت عقيدته وقصر عقله . على انه لا بد لاستجماع ذلك فى الانسان حتى يستهين بالصعاب ويعرف كيف يريد . وللجماعات شعور كالالهام يهديها الى معرفة الرجل الذى اودعت فيه قوة العزيمة المبنية على صدق العقيدة فتدين لسلطته .

انما ينجح الخطباء فى المجالس النيابية بما لهم من النفوذ لا بقوة البراهين التى يقيمونها . واصدق شاهد على ذلك انه اذا وقع لاحدهم ما يفقده نفوذه فانه يفقد معه تأثيره اعنى قدرته على ادارة الآراء كما يشاء .

واما الخطيب المجهول الذى يذهب الى الجلسة بعد ان يكون قداعد خطابته ودعمها بالحجج ولم يكن لديه الا الحجج والادلة فلا رجاء له حتى فى الاصغاء اليه .وقد وصف موسيو (دبكوب) وهو احد النواب ومن علماء النفس المدققين النائب الذى لا نفوذ له فى السطور الآتيه « اذا استوى — الموصوف — على منبر الخطابة اخرج من محفظته اوراقا فنشرها امامه على الترتيب وشرع يخطب مطمئنا . وهو يفتخر فى نفسه بأنه سيبث عقيدته لتسكين روح سامعيه . لانه وزن ادلته وحررها. واعد شيئا كثيرا من الاحصاآت والحجج . وايقن ان الحق فى جانبه . وان معارضه لا يثبت امام الحقيقة الناصعة التى يأتى بها . هكذا يبدأ معتمداً على صواب رأيه واصغاء اخوانه لاعتقاده انهم لا يطلبون الا السجود امام الحق . وبينما هو يخطب اذ تأخذه الدهشة من اضطراب الحاضرين . ثم يتقزز بالضوضاء الناتجة من ذلك الاضطراب . ويتساءل كيف لا يسود السكون . وما السبب ياترى فى هذا الانصراف العام . وما الذى يدور على السنة اولئك الذين يتحادثون فيما بينهم وما السبب القوى الذى يحمل ذلك

على ترك مجلسه . يتساءل الخطيب هكذا والحيرة تعلو جبهته فيفرك حاجبيه ويمسك عن الكلام ويشجعه الرئيس فيعود بصوت مرتفع . فيزيد الاعضاء في عدم الاصغاء اليه . فيجهر ويتمتم . فتزداد الجلبة حواليه . ويعود لايسمع نفسه فيمسك عن الكلام مرة أخرى . ثم يخشى أن يدعو سكوته الى أصوات (الاقفال الاقفال) فيرجع الى خطابته بما فيه من قوه . وهناك تعلو الجلبة ويختلط الحابل بالنابل مما لا يقدر على وصفه الواصفون »

ومن خواص المجالس النيابية انها اذا تحرك شعورها وارتقت في الهياج الى درجة معلومة تصير كالجماعات العادية المختلفة العناصر سواء بسواء فتغلو الى النهاية في مشاعرها . وتذهب الى أقصى مراتب الشجاعة وآخر درجات التطرف في القسوة . اذ ذاك لا يصير الرجل نفسه بل يبعد عنها بعداً يحمله على تقرير ما يخالف منافعه كل المخالفة

والذى يقرأ تاريخ الثورة الفرنساوية يدرك الى أى حد تفقد المجالس شعورها وتخضع لما يطلب منها وان خالف اعز المنافع لدى افرادها . كان من أكبر الضحايا ان يتنازل

الشرفاء عن امتيازاتهم ومع ذلك فعلوه غير مترددين ذات ليلة من ليالى « الدستورية » وكان تنازل المتعاهدين عن تقديس أشخاصهم منذراً لهم بالويل والدماء ولكنهم فعلوا وماخشوا تقتيل بعضهم بعضاً ولا أرهبهم اعتقاد كل واحد منهم انه سيسوق الى الاعدام لا محالة كما يسوق هواليوم اخوانه اليه غير انهم كانوا اقدوصلوا الى حالة من التهيج جعلتهم كآلات تتحرك من نفسها على ماوصفنا فلم يعد هناك من الاعتبارات ما يقوى على صدهم عن اتباع الهوى المتمكن من صدورهم اليك ماقاله أحدهم (بيلوفارين) مما يوضح ما ذكر « ما كنا لنريد القرارات التى ياومنا الناس من أجلها قبل أن نصدرها بيومين اثنين بل بيوم واحدولكن المحنة هى التى كانت تمليها » وما أصدق ما كتب

كانت جلسات التعاقدمتفردة باللاشعور كما عرفت بالهياج قال تاين «لقد اقروا وشرعوا ما كانوا يجزعون له اشد الجزع ولم يكتفوا فى ذلك بالحماقيات والجنونيات . بل شرعوا الاثام وقتل الابرياء واعدام الاصدقاء وانضم حزب الشمال الى حزب اليمين وقرر معه بالاجماع وسط التصفيق الشديد ارسال

(دانتون) الى النجاة وكان رئيسه الطبيعى وموجد الثورة وقائد زمامها ومائله اليمين الى الشمال فقرر معه بالاجماع وسط التصفيق الشديد افظع الاوامر التى اصدرتها الحكومة الثورية وبين اصوات الاعجاب والنشوة تدفق الميل والانعطاف نحو (كولوت ديربوا) و (كوطون) و (روبسبيير) فجدد (المتعاقدون) انتخاب أعضاء الحكومة الثورية وابقاءها على منصة الحكم وهى الحكومة القاتلة التى كان يبغضها السهل لجرمها ويمقتها الجبل لانها كانت تحصده اصطلح السهل مع الجبل واتفق القليل مع الكثير ورضى الجميع بمساعدة قاتليهم على اعدامهم ثم فى يوم ٢٢ من الشهر تقدمت رقاب تلك الحكومة الى التقطيع وبعد ذلك بقليل تقدمت اليه أيضاً تلك الرقاب عقب خطاب روبسبيير »

قد يكون الوصف اقتم ولكنه الحق الواقع والصفات المتقدم ذكرها توجد فى المجالس النيابية المتهيجة التى سكرت بخمر فكر من الافكار فتصبح كالقطيع المتحرك يسوقه كل دافع وقد وصفها على هذه الحال موسيو (سبوللر) وهو شورى لا يشك احد فى صدق افكاره الديمقراطية وصفا

دقيقاً نذكره للقراء نقلا عن (المجلة الادبية) ويرى القارئ فيه جميع المشاعر المتطرفة التي قدمنا ذكرها وتمثل فيها التقلبات الشديدة التي تنتقل بها الجماعات من الضد الى الضد من لحظة الى أخرى. قال موسيو (سبوللر)

« ان التنافر والحسد وسوء الظن ثم الثقة العمياء والآمال التي لا نهاية لها اوردت الحزب الجمهوري حتفه فلقد كان له من السذاجة مالا يساويه الا سوء ظنه المطلق. لا يدرك شرعية الامور ولا يفقه للنظام معنى. ذعر وآمال لا تنتهى حالتان يستوى فيهما الريفي والطفل فسكونهما يضارع قلقهما. ووحشيتهما تماثل طاعتهما ذلك شأن المزاج الذي لم يرتب والتربية التي انعدمت. لا يندهشان لامر وكل أمر يفقدهما الصواب يرتجفان ويرهقان وفيهما الاقدام والشجاعة. فيقتحمان النار. ويجفلان من الظل. ويجهلان العلل والمعلولات. ويسارعان الى الفتور مسارعتهما الى التهوس. فيهما استعداد للفزع والذهول. ويتخبطان من الافراط الى التفريط فلا يعرفان الوسط ولا القدر الذي ينبغي ابداً. ألين من الماء تنعكس فيهما جميع الالوان. ويتشكلان بكل الصور

أى رجاء فى حكومة تؤسس فوقهما »

لكن من حسن الحظ ان جميع الصفات التى اتينا على ذكرها فى المجالس النيابية لا تظهر دائما . لان تلك المجالس لا تكون جماعات الا فى بعض الاحايين . والغالب ان كل عضو من اعضائها يحفظ ذاتيته على استقلال . ومن هنا صح لها ان تسن من القوانين الفنية ماهو حسن للغاية . نعم ان الذى يضع هذه القوانين انما هو اختصاصى واحد يحضرها فى سكون مكتبته وكل قانون اقره المجلس هو صنع فرد واحد لا صنع المجلس كله . ولكن القوانين التى وضعت بهذه الكيفية هى احسن ما يشرع وانما يكون القانون ضارا اذا ادخلت عليه فى الهيئة تعديلات رديئة فجعلته من صنع الجماعة ذلك لان صنع الجماعة اخط درجة من عمل الفرد دائما وفى كل مكان . والاختصاصيون هم الذين ينجون المجالس النيابية من الوقوع فى الاعمال المضرة التى لا يهذبها الاختبار . فالاختصاصى يكون عند ذلك قائداً وقتياً يؤثر فى المجالس ولا تأثير للمجلس فيه

المجالس النيابية هى أحسن الوسائل التى اهتدت اليها الامم

فى حكم نفسها وبالاخص فى التخلص ما استطاعت من نير المظالم الشخصية مع ما عليه المجالس المذكورة من صعوبة الحركة . وهى على التحقيق أرقى اشكال الحكومات ان لم يكن عند الكافة فعند الفلاسفة والمفكرين والكتاب وأهل الفنون والعلماء وبالجملة عند كل عنصر من العناصر التى تتكون منها ذروة الحضارة فى الامم

على اننا اذا نظرنا اليها من الجهة العملية لا نرى لها الا ضررين كبيرين . الاول تبذير الاموال تبذيراً لا مناص منه. والثانى الترقى فى تحديد الحرية الشخصية

فاما الضرر الاول فهو نتيجة عدم تبصرة الجماعات الانتخابية . فاذا قدم أحد الاعضاء طلباً لسد حاجة اجتماعية ديمقراطية ولو فى الظاهر كتقرير معاش لجميع العملة أو زيادة مرتبات بعض خدمة الريف والمعلمين وهكذا لا يسع الاعضاء الآخرين ان يرفضوه لخوفهم من الناخبين حتى لا يظهروا بمظهر من لا يهتم بمصالحهم ولو كانوا على يقين من أن الطلب يبهظ الميزانية ويفضى الى تقرير ضريبة جديدة . اذن يستحيل عليهم الرفض . اما نتائج الزيادة فى المصروفات فهى بعيدة ولا

تأثير لها في أشخاصهم الا قليلا بخلاف مالو رفضوا الطلب فان النتيجة تتجلى يوم يضطرون الوقوف امام الناخبين وما ذلك اليوم ببعد

وهناك سبب قوي آخر يستلزم زيادة المصروفات وهو الاضطرار لمنح المصروفات المحلية اذ لا يجرأ عضو في المجلس على رفض طلبها لكونها في منفعة الناخبين مباشرة . ولأنه لا يتمكن من نيل ما يريده لمركزه الا اذا أقر مايطلبه زملاؤه لمراكزهم (١)

---

(١) ذكرت جريدة (ايكونو ميست) في عددها الصادر بتاريخ ٦ ابريل سنة ١٨٩٥ بياناً غريباً للنفقات التي تتكلفها تلك المصالح المحلية في سنة واحدة وخصوصاً السكك الحديدية. فكان كما يأتي : الخط بين (لانجاى) وسكانها (٣٠٠٠) نسمه وهي منزوية في أحد الجبال و (بوى) خمسة عشر مليوناً . والخط بين (بومون) وسكانها (٣٥٠٠) نسمة و (كاستيل سازاران) سبعة ملايين . والخط بين (اوست) وسكانها (٥٢٣) نسمة و (سيكس) وسكانها (١٢٠٠) نسمة سبعة ملايين . والخط بين (براد) وكفرة (اوليت) وسكانها (٧٤٧) نسمة سبعة ملايين

وأما الضرر الثانى وهو التدرج فى تقييد الحرية الشخصية تدرجا قهريا كذلك فهو ضرر محقق وان كان اقل وضوحا من الاول . وهو نتيجة القوانين العديدة التى لا تدرك المجالس النيابية نتائجها تماماً لبساطة افكارها ولكونها تحسب انها مضطرة لتقنينها وليست القوانين الا قيوداً .

وهكذا . وبلغ مجموع كلفة السكك الحديدية التى تقرر انشاؤها فى سنة ١٨٩٥ وحدها ولم يكن لها منفعة عامة مطلقاً تسعين مليوناً وستبلغ مصروفات تنفيذ قانون معاشات العمال ١٦٥ مليون بحساب ناظر المالية أو ٨٠٠ مليون بحساب (لوروابوليو) عضو جمعية العلوم ولا يخفى ان استمرار زيادة المصروفات على هذا النحو يؤدى الى الافلاس . وقد وصل اليه كثير من الممالك فى اوروبا مثل البرتقال واليونان واسبانيا وتركيا ومنها ما اصبح قادما عليه مثل ايتاليا . الا انه لا داعى للاهتمام كثيراً بما ذكر لان الناس قبلوا نقص الفائدة التى تدفعها تلك البلاد على ديونها بمقدار اربعة الاخماس من دون امتعاض كبير . وهى تفاليس محكمة التدبير تسمح لاممها باصلاح ميزانياتها . على أن الحروب والاشتراكية والمزاحمات الاقتصادية تضمر لنا مصائب اشد وانكى . وقد دخلنا فى زمن التفكك والتحلل العام : فعلينا الرضا بالعيش يوما بيوم . وان لا نهتم بالغد لانه ليس في ملكنا

والظاهر انه لا مفر من هذا الخطر. لان انكلترا نفسها لم تمكن من اتقائه مع ان نظامها النيابى أكمل النظامات لان النائب الانكليزى اكبر النواب استقلالا امام ناخبيه وقد أشار (هربرت سبنسر) منذ زمن بعيد الى ان الزيادة الظاهرية فى الحرية الشخصية لا تلبث ان تتبع بنقص حقيقى فيها ثم عاد الى هذه النظرية فى كتابه الذى سماه (الفرد والحكومة) ومما قاله « جرى التشريع منذ ذلك الحين على النحو الذى أشرت اليه . فما اسرع ما كثرت اللوائح القسرية وكلها ترمى الى تحديد الحرية الشخصية . وذلك من طريقين . الاول ان كل سنة قد أربت على سابقتها فى كثرة اللوائح التى تلزم الافراد بواجبات كانوا احراراً منها . وتفرض عليهم اعمالا كانت مباحة ان شاؤا فعلوها وان شاؤا اهملوها . والثانى زيادة الضرائب العامة التى يجب على الافراد القيام بها وذلك يحرمهم من ثمرات كسبهم بقدر ما يزيد فى المال الموكول صرفه الى مشيئة الموظفين العموميين »

وهذا الترقى فى تحديد الحريات يظهر فى جميع البلاد بصورة واحدة لم يذكرها (هربرت سبنسر) وهى ان احداث تلك

القوانين المقيدة ينتج حتما زيادة عدد الموظفين المكلفين بتنفيذها ثم هو يقوى نفوذهم . ومآل اولئك الموظفين بهذه الطريقة صيرورتهم سادة البلاد المتمدنة الحقيقيين . لان طائفتهم هى التى لا ينالها أثر التقلبات المستمرة التى تطرأ على حكومة البلاد ولذلك كانت سيطرتها شديدة على قدر ثبوت قدمها فى الوظائف فهى الطائفة الوحيدة التى لا تبعة عليها من اعمالها ولا شخصية لاحد فى مجموعها وهى باقية على الدوام ومن المعلوم ان اشد صور الاستبداد هى التى اجتمعت فيها تلك الصفات الثلاث

ان الاستمرار على سن هذه القوانين واللوائح المقيدة لحرية الناس والتى تحيط بكل حركة من حركاتهم وان صغرت بسور من الاجراآت (البيزنطية) من شأنه ان يضيق دائرة العمل الذى لا قيد فيه لكن الأمم قد خدعت فى خيالها فحسبت ان الاكثار من القوانين توكيد لضمان الحرية والمساواة وصارت تقبل كل يوم قيداً ثقيلا

على انها لا مهرب لها من نتيجة هذا الرضا فان التعود على احتمال النير كل يوم يفضى بها الى تطلبه وفقدان ملكة الاقدام وقتل

العزيمة فتصبح حينئذ أثراً بعد عين والآلات تنفعل بحركة غيرها لا ارادة ولا صلابة ولا قوة

واذا فقد الانسان المقدمات فى نفسه اضطر الى طلبها فى غيره وكلما ازداد عدم اهتمام الافراد وضعفهم اشتدت سيطرة الحكومة وقويت شوكتها بالضرورة . هنالك تضطر الى ابدال اقدامهم على الاعمال باقدامها والقيام مقامهم فى الاخذ بيد المشروعات كلها والتداخل فى تنظيم سير الافراد دونهم لانهم اضاعوا ملكة ذلك كله — وتصبح الحكومة مكلفة بان تعمل كل شيء وتدبر كل شى وتحمى كل شيء فتصير الهاً قادراً . الا ان التجربة دلت على ان قدرة مثل هذا الاله لم تكن قوية ولم تدم الا قليلا

والظاهر ان الترقى فى تقييد الحريات عند بعض الامم التى تظن انها متمتعة بها لما هى فيه من الاطلاق الصورى ناشىء من هرمها كما ينشأ عن هرم أى نظام كان . وذلك نذير دور الانحطاط التى لم تنج منه مدنية حتى الآن

واذا قسنا الحاضر بالماضى ورجعنا الى العلامات التى تبدو من كل صوب حكمنا بان عدداً كبيراً من مدنياتنا الحاضرة

قد وصل الى اقصى حدود الهرم الذى هو طليعة الانحطاط والظاهر انه لابد لجميع الامم من عبور هذه السبيل لان التاريخ يروى لنا انه دور كثيراً ما تجدد

ولقد يسهل بيان الادوار التى تتقلب فيها المدنيات بقول موجز وهو الذى نريد ان نختم به هذا الكتاب فلعل فيه توضيحاً لاسباب قوة الجماعات

اذا سبرنا المدنيات التى سبقت مدنيتنا فى حالتيها الرقى والانحطاط فما الذى نعثر عليه

نعثر فى فجر هذه المدنيات على خليط من الناس مختلف الاجناس جمعتهم عفواً الهجرة والاغارات والفتوحات ولكونهم اختلفوا فى المحتد وتباينوا لغة وديناً لم يكن بينهم من الرابطة العمومية الا سلطة الرئيس على ضعف اعترافهم بها . وفى تلك المجامع المختلطة نشاهد صفات الجماعات بارقى صورها فلها منها الائتلاف الوقتى . والشجاعة والضعف . والاندفاع والقسوة . وعدم ثبات شيء من ذلك ان هم الاقوام متوحشون

ثم دار الزمان فادى وظيفته . وأخذت جامعة البيئة وتكرار

التناسل وحاجات المعيشة الاجتماعية تؤثر اثرها شيئاً فشيئاً وبدأت اجزاء المجموع المختلفة تمتزج بعضها ببعض وتكون شعباً أى تركيباً ذا صفات عامة ومشاعر متشابهة تمكنها الوراثة كل يوم هكذا صارت الجماعة أمة وآن لهذه الامة ان تخرج من دائرة الهمجية

على انها لا تخرج منها الا اذا تكون لها مقصد عام تشخص اليه . وذلك لا يتم الا بعد مجهودات طويلة . ومغالبات متجددة على الدوام . وبدايات يخطئها الحصر . وسواء كان المقصد العام الوهية روما او تعظيم اثينا او نصرة الله فهو يكفى لتوحيد افكار افراد الامة وهى فى دور التكوين

هنالك تتولد مدنية جديدة بما تقتضيه من النظامات والعقائد والفنون وينجر الشعب وراء مقصده. ويصل الى ما ينيله الابهة والجلال والقوة والاعظام . نعم تعرض له احوال يكون فيها جماعة الا انه يكون له خلف صفاتها المتقلبة ذلك الموجود القوى اعنى روح الشعب فهى التى تقيد تقلباته وتحددها وتضع للمصادفات نظاماً مسنونا ـ

فاذا اتم الزمان صنعه الايجادى يبدأ بصنعه الاعدامى الذى

لم ينتج منه عابد ولا معبود فتقف المدنية عند وصولها الى حد معين من الشوكة والتشعب ومتى وقفت اسرع اليها الانحطاط لا محالة فقد اقتربت الشيخوخة ودنت ساعة الاجل

علامة تلك الساعة التى لا مفر منها تكون دائماً ضعف اليقين بالمقصد الذى اتكأت عليه روح الشعب وكلما انزوى عود هذا الخيال اندكت صروح الدين والسياسة والاجتماع التى كانت تستمد منه حياتها

كلما انزوى خيال الشعب فقد هو علة امتزاجه . وداعى وحدته . وموجد قوته . وتمت شخصية الافراد . وعظم الذكاء فيهم غير ان ذلك يصطحب بحلول الاثرة الشخصية المفرطة محل الاثرة القومية. ووراءه انطماس الاخلاق. وضعف القدرة على العمل . ويصبح ذلك التركيب الذى كان يكون امة ـ اى وحدة وان شئت فقل كتلة ـ جمعاً مؤلفاً من افراد غير مؤتلفين . لا رابطه بينهم الا الجامعة الصناعية الآتية من التقاليد والنظامات ومتى وصل الناس الى هذه الحال من افتراق المنافع واختلاف النزعات وعدم الاهتداء الى طريقة يحكمون بها انفسهم جدوا فى طلب من يقودهم فى جميع

أعمالهم وان صغرت فتأتى الحكومة بسلطانها وتبتلع كل شىء
واذا تم فقدان الخيال تم فقدان روح الامة . فتعود خليطاً
من الناس كل يعمل على شاكلته . وترجع الى ما كانت عليه
فى بدايتها جماعة لها منها جميع الصفات الوقتية . فلا شعور .
ولا امل . هنالك تنعدم اساطين المدنية . وتمسى هدفا لحوادث
الاتفاق . وتصير العامة سلطانة فى الناس . وتبدو طلائع
المتوحشين . وقد يلوح على المدنية انها باقية فى بهائها الان محياها
لا يزال يضئ بما اكسبته الاجيال الطويلة من البهجة والرواء
ولكن الحقيقة انه بناء اكله السوس وفقد دعائمه واستعد
للسقوط بأى عاصفة

فمن همجية الى حضارة وراء مقصد فى الخيال . ومن
حضارة الى انزواء . فموت حين يضمحل الخيال . هذا مدار
حياة الامم.

تم

فهرست

صحيفة

زمن الجموع

في يد المهيجات الخارجية وهي تمثل تقلباتها المستمرة — البواعث التي تدفع الجماعة الى الفعل قوية جداً تمحي امامها المنفعة الخاصة — لا شيء من افعال الجماعة يصدر عن قصد وروية — تأثير الاخلاق القومية في الجماعة

(٢) قابلية الجماعة للتأثر وللتصديق — طاعة الجماعة للمؤثرات في انها تأخذ الخيالات التي تمثل لها حقائق ثابتة — علة اجماع افراد الجماعة على النظر الى تلك الخيالات بكيفية واحدة في التساوى بين العالم والبليد في الجماعة — بعض أمثلة للخيالات التي يتأثر بها افراد الجماعة كلهم — في استحالة الاعتقاد بصحة قول الجماعة — في ان اتفاق العدد العديد من الشهادات من اردأ الأدلة على اثبات أمر معين — ضعف قيمة الكتب التاريخية

(٣) في غلو مشاعر الجماعة وبساطتها — الجماعة لا تعرف الشك ولا التردد وتذهب دائما الى التطرف — في ان مشاعر الجماعة زائدة على الحد دائما

(٤) في ان الجماعة قليلة المسالمة ميالة الى التسلط والامرة والمحافظة على القديم — في علة تلك الصفات — في خنوع الجماعة أمام السلطة القوية — في ان نزوع الجماعة الى الثورة وقتاً من الاوقات لا يمنع من كونها محافظة للغاية — في ان مشاعر الجماعة تضاد التقلبات والترقى

(٥) في اخلاق الجماعة — قد تكون اخلاق الجماعة احط كثيراً من أخلاق افرادها وقد تكون ارقى منها كثيراً تبعاً للمؤثرات التي تتأثر بها — علة ذلك وأمثاته — قلما تكون المنفعة باعث العمل عند الجماعة مع انها هي الداعي الوحيد للفرد في عمله — شأن الجماعة في تهذيب الاخلاق

الباب الثانى

أفكار الجماعات ومعتقداتها

الفصل الاول

العوامل البعيدة فى معتقدات الجماعات وأفكارها

صفحة　　الفصل الثانى

السحرية — في ان قوة الالفاظ مرتبطة بالصور التي تحدثها في الخيال وغير متعلقة بمعناها الحقيقي — في ان تلك الصور تختلف باختلاف الازمان والامم — كثرة الالفاظ — امثلة على كثرة اختلاف معاني بعض الالفاظ المستعملة — الفائدة السياسية من اطلاق اسماء جديدة لمسميات قديمة متى صارت اسماؤها الاولى تحدث تأثيراً سيئاً في نفوس الجماعات ـ اختلاف معاني الالفاظ الواحدة باختلاف الامم ـ اختلاف معنى ديموقراطية في اوروبا وفي امريكا

(٢) في الاوهام — في اهمية الاوهام — في ان الاوهام موجودة في اساس كل مدنية — ضرورة الاوهام في الاجتماع — في ان الجماعات تفضل الوهم على الحقيقة

(٣) التجارب — يجوز ان تولد التجارب وحدها في نفوس الجماعات حقائق لازمة وتهدم اوهاما ضارة — انما تؤثر التجارب اذا كثرت — ما تقتضيه التجارب اللازمة لاقناع الجماعات

(٤) العقل — عدم تأثيره في الجماعات — في إنه لا يمكن التأثير في الجماعات الا من طريق مشاعرها الغريزية — شأن المنطق في التاريخ — في الاسباب الخفية للحوادث الخارجة عن المعقول

صفحة

الفصل الرابع

١٧٩ حدود تقلب معتقدات الجماعات وأفكارها

(١) فى المعتقدات الثابتة - فى عدم تقلب بعض المعتقدات العامة — فى ان هذه المعتقدات هى التى تهتدى بها المدنية - فى صعوبة ازالتها — فى ان التعصب أحد فضائل الامم من بعض الوجوه - فى ان بطلان معتقد عقلا لا يؤثر فى انتشاره ورسوخه

(٢) فيما للجماعات من الافكار غير الثابتة - فى ان الافكار التى لا ترجع الى المعتقدات العامة كثيرة التغير - فى ان تغيير المعتقدات والافكار يظهر فى أقل من قرن واحد - فى حدود هذا التغير الحقيقية - فيما يكون فيه التغير - فى ان زوال المعتقدات العامة فى العصر الحاضر وشدة انتشار المطبوعات ممـا يزيد فى كثرة تغير الافكار — فى ان افكار الجماعات تميل الى عدم الاهتمام بكثير من الاحوال — فى ضعف الحكومات عن قيادة الافكار كما فى الزمن السابق — فى ان تشعب الافكار فى الزمن الحاضر يمنع من تسلطها تسلط القاهر المستبد

—

صفحة الفصل الثالث

صفحة الفصل الرابع

—

صفحة الفصل الخامس

تم الكتاب

﴿ تصحيح خطأ ﴾

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢٥	١٤	تقيم	تقسيم
٢٨	١٧	ولكن	ولكى
٣٢	١٢	قابليته	قابلية
٣٥	٨	وحصدوا	وحصد
٤٢	٨	حال	حائل
٤٣	١٦	بها	بهن
٥٦	٢	يعبده	تعبده
٦٤	١٦	اذ	اذا
٦٨	١٢	مرزولة	مرذولة
٨٦	١٣	لأوامره	لاوامرها
٨٦	١٣	تعاليمه	تعاليمها
٨٩	٢	لقسس	لقسوس
٩٦	٤	التربية	التربة
٩٨	١	مدينته	مدنيته

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٠٣	١٥	التربية	التربة
١٠٧	١٥	بداء	بدأ
١١٢	١٤	بتعليمها	بتعلمها
١١٥	١٧	يختار	يختارون
١١٨	١٧	الشباب	الشاب
١٢٠	١	يقدروا	يقدرون
١٣٤	١٧	أطل	أطيل
١٤٦	١١	اللذات	الذات
١٥٢	٥	يجددون	يحددون
١٥٣	١٦	تفسهم	انفسهم
١٧٢	١٧	السلف	الخلف
١٧٣	١	الخلف	السلف
١٧٣	١	تره	تراه
١٧٤	٢	ابلغ	بلغ
٢٠٢	٧	ذكرنا	ذكرناه
٢١٠	١٥	المهتمين	المتهمين
٢١٧	١٦	التى جاء بها	الذى جاء به
٢١٩	٨	بشعرمنه الانحراف	يشعرمنه بالانحراف
٢٣٥	٧	طبتاً	طبعاً

المشروع القومى للترجمة

المشـــروع القومـــى للترجمـــة مشـــروع تنميـــة ثقـافيـــة بالدرجـــة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنبًا إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

-١	اللغة العليا	جون كوين	أحمد درويش
-٢	الوثنية والإسلام (ط١)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
-٣	التراث المسروق	جورج جيمس	شوقى جلال
-٤	كيف تتم كتابة السيناريو	إنجا كاريتنيكوفا	أحمد الحضرى
-٥	ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
-٦	اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	سعد مصلوح ووفاء كامل فايد
-٧	العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	يوسف الأنطكى
-٨	مشعلو الحرائق	ماكس فريش	مصطفى ماهر
-٩	التغيرات البيئية	أندرو. س. جودى	محمود محمد عاشور
-١٠	خطاب الحكاية	جيرار جينيت	محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
-١١	مختارات شعرية	فيسوافا شيمبوريسكا	هناء عبد الفتاح
-١٢	طريق الحرير	ديفيد براونيستون وأيرين فرانك	أحمد محمود
-١٣	ديانة الساميين	روبرتسن سميث	عبد الوهاب علوب
-١٤	التحليل النفسى للأدب	جان بيلمان نويل	حسن المودن
-١٥	الحركات الفنية منذ ١٩٤٥	إدوارد لوسى سميث	أشرف رفيق عفيفى
-١٦	أثينة السوداء (جـ١)	مارتن برنال	بإشراف: أحمد عتمان
-١٧	مختارات شعرية	فيليب لاركين	محمد مصطفى بدوى
-١٨	الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	طلعت شاهين
-١٩	الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	نعيم عطية
-٢٠	قصة العلم	ج. ج. كراوثر	يمنى طريف الخولى و بدوى عبد الفتاح
-٢١	خوخة وألف خوخة وقصص أخرى	صمد بهرنجى	ماجدة العنانى
-٢٢	مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	سيد أحمد على الناصرى
-٢٣	تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	سعيد توفيق
-٢٤	ظلال المستقبل	باتريك بارندر	بكر عباس
-٢٥	مثنوى (٦ أجزاء)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
-٢٦	دين مصر العام	محمد حسين هيكل	أحمد محمد حسين هيكل
-٢٧	التنوع البشرى الخلاق	مجموعة من المؤلفين	بإشراف: جابر عصفور
-٢٨	رسالة فى التسامح	جون لوك	منى أبو سنة
-٢٩	الموت والوجود	جيمس ب. كارس	بدر الديب
-٣٠	الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
-٣١	مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	عبد الستار الحلوجى وعبد الوهاب علوب
-٣٢	الانقراض	ديفيد روب	مصطفى إبراهيم فهمى
-٣٣	التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	أحمد فؤاد بلبع
-٣٤	الرواية العربية	روجر آلن	حصة إبراهيم المنيف
-٣٥	الأسطورة والحداثة	بول ب . ديكسون	خليل كلفت
-٣٦	نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	حياة جاسم محمد

٣٧-	واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	جمال عبد الرحيم
٣٨-	نقد الحداثة	ألن تورين	أنور مغيث
٣٩-	الحسد والإغريق	بيتر والكوت	منيرة كروان
٤٠-	قصائد حب	آن سكستون	محمد عيد إبراهيم
٤١-	ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	عاطف أحمد وإبراهيم فتحى ومحمود ماجد
٤٢-	عالم ماك	بنجامين باربر	أحمد محمود
٤٣-	اللهب المزدوج	أوكتافيو پاث	المهدى أخريف
٤٤-	بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	مارلين تادرس
٤٥-	التراث المغدور	روبرت دينا وجون فاين	أحمد محمود
٤٦-	عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	محمود السيد على
٤٧-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ١)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨-	حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ماهر جويجاتى
٤٩-	الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	عبد الوهاب علوب
٥٠-	ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١-	مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م. بينياليستى	محمد أبو العطا
٥٢-	العلاج النفسى التدعيمى	ب. نوفاليس وس . روجسيفيتز وروجر بيل	لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣-	الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	مرسى سعد الدين
٥٤-	المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	محسن مصيلحى
٥٥-	ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	على يوسف على
٥٦-	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ١)	فديريكو غرسية لوركا	محمود على مكى
٥٧-	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ٢)	فديريكو غرسية لوركا	محمود السيد و ماهر البطوطى
٥٨-	مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	محمد أبو العطا
٥٩-	المحبرة (مسرحية)	كارلوس مونييث	السيد السيد سهيم
٦٠-	التصميم والشكل	چوهانز إيتين	صبرى محمد عبد الغنى
٦١-	موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور – سميث	بإشراف : محمد الجوهرى
٦٢-	لذّة النّص	رولان بارت	محمد خير البقاعى
٦٣-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤-	برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	رمسيس عوض
٦٥-	فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	رمسيس عوض
٦٦-	خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧-	مختارات شعرية	فرناندو بيسوا	المهدى أخريف
٦٨-	نتاشا العجوز وقصص أخرى	ڤالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
٦٩-	العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠-	ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١-	السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	حسين محمود
٧٢-	السياسى العجوز	ت . س . إليوت	فؤاد مجلى
٧٣-	نقد استجابة القارئ	چين ب . تومبكنز	حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤-	صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوڤا	حسن بيومى

٧٥-	فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	أحمد درويش
٧٦-	جاك لاكان وإغواء التحليل النفسي	مجموعة من المؤلفين	عبد المقصود عبد الكريم
٧٧-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨-	العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	أحمد محمود ونورا أمين
٧٩-	شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكي	سعيد الغانمي وناصر حلاوي
٨٠-	بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	مكارم الغمري
٨١-	الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	محمد طارق الشرقاوي
٨٢-	مسرح ميجيل	ميجيل دي أونامونو	محمود السيد علي
٨٣-	مختارات شعرية	غوتفريد بن	خالد المعالي
٨٤-	موسوعة الأدب والنقد (جـ١)	مجموعة من المؤلفين	عبد الحميد شيحة
٨٥-	منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكي أقطاي	عبد الرازق بركات
٨٦-	طول الليل (رواية)	جمال مير صادقي	أحمد فتحي يوسف شتا
٨٧-	نون والقلم (رواية)	جلال آل أحمد	ماجدة العناني
٨٨-	الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	إبراهيم الدسوقي شتا
٨٩-	الطريق الثالث	أنتوني جيدنز	أحمد زايد ومحمد محيي الدين
٩٠-	وسم السيف وقصص أخرى	بورخيس وآخرون	محمد إبراهيم مبروك
٩١-	المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربرا لاسوتسكا - بشونباك	محمد هناء عبد الفتاح
٩٢-	أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكي المعاصر	كارلوس ميجيل	نادية جمال الدين
٩٣-	محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	عبد الوهاب علوب
٩٤-	مسرحيتا الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	فوزية العشماوي
٩٥-	مختارات من المسرح الإسباني	أنطونيو بويرو باييخو	سرى محمد عبد اللطيف
٩٦-	ثلاث زنبقات ووردة وقصص أخرى	نخبة	إدوار الخراط
٩٧-	هوية فرنسا (مج١)	فرنان برودل	بشير السباعي
٩٨-	الهم الإنساني والابتزاز الصهيوني	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٩٩-	تاريخ السينما العالمية (١٨٩٥-١٩٨٠)	ديفيد روبنسون	إبراهيم قنديل
١٠٠-	مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	إبراهيم فتحي
١٠١-	النص الروائي: تقنيات ومناهج	بيرنار فاليط	رشيد بنحدو
١٠٢-	السياسة والتسامح	عبد الكبير الخطيبي	عز الدين الكتاني الإدريسي
١٠٣-	قبر ابن عربي يليه آياء (شعر)	عبد الوهاب المؤدب	محمد بنيس
١٠٤-	أوبرا ماهوجني (مسرحية)	برتولت بريشت	عبد الغفار مكاوي
١٠٥-	مدخل إلى النص الجامع	جيرار جينيت	عبد العزيز شبيل
١٠٦-	الأدب الأندلسي	ماريا خيسوس روبييرامتي	أشرف علي دعدور
١٠٧-	صورة الفدائي في الشعر الأمريكي اللاتيني المعاصر	نخبة من الشعراء	محمد عبد الله الجعيدي
١٠٨-	ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي	مجموعة من المؤلفين	محمود علي مكي
١٠٩-	حروب المياه	جون بولوك وعادل درويش	هاشم أحمد محمد
١١٠-	النساء في العالم النامي	حسنة بيجوم	منى قطان
١١١-	المرأة والجريمة	فرانسس هيدسون	ريهام حسين إبراهيم
١١٢-	الاحتجاج الهادئ	أرلين علوي ماكليود	إكرام يوسف

١١٣- راية التمرد	سادي بلانت	أحمد حسان
١١٤- مسرحيتا حصاد كونجي وسكان المستنقع	وول شوينكا	نسيم مجلي
١١٥- غرفة تخص المرء وحده	فرجينيا وولف	سمية رمضان
١١٦- امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	نهاد أحمد سالم
١١٧- المرأة والجنوسة في الإسلام	ليلى أحمد	منى إبراهيم وهالة كمال
١١٨- النهضة النسائية في مصر	بث بارون	لميس النقاش
١١٩- النساء والأسرة وقوانين الطلاق في التاريخ الإسلامي	أميرة الأزهري سنبل	بإشراف: روف عباس
١٢٠- الحركة النسائية والتطور في الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	مجموعة من المترجمين
١٢١- الدليل الصغير في كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	محمد الجندي وإيزابيل كمال
١٢٢- نظام العبودية القديم والنموذج المثالي للإنسان	جوزيف فوجت	منيرة كروان
١٢٣- الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	أنينل ألكسندرو فنادولينا	أنور محمد إبراهيم
١٢٤- الفجر الكاذب: أوهام الرأسمالية العالمية	جون جراي	أحمد فؤاد بلبع
١٢٥- التحليل الموسيقي	سيدرك ثورپ ديڤي	سمحة الخولي
١٢٦- فعل القراءة	ڤولفانج إيسر	عبد الوهاب علوب
١٢٧- إرهاب (مسرحية)	صفاء فتحي	بشير السباعي
١٢٨- الأدب المقارن	سوزان باسنيت	أميرة حسن نويرة
١٢٩- الرواية الإسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠- الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	شوقي جلال
١٣١- مصر القديمة: التاريخ الاجتماعي	مجموعة من المؤلفين	لويس بقطر
١٣٢- ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	عبد الوهاب علوب
١٣٣- الخوف من المرايا (رواية)	طارق علي	طلعت الشايب
١٣٤- تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	أحمد محمود
١٣٥- المختار من نقد ت. س. إليوت	ت. س. إليوت	ماهر شفيق فريد
١٣٦- فلاحو الباشا	كينيث كونو	سحر توفيق
١٣٧- مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية على مصر	جوزيف ماري مواريه	كاميليا صبحي
١٣٨- عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	أندريه جلوكسمان	وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩- پارسيفال (مسرحية)	ريتشارد ڤاجنر	مصطفى ماهر
١٤٠- حيث تلتقي الأنهار	هربرت ميسن	أمل الجبوري
١٤١- اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	نعيم عطية
١٤٢- الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	حسن بيومي
١٤٣- قضايا التنظير في البحث الاجتماعي	ديرك لايدر	عدلي السمري
١٤٤- صاحبة اللوكاندة (مسرحية)	كارلو جولدوني	سلامة محمد سليمان
١٤٥- موت أرتيميو كروث (رواية)	كارلوس فوينتس	أحمد حسان
١٤٦- الورقة الحمراء (رواية)	ميجيل دي ليبس	علي عبدالروف البمبي
١٤٧- مسرحيتان	تانكريد دورست	عبدالغفار مكاوي
١٤٨- القصة القصيرة: النظرية والتقنية	إنريكي أندرسون إمبرت	علي إبراهيم منوفي
١٤٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	أسامة إسبر
١٥٠- التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	منيرة كروان

١٥١- هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ١)	فرنان بروديل	بشير السباعى
١٥٢- عدالة الهنود وقصص أخرى	مجموعة من المؤلفين	محمد محمد الخطابى
١٥٣- غرام الفراعنة	فيولين فانويك	فاطمة عبدالله محمود
١٥٤- مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	خليل كلفت
١٥٥- الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	أحمد مرسى
١٥٦- المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو	مى التلمسانى
١٥٧- خسرو وشيرين	النظامى الكنجوى	عبدالعزيز بقوش
١٥٨- هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ٢)	فرنان بروديل	بشير السباعى
١٥٩- الأيديولوجية	ديفيد هوكس	إبراهيم فتحى
١٦٠- آلة الطبيعة	بول إيرليش	حسين بيومى
١٦١- مسرحيتان من المسرح الإسبانى	أليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢- تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسيوى	صلاح عبدالعزيز محجوب
١٦٣- موسوعة علم الاجتماع (جـ ١)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
١٦٤- شامبوليون (حياة من نور)	جان لاكوتير	نبيل سعد
١٦٥- حكايات الثعلب (قصص أطفال)	أ. ن. أفاناسيفا	سهير المصادفة
١٦٦- العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليفمان	محمد محمود أبوغدير
١٦٧- فى عالم طاغور	رابندرنات طاغور	شكرى محمد عياد
١٦٨- دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٦٩- إبداعات أدبية	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٧٠- الطريق (رواية)	ميجيل دليبيس	بسام ياسين رشيد
١٧١- وضع حد (رواية)	فرانك بيجو	هدى حسين
١٧٢- حجر الشمس (شعر)	نخبة	محمد محمد الخطابى
١٧٣- معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤- صناعة الثقافة السوداء	إيليس كاشمور	أحمد محمود
١٧٥- التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦- نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	جلال البنا
١٧٧- أنطون تشيخوف	هنرى تروايا	حصة إبراهيم المنيف
١٧٨- مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	محمد حمدى إبراهيم
١٧٩- حكايات أيسوب (قصص أطفال)	أيسوب	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠- قصة جاويد (رواية)	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
١٨١- النقد الأدبى الأمريكى من الثلاثينيات إلى الثمانينيات	فنسنت ب. ليتش	محمد يحيى
١٨٢- العنف والنبوءة (شعر)	و.ب. ييتس	ياسين طه حافظ
١٨٣- جان كوكتو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	فتحى العشرى
١٨٤- القاهرة: حالمة لا تنام	هانز إبندورفر	دسوقى سعيد
١٨٥- أسفار العهد القديم فى التاريخ	توماس تومسن	عبد الوهاب علوب
١٨٦- معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل إنوود	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧- الأرضة (رواية)	بُزرج علوى	محمد علاء الدين منصور
١٨٨- موت الأدب	ألفين كرنان	بدر الديب

١٨٩- العمى والبصيرة مقالات فى بلاغة النقد المعاصر	بول دى مان	سعيد الغانمى
١٩٠- محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	محسن سيد فرجانى
١٩١- الكلام رأسمال وقصص أخرى	الحاج أبو بكر إمام وآخرون	مصطفى حجازى السيد
١٩٢- سياحت نامه إبراهيم بك (جـ١)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
١٩٣- عامل المنجم (رواية)	بيتر أبراهامز	محمد عبد الواحد محمد
١٩٤- مختارات من النقد الأنجلو-أمريكى الحديث	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
١٩٥- شتاء ٨٤ (رواية)	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
١٩٦- المهلة الأخيرة (رواية)	ڤالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
١٩٧- سيرة الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	جلال السعيد الحفناوى
١٩٨- الاتصال الجماهيرى	إدوين إمرى وآخرون	إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩- تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداو	جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠- ضحايا التنمية: المقاومة والبدائل	جيرمى سيبروك	فخرى لبيب
٢٠١- الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٢٠٢- تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٤)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣- الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤- تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	أحمد هويدى
٢٠٥- الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى- سفورزا	أحمد مستجير
٢٠٦- الهيولية تصنع علماً جديداً	جيمس جلايك	على يوسف على
٢٠٧- ليل أفريقى (رواية)	رامون خوتاسندير	محمد أبو العطا
٢٠٨- شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	محمد أحمد صالح
٢٠٩- السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٠- مثنويات حكيم سنائى (شعر)	سنائى الغزنوى	يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١- فردينان دوسوسير	جوناثان كللر	محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢- قصص الأمير مرزبان على لسان الحيوان	مرزبان بن رستم بن شروين	يوسف عبدالفتاح فرج
٢١٣- مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبدالناصر	ريمون فلاور	سيد أحمد على الناصرى
٢١٤- قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	محمد محيى الدين
٢١٥- سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٢)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
٢١٦- جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٧- مسرحيتان طليعيتان	صمويل بيكيت وهارولد بينتر	نادية البنهاوى
٢١٨- لعبة الحجلة (رواية)	خوليو كورتاثان	على إبراهيم منوفى
٢١٩- بقايا اليوم (رواية)	كازو إيشجورو	طلعت الشايب
٢٢٠- الهيولية فى الكون	بارى پاركر	على يوسف على
٢٢١- شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	رفعت سلام
٢٢٢- فرانز كافكا	رونالد جراى	نسيم مجلى
٢٢٣- العلم فى مجتمع حر	پاول فيرابند	السيد محمد نفادى
٢٢٤- دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	منى عبدالظاهر إبراهيم
٢٢٥- حكاية غريق (رواية)	جابرييل جارثيا ماركيث	السيد عبدالظاهر السيد
٢٢٦- أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	طاهر محمد على البربرى

٢٢٧-	المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	خوسيه ماريا ديث بوركى	السيد عبدالظاهر عبدالله
٢٢٨-	علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	مارى تيريز عبدالمسيح وخالد حسن
٢٢٩-	مأزق البطل الوحيد	نورمان كيجان	أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠-	عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١-	الدرافيل أو الجيل الجديد (مسرحية)	خايمى سالوم بيدال	جمال عبدالرحمن
٢٣٢-	ما بعد المعلومات	توم ستونير	مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣-	فكرة الاضمحلال فى التاريخ الغربى	أرثر هيرمان	طلعت الشايب
٢٣٤-	الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	فؤاد محمد عكود
٢٣٥-	ديوان شمس تبريزى (جـ١)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦-	الولاية	ميشيل شودكيفيتش	أحمد الطيب
٢٣٧-	مصر أرض الوادى	روبين فيدين	عنايات حسين طلعت
٢٣٨-	العولمة والتحرير	تقرير لمنظمة الأنكتاد	ياسر محمد جادالله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩-	العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلا رامراز - رايوخ	نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠-	الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كاى حافظ	صلاح محجوب إدريس
٢٤١-	فى انتظار البرابرة (رواية)	ج . م. كوتزى	ابتسام عبدالله
٢٤٢-	سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	صبرى محمد حسن
٢٤٣-	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج١)	ليفى بروفنسال	بإشراف: صلاح فضل
٢٤٤-	الغليان (رواية)	لاورا إسكيبيل	نادية جمال الدين محمد
٢٤٥-	نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس وأخرون	توفيق على منصور
٢٤٦-	مختارات قصصية	جابرييل جارثيا ماركيث	على إبراهيم منوفى
٢٤٧-	الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	والتر أرمبرست	محمد طارق الشرقاوى
٢٤٨-	حقول عدن الخضراء (مسرحية)	أنطونيو جالا	عبداللطيف عبدالحليم
٢٤٩-	لغة التمزق (شعر)	دراجو شتامبوك	رفعت سلام
٢٥٠-	علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ماجدة محسن أباظة
٢٥١-	موسوعة علم الاجتماع (جـ٢)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
٢٥٢-	رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	على بدران
٢٥٣-	تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيميونوفا	حسن بيومى
٢٥٤-	أقدم لك: الفلسفة	ديف روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥-	أقدم لك: أفلاطون	ديف روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٦-	أقدم لك: ديكارت	ديف روبنسون وكريس جارات	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧-	تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	محمود سيد أحمد
٢٥٨-	الغجر	سير أنجوس فريزر	عُبادة كُحيلة
٢٥٩-	مختارات من الشعر الأرمنى عبر العصور	نخبة	فاروجان كازانجيان
٢٦٠-	موسوعة علم الاجتماع (جـ٣)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
٢٦١-	رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢-	مدينة المعجزات (رواية)	إدواردو مندوثا	محمد أبو العطا
٢٦٣-	الكشف عن حافة الزمن	جون جريبين	على يوسف على
٢٦٤-	إبداعات شعرية مترجمة	هوراس وشلى	لويس عوض

٢٦٥- روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصمويل جونسون	لويس عوض
٢٦٦- مدير المدرسة (رواية)	جلال آل أحمد	عادل عبدالمنعم على
٢٦٧- فن الرواية	ميلان كونديرا	بدر الدين عرودكى
٢٦٨- ديوان شمس تبريزى (جـ٢)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩- وسط الجزيرة العربية وشرقها (جـ١)	وليم جيفور بالجريف	صبرى محمد حسن
٢٧٠- وسط الجزير العربية وشرقها (جـ٢)	وليم جيفور بالجريف	صبرى محمد حسن
٢٧١- الحضارة الغربية: الفكرة والتاريخ	توماس سى. باترسون	شوقى جلال
٢٧٢- الأديرة الأثرية فى مصر	سى. سى. والترز	إبراهيم سلامة إبراهيم
٢٧٣- الأصول الاجتماعية والثقافية لحركة عرابى فى مصر	جوان كول	عنان الشهاوى
٢٧٤- السيدة باربارا (رواية)	رومولو جاييجوس	محمود على مكى
٢٧٥- ت. س. إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
٢٧٦- فنون السينما	مجموعة من المؤلفين	عبدالقادر التلمسانى
٢٧٧- الجينات والصراع من أجل الحياة	براين فورد	أحمد فوزى
٢٧٨- البدايات	إسحاق عظيموف	ظريف عبدالله
٢٧٩- الحرب الباردة الثقافية	ف.س. سوندرز	طلعت الشايب
٢٨٠- الأم والنصيب وقصص أخرى	بريم شند وآخرون	سمير عبدالحميد إبراهيم
٢٨١- الفردوس الأعلى (رواية)	عبد الحليم شرر	جلال الحفناوى
٢٨٢- طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس وولبرت	سمير حنا صادق
٢٨٣- السهل يحترق وقصص أخرى	خوان رولفو	على عبد الروف اليمبى
٢٨٤- هرقل مجنوناً (مسرحية)	يوريبيديس	أحمد عتمان
٢٨٥- رحلة خواجة حسن نظامى الدهلوى	حسن نظامى الدهلوى	سمير عبد الحميد إبراهيم
٢٨٦- سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٢)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
٢٨٧- الثقافة والعولمة والنظام العالمى	أنتونى كنج	محمد يحيى وآخرون
٢٨٨- الفن الروائى	ديفيد لودج	ماهر البطوطى
٢٨٩- ديوان منوچهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	محمد نور الدين عبدالمنعم
٢٩٠- علم اللغة والترجمة	چورج مونان	أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١- تاريخ المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ١)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٢- تاريخ المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ٢)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٣- مقدمة للأدب العربى	روچر ألن	مجدى توفيق وآخرون
٢٩٤- فن الشعر	بوالو	رجاء ياقوت
٢٩٥- سلطان الأسطورة	چوزيف كامبل وبيل مويرز	بدر الديب
٢٩٦- مكبث (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٢٩٧- فن النحو بين اليونانية والسريانية	ديونيسيوس ثراكس ويوسف الأهوازى	ماجدة محمد أنور
٢٩٨- مأساة العبيد وقصص أخرى	نخبة	مصطفى حجازى السيد
٢٩٩- ثورة فى التكنولوجيا الحيوية	چين ماركس	هاشم أحمد محمد
٣٠٠- أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج١)	لويس عوض	جمال الجزيرى وبهاء چاهين وإيزابيل كمال
٣٠١- أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج٢)	لويس عوض	جمال الجزيرى و محمد الجندى
٣٠٢- أقدم لك: فتجنشتين	چون هيتون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام

٣٠٣-	أقدم لك: بوذا	جين هوب وبورن فان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤-	أقدم لك: ماركس	ريوس	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥-	الجلد (رواية)	كروزيو مالابارته	صلاح عبد الصبور
٣٠٦-	الحماسة: النقد الكانطي للتاريخ	جان فرانسوا ليوتار	نبيل سعد
٣٠٧-	أقدم لك: الشعور	ديفيد بابينو وهوارد سلينا	محمود مكي
٣٠٨-	أقدم لك: علم الوراثة	ستيف جونز وبورين فان لو	ممدوح عبد المنعم
٣٠٩-	أقدم لك: الذهن والمخ	أنجوس جيلاتي وأوسكار زاريت	جمال الجزيري
٣١٠-	أقدم لك: يونج	ماجي هايد ومايكل ماكجنس	محيي الدين مزيد
٣١١-	مقال في المنهج الفلسفي	ر.ج كولنجوود	فاطمة إسماعيل
٣١٢-	روح الشعب الأسود	وليم ديبويس	أسعد حليم
٣١٣-	أمثال فلسطينية (شعر)	خايير بيان	محمد عبدالله الجعيدي
٣١٤-	مارسيل دوشامب: الفن كعدم	جانيس مينيك	هويدا السباعي
٣١٥-	جرامشي في العالم العربي	ميشيل بروندينو والطاهر لبيب	كاميليا صبحي
٣١٦-	محاكمة سقراط	أي. ف. ستون	نسيم مجلي
٣١٧-	بلا غد	س. شير لايموفا- س. زنيكين	أشرف الصباغ
٣١٨-	الأدب الروسي في السنوات العشر الأخيرة	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٣١٩-	صور دريدا	جايترى سبيفاك وكرستوفر نوريس	حسام نايل
٣٢٠-	لمعة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	محمد علاء الدين منصور
٣٢١-	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ١)	ليفي برو فنسال	بإشراف: صلاح فضل
٣٢٢-	وجهات نظر حديثة في تاريخ الفن الغربي	دبليو بوجين كلينباور	خالد مفلح حمزة
٣٢٣-	فن الساتورا	تراث يوناني قديم	هانم محمد فوزي
٣٢٤-	اللعب بالنار (رواية)	أشرف أسدي	محمود علاوي
٣٢٥-	عالم الآثار (رواية)	فيليب بوسان	كرستين يوسف
٣٢٦-	المعرفة والمصلحة	يورجين هابرماس	حسن صقر
٣٢٧-	مختارات شعرية مترجمة (جـ١)	نخبة	توفيق على منصور
٣٢٨-	يوسف وزليخا (شعر)	نور الدين عبد الرحمن الجامي	عبد العزيز بقوش
٣٢٩-	رسائل عيد الميلاد (شعر)	تد هيوز	محمد عيد إبراهيم
٣٣٠-	كل شيء عن التمثيل الصامت	مارفن شبرد	سامي صلاح
٣٣١-	عندما جاء السردين وقصص أخرى	ستيفن جراي	سامية دياب
٣٣٢-	شهر العسل وقصص أخرى	نخبة	على إبراهيم منوفي
٣٣٣-	الإسلام في بريطانيا من ١٥٥٨-١٦٨٥	نبيل مطر	بكر عباس
٣٣٤-	لقطات من المستقبل	أرثر كلارك	مصطفى إبراهيم فهمي
٣٣٥-	عصر الشك: دراسات عن الرواية	ناتالي ساروت	فتحي العشري
٣٣٦-	متون الأهرام	نصوص مصرية قديمة	حسن صابر
٣٣٧-	فلسفة الولاء	چوزايا رويس	أحمد الأنصاري
٣٣٨-	نظرات حائرة وقصص أخرى	نخبة	جلال الحفناوي
٣٣٩-	تاريخ الأدب في إيران (جـ٣)	إدوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٣٤٠-	اضطراب في الشرق الأوسط	بيرش بيربروجلو	فخري لبيب

٢٤١-	قصائد من رلكه (شعر)	راينر ماريا ريلكه	حسن حلمى
٢٤٢-	سلامان وأبسال (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامى	عبد العزيز بقوش
٢٤٣-	العالم البرجوازى الزائل (رواية)	نادين جورديمر	سمير عبد ربه
٢٤٤-	الموت فى الشمس (رواية)	بيتر بالانجيو	سمير عبد ربه
٢٤٥-	الركض خلف الزمان (شعر)	يونه ندائى	يوسف عبد الفتاح فرج
٢٤٦-	سحر مصر	رشاد رشدى	جمال الجزيرى
٢٤٧-	الصبية الطائشون (رواية)	جان كوكتو	بكر الحلو
٢٤٨-	المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ١)	محمد فؤاد كوبريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٢٤٩-	دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	أرثر والدهورن وآخرون	أحمد عمر شاهين
٢٥٠-	بانوراما الحياة السياحية	مجموعة من المؤلفين	عطية شحاتة
٢٥١-	مبادئ المنطق	جوزايا رويس	أحمد الانصارى
٢٥٢-	قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	نعيم عطية
٢٥٣-	الفن الإسلامى فى الأندلس: الزخرفة الهندسية	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٢٥٤-	الفن الإسلامى فى الأندلس: الزخرفة النباتية	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٢٥٥-	التيارات السياسية فى إيران المعاصرة	حجت مرتجى	محمود علاوى
٢٥٦-	الميراث المر	بول سالم	بدر الرفاعى
٢٥٧-	متون هرمس	تيموثى فريك وبيتر غاندى	عمر الفاروق عمر
٢٥٨-	أمثال الهوسا العامية	نخبة	مصطفى حجازى السيد
٢٥٩-	محاورة بارمنيدس	أفلاطون	حبيب الشاروني
٢٦٠-	أنثروبولوجيا اللغة	أندريه جاكوب ونويلا باركان	ليلى الشربيني
٢٦١-	التصحر: التهديد والمجابهة	آلان جرينجر	عاطف معتمد وآمال شاور
٢٦٢-	تلميذ بابنبرج (رواية)	هاينرش شبورل	سيد أحمد فتح الله
٢٦٣-	حركات التحرير الأفريقية	ريتشارد جيبسون	صبرى محمد حسن
٢٦٤-	حداثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	نجلاء أبو عجاج
٢٦٥-	سأم باريس (شعر)	شارل بودلير	محمد أحمد حمد
٢٦٦-	نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	مصطفى محمود محمد
٢٦٧-	القلم الجرىء	مجموعة من المؤلفين	البرّاق عبدالهادى رضا
٢٦٨-	المصطلح السردى: معجم مصطلحات	جيرالد برنس	عابد خزندار
٢٦٩-	المرأة فى أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	فوزية العشماوى
٢٧٠-	الفن والحياة فى مصر الفرعونية	كليرلا لويت	فاطمة عبدالله محمود
٢٧١-	المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ٢)	محمد فؤاد كوبريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٢٧٢-	عاش الشباب (رواية)	وانغ مينغ	وحيد السعيد عبدالحميد
٢٧٣-	كيف تعد رسالة دكتوراه	أومبرتو إيكو	على إبراهيم منوفى
٢٧٤-	اليوم السادس (رواية)	أندريه شديد	حمادة إبراهيم
٢٧٥-	الخلود (رواية)	ميلان كونديرا	خالد أبو اليزيد
٢٧٦-	الغضب وأحلام السنين (مسرحيات)	جان أنوى وآخرون	إدوار الخراط
٢٧٧-	تاريخ الأدب فى إيران (جـ٤)	إدوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٢٧٨-	المسافر (شعر)	محمد إقبال	يوسف عبدالفتاح فرج

٢٧٩-	ملك فى الحديقة (رواية)	سنيل باث .	جمال عبدالرحمن
٢٨٠-	حديث عن الخسارة	جونتر جراس	شيرين عبدالسلام
٢٨١-	أساسيات اللغة	ر. ل. تراسك	رانيا إبراهيم يوسف
٢٨٢-	تاريخ طبرستان	بهاء الدين محمد اسفنديار	أحمد محمد نادى
٢٨٣-	هدية الحجاز (شعر)	محمد إقبال	سمير عبدالحميد إبراهيم
٢٨٤-	القصص التى يحكيها الأطفال	سوزان إنجيل	إيزابيل كمال
٢٨٥-	مشترى العشق (رواية)	محمد على بهزادراد	يوسف عبدالفتاح فرج
٢٨٦-	دفاعًا عن التاريخ الأدبى النسوى	جانيت تود	ريهام حسين إبراهيم
٢٨٧-	أغنيات وسوناتات (شعر)	جون دن	بهاء جاهين
٢٨٨-	مواعظ سعدى الشيرازى (شعر)	سعدى الشيرازى	محمد علاء الدين منصور
٢٨٩-	تفاهم وقصص أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٢٩٠-	الأرشيفات والمدن الكبرى	إم. فى. روبرتس	عثمان مصطفى عثمان
٢٩١-	الحافلة الليلكية (رواية)	مايف بينشى	منى الدروبى
٢٩٢-	مقامات ورسائل أندلسية	فرناندو دى لاجرانجا	عبداللطيف عبدالحليم
٢٩٣-	فى قلب الشرق	ندوة لويس ماسينيون	زينب محمود الخضيرى
٢٩٤-	القوى الأربع الأساسية فى الكون	بول ديفيز	هاشم أحمد محمد
٢٩٥-	آلام سياوش (رواية)	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
٢٩٦-	السافاك	تقى نجارى راد	محمود علاوى
٢٩٧-	أقدم لك: نيتشه	لورانس جين وكيتى شين	إمام عبدالفتاح إمام
٢٩٨-	أقدم لك: سارتر	فيليب تودى وهوارد ريد	إمام عبدالفتاح إمام
٢٩٩-	أقدم لك: كامى	ديفيد ميروفتش وآلن كوركس	إمام عبدالفتاح إمام
٤٠٠-	مومو (رواية)	ميشائيل إنده	باهر الجوهرى
٤٠١-	أقدم لك: علم الرياضيات	زياودن ساردر وآخرون	ممدوح عبد المنعم
٤٠٢-	أقدم لك: ستيفن هوكنج	ج. ب. ماك إيفوى وأوسكار زاريت	ممدوح عبدالمنعم
٤٠٣-	ربة المطر والملابس تصنع الناس (روايتان)	تودور شتورم وجوتفرد كولر	عماد حسن بكر
٤٠٤-	تعويذة الحسى	ديفيد إبرام	ظبية خميس
٤٠٥-	إيزابيل (رواية)	أندريه جيد	حمادة إبراهيم
٤٠٦-	المستعربون الإسبان فى القرن ١٩	مانويلا مانتاناريس	جمال عبد الرحمن
٤٠٧-	الأدب الإسبانى المعاصر بأقلام كتابه	مجموعة من المؤلفين	طلعت شاهين
٤٠٨-	معجم تاريخ مصر	جوان فوتشركنج	عنان الشهاوى
٤٠٩-	انتصار السعادة	برتراند راسل	إلهامى عمارة
٤١٠-	خلاصة القرن	كارل بوبر	الزواوى بغورة
٤١١-	همس من الماضى	جينيفر أكرمان	أحمد مستجير
٤١٢-	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ٢)	ليفى بروفنسال	بإشراف: صلاح فضل
٤١٣-	أغنيات المنفى (شعر)	ناظم حكمت	محمد البخارى
٤١٤-	الجمهورية العالمية للآداب	باسكال كازانوفا	أمل الصبان
٤١٥-	صورة كوكب (مسرحية)	فريديريش دورينمات	أحمد كامل عبدالرحيم
٤١٦-	مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر	أ. أ. رتشاردز	محمد مصطفى بدوى

٤١٧-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (جـ٥)	رينيه ويليك	مجاهد عبدالمنعم مجاهد
٤١٨-	سيلسات الزمر الحاكمة في مصر العثمانية	جين هاثواى	عبد الرحمن الشيخ
٤١٩-	العصر الذهبي للإسكندرية	جون مارلو	نسيم مجلى
٤٢٠-	مكرو ميجاس (قصة فلسفية)	فولتير	الطيب بن رجب
٤٢١-	الولاء والقيادة في المجتمع الإسلامي الأول	روى متحدة	أشرف كيلاني
٤٢٢-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ١)	ثلاثة من الرحالة	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٤٢٣-	إسراءات الرجل الطيف	نخبة	وحيد النقاش
٤٢٤-	لوائح الحق ولوامع العشق (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامي	محمد علاء الدين منصور
٤٢٥-	من طاووس إلى فرح	محمود طلوعي	محمود علاوى
٤٢٦-	الخفافيش وقصص أخرى	نخبة	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧-	بانديراس الطاغية (رواية)	باى إنكلان	ثريا شلبي
٤٢٨-	الخزانة الخفية	محمد هوتك بن داود خان	محمد أمان صافي
٤٢٩-	أقدم لك: هيجل	ليود سبنسر وأندزجي كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٠-	أقدم لك: كانط	كرستوفر وانت وأندزجي كليموفسكي	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣١-	أقدم لك: فوكو	كريس هوروكس وزوران جفتيك	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٢-	أقدم لك: ماكيافللي	باتريك كيرى وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٣-	أقدم لك: جويس	ديفيد نوريس وكارل فلنت	حمدى الجابرى
٤٣٤-	أقدم لك: الرومانسية	دونكان هيث وجودى بورهام	عصام حجازى
٤٣٥-	توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زربرج	ناجى رشوان
٤٣٦-	تاريخ الفلسفة (مج١)	فردريك كوبلستون	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٧-	رحالة هندى فى بلاد الشرق العربى	شبلى النعمانى	جلال الحفناوى
٤٣٨-	بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بيبرس	عايدة سيف الدولة
٤٣٩-	موت المرابى (رواية)	صدر الدين عينى	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠-	قواعد اللهجات العربية الحديثة	كرستن بروستاد	محمد طارق الشرقاوى
٤٤١-	رب الأشياء الصغيرة (رواية)	أرونداتى روى	فخرى لبيب
٤٤٢-	حتشبسوت: المرأة الفرعونية	فوزية أسعد	ماهر جويجاتى
٤٤٣-	اللغة العربية: تاريخها ومستوياتها وتأثيرها	كيس فرستيغ	محمد طارق الشرقاوى
٤٤٤-	أمريكا اللاتينية: الثقافات القديمة	لاوريت سيجورنه	صالح علمانى
٤٤٥-	حول وزن الشعر	پرويز ناتل خانلرى	محمد محمد يونس
٤٤٦-	التحالف الأسود	ألكسندر كوكبرن وجيفرى سانت كلير	أحمد محمود
٤٤٧-	ملحمة السِّيد	تراث شعبى إسبانى	الطاهر أحمد مكى
٤٤٨-	الفلاحون (ميراث الترجمة)	الأب عيروط	محى الدين اللبان ووليم داوود مرقس
٤٤٩-	أقدم لك: الحركة النسوية	نخبة	جمال الجزيرى
٤٥٠-	أقدم لك: ما بعد الحركة النسوية	صوفيا فوكا وريبيكا رايت	جمال الجزيرى
٤٥١-	أقدم لك: الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزبورن وبورن ڤان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢-	أقدم لك: لينين والثورة الروسية	ريتشارد إبجينانزى وأوسكار زاريت	محيى الدين مزيد
٤٥٣-	القاهرة: إقامة مدينة حديثة	جان لوك أرنو	حليم طوسون وفؤاد الدهان
٤٥٤-	خمسون عامًا من السينما الفرنسية	رينيه بريدال	سوزان خليل

٤٥٥-	تاريخ الفلسفة الحديثة (مجـ٥)	فردريك كوبلستون	محمود سيد أحمد
٤٥٦-	لا تنسنى (رواية)	مريم جعفرى	هويدا عزت محمد
٤٥٧-	النساء فى الفكر السياسى الغربى	سوزان موللر أوكين	إمام عبدالفتاح إمام
٤٥٨-	الموريسكيون الأندلسيون	مرثيديس غارثيا أرينال	جمال عبد الرحمن
٤٥٩-	نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	جلال البنا
٤٦٠-	أقدم لك: الفاشية والنازية	ستوارت هود وليتزا جانستز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦١-	أقدم لك: لكان	داريان ليدر وجودى جروفز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦٢-	طه حسين من الأزهر إلى السوربون	عبدالرشيد الصادق محمودى	عبدالرشيد الصادق محمودى
٤٦٣-	الدولة المارقة	وليام بلوم	كمال السيد
٤٦٤-	ديمقراطية للقلة	مايكل بارنتى	حصة إبراهيم المنيف
٤٦٥-	قصص اليهود	لويس جنزبيرج	جمال الرفاعى
٤٦٦-	حكايات حب وبطولات فرعونية	ڤيولين فانويك	فاطمة عبد الله
٤٦٧-	التفكير السياسى والنظرة السياسية	ستيفين ديلو	ربيع وهبة
٤٦٨-	روح الفلسفة الحديثة	چوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٤٦٩-	جلال الملوك .	نصوص حبشية قديمة	مجدى عبدالرازق
٤٧٠-	الأراضى والجودة البيئية	جارى م. بيرزنسكى وآخرون	محمد السيد النتة
٤٧١-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ٢)	ثلاثة من الرحالة	عبد الله عبد الرازق إبراهيم
٤٧٢-	دون كيخوتى (القسم الأول)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٣-	دون كيخوتى (القسم الثانى)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٤-	الأدب والنسوية	بام موريس	سهام عبدالسلام
٤٧٥-	صوت مصر: أم كلثوم	ڤرچينيا دانيلسون	عادل هلال عنانى
٤٧٦-	أرض الحبايب بعيدة: بيرم التونسى	ماريلين بوث	سحر توفيق
٤٧٧-	تاريخ الصين منذ ما قبل التاريخ حتى القرن العشرين	هيلدا هوخام	أشرف كيلانى
٤٧٨-	الصين والولايات المتحدة	ليوشيه شنج و لى شى دونج	عبد العزيز حمدى
٤٧٩-	المقهـــى (مسرحية)	لاو شه	عبد العزيز حمدى
٤٨٠-	تساى ون جى (مسرحية)	كو مو روا	عبد العزيز حمدى
٤٨١-	بردة النبى	روى متحدة	رضوان السيد
٤٨٢-	موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية	روبير چاك تيبو	فاطمة عبد الله
٤٨٣-	النسوية وما بعد النسوية	سارة چامبل	أحمد الشامى
٤٨٤-	جمالية التلقى	هانسن روبيرت ياوس	رشيد بنحدو
٤٨٥-	التوبة (رواية)	نذير أحمد الدهلوى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٦-	الذاكرة الحضارية	يان أسمن	عبدالحليم عبدالغنى رجب
٤٨٧-	الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية	رفيع الدين المراد أبادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٨-	الحب الذى كان وقصائد أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٩-	هُسِرل: الفلسفة علمًا دقيقًا	إدموند هُسِرل	محمود رجب
٤٩٠-	أسمار الببغاء	محمد قادرى	عبد الوهاب علوب
٤٩١-	نصوص قصصية من روائع الأدب الأفريقى	نخبة	سمير عبد ربه
٤٩٢-	محمد على مؤسس مصر الحديثة	جى فارجيت	محمد رفعت عواد

٤٩٣-	خطابات إلى طالب الصوتيات	هارولد بالمر	محمد صالح الضالع
٤٩٤-	كتاب الموتى: الخروج فى النهار	نصوص مصرية قديمة	شريف الصيفى
٤٩٥-	اللوبى	إدوارد تيفان	حسن عبد ربه المصرى
٤٩٦-	الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ١)	إكوادو بانولى	مجموعة من المترجمين
٤٩٧-	العلمانية والنوع والدولة فى الشرق الأوسط	نادية العلى	مصطفى رياض
٤٩٨-	النساء والنوع فى الشرق الأوسط الحديث	جوديث تاكر ومارجريت مريودز	أحمد على بدوى
٤٩٩-	تقاطعات: الأمة والمجتمع والنوع	مجموعة من المؤلفين	فيصل بن خضراء
٥٠٠-	فى طفولتى: دراسة فى السيرة الذاتية العربية	تيتز رووكى	طلعت الشايب
٥٠١-	تاريخ النساء فى الغرب (جـ١)	أرلر جولد هامر	سحر فراج
٥٠٢-	أصوات بديلة	مجموعة من المؤلفين	هالة كمال
٥٠٣-	مختارات من الشعر الفارسى الحديث	نخبة من الشعراء	محمد نور الدين عبدالمنعم
٥٠٤-	كتابات أساسية (جـ١)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٥-	كتابات أساسية (جـ٢)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٦-	ربما كان قديساً (رواية)	أن تيلر	عبدالحميد فهمى الجمال
٥٠٧-	سيدة الماضى الجميل (مسرحية)	بيتر شيفر	شوقى فهيم
٥٠٨-	المولوية بعد جلال الدين الرومى	عبدالباقى جلبنارلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٥٠٩-	الفقر والإحسان فى عصر سلاطين المماليك	أدم صبرة	قاسم عبده قاسم
٥١٠-	الأرملة الماكرة (مسرحية)	كارلو جولدونى	عبدالرازق عيد
٥١١-	كوكب مرقّع (رواية)	أن تيلر	عبدالحميد فهمى الجمال
٥١٢-	كتابة النقد السينمائى	تيموثى كوريجان	جمال عبد الناصر
٥١٣-	العلم الجسور	تيد أنتون	مصطفى إبراهيم فهمى
٥١٤-	مدخل إلى النظرية الأدبية	جونثان كولر	مصطفى بيومى عبد السلام
٥١٥-	من التقليد إلى ما بعد الحداثة	فدوى مالطى دوجلاس	فدوى مالطى دوجلاس
٥١٦-	إرادة الإنسان فى علاج الإدمان	أرنولد واشنطون ودونا باوندى	صبرى محمد حسن
٥١٧-	نقش على الماء وقصص أخرى	نخبة	سمير عبد الحميد إبراهيم
٥١٨-	استكشاف الأرض والكون	إسحق عظيموف	هاشم أحمد محمد
٥١٩-	محاضرات فى المثالية الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٥٢٠-	الولع الفرنسى بمصر من الحلم إلى المشروع	أحمد يوسف	أمل الصبان
٥٢١-	قاموس تراجم مصر الحديثة	أرثر جولد سميث	عبدالوهاب بكر
٥٢٢-	إسبانيا فى تاريخها	أميركو كاسترو	على إبراهيم منوفى
٥٢٣-	الفن الطليطلى الإسلامى والمدجن	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٥٢٤-	الملك لير (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٥٢٥-	موسم صيد فى بيروت وقصص أخرى	دنيس جونسون	نادية رفعت
٥٢٦-	أقدم لك: السياسة البيئية	ستيفن كرول ووليم رانكين	محيى الدين مزيد
٥٢٧-	أقدم لك: كافكا	ديفيد زين ميروفتس وروبرت كرمب	جمال الجزيرى
٥٢٨-	أقدم لك: تروتسكى والماركسية	طارق على وفلْ إيفانز	جمال الجزيرى
٥٢٩-	بدائع العلامة إقبال فى شعره الأردى	محمد إقبال	حازم محفوظ
٥٣٠-	مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية	رينيه جينو	عمر الفاروق عمر

٥٢١-	ما الذى حَدَثَ فى «حَدَث» ١١ سبتمبر؟	جاك دريدا	صفاء فتحى
٥٢٢-	المغامرُ والمستشرق	هنرى لورنس	بشير السباعى
٥٢٣-	تعلُّم اللغة الثانية	سوزان جاس	محمد طارق الشرقاوى
٥٢٤-	الإسلاميون الجزائريون	سيڤرين لابا	حمادة إبراهيم
٥٢٥-	مخزن الأسرار (شعر)	نظامى الكنجوى	عبدالعزيز بقوش
٥٢٦-	الثقافات وقيم التقدم	صمويل هنتنجتون ولورانس هاريزون	شوقى جلال
٥٢٧-	للحب والحرية (شعر)	نخبة	عبدالغفار مكاوى
٥٢٨-	النفس والآخر فى قصص يوسف الشارونى	كيت دانيلر	محمد الحديدى
٥٢٩-	خمس مسرحيات قصيرة	كاريل تشرشل	محسن مصيلحى
٥٤٠-	توجهات بريطانية - شرقية	السير رونالد ستورس	رءوف عباس
٥٤١-	هى تتخيل وهلاوس أخرى	خوان خوسيه مياس	مروة رزق
٥٤٢-	قصص مختارة من الأدب اليونانى الحديث	نخبة	نعيم عطية
٥٤٣-	أقدم لك: السياسة الأمريكية	باتريك بروجان وكريس جرات	وفاء عبدالقادر
٥٤٤-	أقدم لك: ميلانى كلاين	روبرت هنشل وآخرون	حمدى الجابرى
٥٤٥-	يا له من سباق محموم	فرانسيس كريك	عزت عامر
٥٤٦-	ريموس	ت. ب. وايزمان	توفيق على منصور
٥٤٧-	أقدم لك: بارت	فيليب تودى وآن كورس	جمال الجزيرى
٥٤٨-	أقدم لك: علم الاجتماع	ريتشارد أوزبرن وبورن فان لون	حمدى الجابرى
٥٤٩-	أقدم لك: علم العلامات	بول كوبلى وليتاجانز	جمال الجزيرى
٥٥٠-	أقدم لك: شكسبير	نيك جروم وبيرو	حمدى الجابرى
٥٥١-	الموسيقى والعولمة	سايمون ماندى	سمحة الخولى
٥٥٢-	قصص مثالية	ميجيل دى ثربانتس	على عبد الرءوف البمبى
٥٥٣-	مدخل للشعر الفرنسى الحديث والمعاصر	دانيال لوفرس	رجاء ياقوت
٥٥٤-	مصر فى عهد محمد على	عفاف لطفى السيد مارسوه	عبدالسميع عمر زين الدين
٥٥٥-	الإستراتيجية الأمريكية للقرن الحادى والعشرين	أناتولى أوتكين	أنور محمد إبراهيم ومحمد نصرالدين الجبالى
٥٥٦-	أقدم لك: چان بودريار	كريس هوروكس وزوران جيفتك	حمدى الجابرى
٥٥٧-	أقدم لك: الماركيز دى ساد	ستوارت هود وجراهام كرولى	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٨-	أقدم لك: الدراسات الثقافية	زيودين ساردار وبورين ڤان لون	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٩-	الماس الزائف (رواية)	تشا تشاجى	عبدالحى أحمد سالم
٥٦٠-	صلصلة الجرس (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوى
٥٦١-	جناح جبريل (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوى
٥٦٢-	بلايين وبلايين	كارل ساجان	عزت عامر
٥٦٣-	ورود الخريف (مسرحية)	خاثينتو بينابينتى	صبرى محمدى التهامى
٥٦٤-	عُش الغريب (مسرحية)	خاثينتو بينابينتى	صبرى محمدى التهامى
٥٦٥-	الشرق الأوسط المعاصر	ديبورا ج. جيرنر	أحمد عبدالحميد أحمد
٥٦٦-	تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى	موريس بيشوب	على السيد على
٥٦٧-	الوطن المغتصب	مايكل رايس	إبراهيم سلامة إبراهيم
٥٦٨-	الأصولى فى الرواية	عبد السلام حيدر	عبد السلام حيدر

٥٦٩- موقع الثقافة	هومى بابا	ثائر ديب
٥٧٠- دول الخليج الفارسى	سير روبرت هاى	يوسف الشارونى
٥٧١- تاريخ النقد الإسبانى المعاصر	إيميليا دى ثوليتا	السيد عبد الظاهر
٥٧٢- الطب فى زمن الفراعنة	برونو أليوا	كمال السيد
٥٧٣- أقدم لك: فرويد	ريتشارد ابيجنانس وأسكار زارتى	جمال الجزيرى
٥٧٤- مصر القديمة فى عيون الإيرانيين	حسن بيرنيا	علاء الدين السباعى
٥٧٥- الاقتصاد السياسى للعولمة	نجير وودز	أحمد محمود
٥٧٦- فكر ثربانتس	أمريكو كاسترو	ناهد العشرى محمد
٥٧٧- مغامرات بينوكيو	كارلو كولودى	محمد قدرى عمارة
٥٧٨- الجماليات عند كيتس وهنت	أيومى ميزوكوشى	محمد إبراهيم وعصام عبد الروف
٥٧٩- أقدم لك: تشومسكى	جون ماهر وجودى جرونز	محيى الدين مزيد
٥٨٠- دائرة المعارف الدولية (مج١)	جون فيزر وبول سيترجز	بإشراف: محمد فتحى عبدالهادى
٥٨١- الحمقى يموتون (رواية)	ماريو بوزو	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٢- مرايا على الذات (رواية)	هوشنك كلشيرى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٣- الجيران (رواية)	أحمد محمود	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٤- سفر (رواية)	محمود دولت آبادى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٥- الأمير احتجاب (رواية)	هوشنك كلشيرى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٦- السينما العربية والأفريقية	ليزبيث مالكموس وروى أرمز	سهام عبد السلام
٥٨٧- تاريخ تطور الفكر الصينى	مجموعة من المؤلفين	عبدالعزيز حمدى
٥٨٨- أمنحوتب الثالث	أنييس كابرول	ماهر جويجاتى
٥٨٩- تمبكت العجيبة	فيلكس ديبوا	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٥٩٠- أساطير من الموروثات الشعبية الفنلندية	نخبة	محمود مهدى عبدالله
٥٩١- الشاعر والمفكر	هوراتيوس	على عبدالتواب على وصلاح رمضان السيد
٥٩٢- الثورة المصرية (جـ١)	محمد صبرى السوربونى	مجدى عبدالحافظ وعلى كورخان
٥٩٣- قصائد ساحرة	بول فاليرى	بكر الحلو
٥٩٤- القلب السمين (قصة أطفال)	سوزانا تامارو	أمانى فوزى
٥٩٥- الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ٢)	إكوادو بانولى	مجموعة من المترجمين
٥٩٦- الصحة العقلية فى العالم	روبرت ديجارليه وآخرون	إيهاب عبدالرحيم محمد
٥٩٧- مسلمو غرناطة	خوليو كاروباروخا	جمال عبدالرحمن
٥٩٨- مصر وكنعان وإسرائيل	دونالد ريدفورد	بيومى على قنديل
٥٩٩- فلسفة الشرق	هرداد مهرين	محمود علاوى
٦٠٠- الإسلام فى التاريخ	برنارد لويس	مدحت طه
٦٠١- النسوية والمواطنة	ريان فوت	أيمن بكر وسمر الشيشكلى
٦٠٢- ليوتار: نحو فلسفة ما بعد حداثية	جيمس وليامز	إيمان عبدالعزيز
٦٠٣- النقد الثقافى	أرثر أيزابرجر	وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسى
٦٠٤- الكوارث الطبيعية (مج١)	باتريك ل. أبوت	توفيق على منصور
٦٠٥- مخاطر كوكبنا المضطرب	إرنست زيبروسكى (الصغير)	مصطفى إبراهيم فهمى
٦٠٦- قصة البردى اليونانى فى مصر	ريتشارد هاريس	محمود إبراهيم السعدنى

٦٠٧-	قلب الجزيرة العربية (جـ١)	هاري سينت فيلبي	صبري محمد حسن
٦٠٨-	قلب الجزيرة العربية (جـ٢)	هاري سينت فيلبي	صبري محمد حسن
٦٠٩-	الانتخاب الثقافي	أجنر فوج	شوقي جلال
٦١٠-	العمارة المدجنة	رفائيل لويث جوثمان	على إبراهيم منوفي
٦١١-	النقد والأيديولوجية	تيري إيجلتون	فخري صالح
٦١٢-	رسالة النفسية	فضل الله بن حامد الحسيني	محمد محمد يونس
٦١٣-	السياحة والسياسة	كولن مايكل هول	محمد فريد حجاب
٦١٤-	بيت الأقصر الكبير(رواية)	فوزية أسعد	منى قطان
٦١٥-	عرض الأحداث التي وقعت في بغداد من ١٩٩٧ إلى ١٩٩٩	أليس بسيريني	محمد رفعت عواد
٦١٦-	أساطير بيضاء	روبرت يانج	أحمد محمود
٦١٧-	الفولكلور والبحر	هوراس بيك	أحمد محمود
٦١٨-	نحو مفهوم لاقتصاديات الصحة	تشارلز فيليس	جلال البنا
٦١٩-	مفاتيح أورشليم القدس	ريمون استانبولي	عايدة الباجوري
٦٢٠-	السلام الصليبي	توماش ماستناك	بشير السباعي
٦٢١-	رباعيات الخيام (ميراث الترجمة)	عمر الخيام	محمد السباعي
٦٢٢-	أشعار من عالم اسمه الصين	أي تشينغ	أمير نبيه وعبدالرحمن حجازي
٦٢٣-	نوادر جحا الإيراني	سعيد قانعي	يوسف عبدالفتاح
٦٢٤-	شعر المرأة الأفريقية	نخبة	غادة الحلواني
٦٢٥-	الجرح السري	چان چينيه	محمد برادة
٦٢٦-	مختارات شعرية مترجمة (جـ٢)	نخبة	توفيق على منصور
٦٢٧-	حكايات إيرانية	نخبة	عبدالوهاب علوب
٦٢٨-	أصل الأنواع	تشارلس داروين	مجدي محمود المليجي
٦٢٩-	قرن آخر من الهيمنة الأمريكية	نيقولاس جويات	عزة الخميسي
٦٣٠-	سيرتي الذاتية	أحمد بللو	صبري محمد حسن
٦٣١-	مختارات من الشعر الأفريقي المعاصر	نخبة	بإشراف: حسن طلب
٦٣٢-	المسلمون واليهود في مملكة فالنسيا	دولورس برامون	رانيا محمد
٦٣٣-	الحب وفنونه (شعر)	نخبة	حمادة إبراهيم
٦٣٤-	مكتبة الإسكندرية	روى ماكلويد وإسماعيل سراج الدين	مصطفى البهنساوي
٦٣٥-	التثبيت والتكيف في مصر	جودة عبد الخالق	سمير كريم
٦٣٦-	حج يولندة	جناب شهاب الدين	سامية محمد جلال
٦٣٧-	مصر الخديوية	ف. روبرت هنتر	بدر الرفاعي
٦٣٨-	الديمقراطية والشعر	روبرت بن وارين	فؤاد عبد المطلب
٦٣٩-	فندق الأرق (شعر)	تشارلز سيميك	أحمد شافعي
٦٤٠-	ألكسياد	الأميرة أنّاكومنينا	حسن حبشي
٦٤١-	برتراند رسل (مختارات)	برتراند رسل	محمد قدري عمارة
٦٤٢-	أقدم لك: داروين والتطور	جوناثان ميلر وبورين ڤان لون	ممدوح عبد المنعم
٦٤٣-	سفرنامه حجاز (شعر)	عبد الماجد الدريابادي	سمير عبدالحميد إبراهيم
٦٤٤-	العلوم عند المسلمين	هوارد د.تيرنر	فتح الله الشيخ

٦٤٥-	السياسة الخارجية الأمريكية ومصادرها الداخلية	تشارلز كجلي ويوجين ويتكوف	عبد الوهاب علوب
٦٤٦-	قصة الثورة الإيرانية	سيهر ذبيح	عبد الوهاب علوب
٦٤٧-	رسائل من مصر	جون نينيه	فتحى العشرى
٦٤٨-	بورخيس	بياتريث سارلو	خليل كلفت
٦٤٩-	الخوف وقصص خرافية أخرى	جى دى موباسان	سحر يوسف
٦٥٠-	الدولة والسلطة والسياسة فى الشرق الأوسط	روجر أوين	عبد الوهاب علوب
٦٥١-	ديليبس الذى لا نعرفه	وثائق قديمة	أمل الصبان
٦٥٢-	آلهة مصر القديمة	كلود ترونكر	حسن نصر الدين
٦٥٣-	مدرسة الطغاة (مسرحية)	إيريش كستنر	سمير جريس
٦٥٤-	أساطير شعبية من أوزبكستان (جـ١)	نصوص قديمة	عبد الرحمن الخميسى
٦٥٥-	أساطير وآلهة	إيزابيل فرانكو	حليم طوسون ومحمود ماهر طه
٦٥٦-	خبز الشعب والأرض الحمراء (مسرحيتان)	ألفونسو ساستري	ممدوح البستاوى
٦٥٧-	محاكم التفتيش والموريسكيون	مرثيديس غارثيا أرينال	خالد عباس
٦٥٨-	حوارات مع خوان رامون خيمينيث	خوان رامون خيمينيث	صبرى التهامى
٦٥٩-	قصائد من إسبانيا وأمريكا اللاتينية	نخبة	عبداللطيف عبدالحليم
٦٦٠-	نافذة على أحدث العلوم	ريتشارد فايفيلد	هاشم أحمد محمد
٦٦١-	روائع أندلسية إسلامية	نخبة	صبرى التهامى
٦٦٢-	رحلة إلى الجذور	داسو سالدیبار	صبرى التهامى
٦٦٣-	امرأة عابثة	ليوسيل كليفتون	أحمد شافعى
٦٦٤-	الرجل على الشاشة	ستيفن كوهان وإنا راى هارك	عصام زكريا
٦٦٥-	عوالم أخرى	بول دافيز	هاشم أحمد محمد
٦٦٦-	تطور الصورة الشعرية عند شكسبير	ولفجانج اتش كليمن	جمال عبد الناصر ومدحت الجيار وجمال جاد الرب
٦٦٧-	الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربى	ألفن جولدنر	على ليلة
٦٦٨-	ثقافات العولمة	فريدريك جيمسون وماساو ميوشى	ليلى الجبالى
٦٦٩-	ثلاث مسرحيات	وول شوينكا	نسيم مجلى
٦٧٠-	أشعار جوستاف أدولفو	جوستاف أدولفو بكر	ماهر البطوطى
٦٧١-	قل لى كم مضى على رحيل القطار؟	جيمس بولدوين	على عبدالأمير صالح
٦٧٢-	مختارات من الشعر الفرنسى للأطفال	نخبة	إبتهال سالم
٦٧٣-	ضرب الكليم (شعر)	محمد إقبال	جلال الحفناوى
٦٧٤-	ديوان الإمام الخمينى	آية الله العظمى الخمينى	محمد علاء الدين منصور
٦٧٥-	أثينا السوداء (جـ٢، مج١)	مارتن برنال	بإشراف: محمود إبراهيم السعدنى
٦٧٦-	أثينا السوداء (جـ٢، مج٢)	مارتن برنال	بإشراف: محمود إبراهيم السعدنى
٦٧٧-	تاريخ الأدب فى إيران (جـ١ ، مج١)	إدوارد جرانفيل براون	أحمد كمال الدين حلمى
٦٧٨-	تاريخ الأدب فى إيران (جـ١ ، مج٢)	إدوارد جرانفيل براون	أحمد كمال الدين حلمى
٦٧٩-	مختارات شعرية مترجمة (جـ٢)	وليام شكسبير	توفيق على منصور
٦٨٠-	المدينة الفاضلة (ميراث الترجمة)	كارل ل. بيكر	محمد شفيق غربال
٦٨١-	هل يوجد نص فى هذا الفصل؟	ستانلى فش	أحمد الشيمى
٦٨٢-	نجوم حظر التجوال الجديد (رواية)	بن أوكرى	صبرى محمد حسن

٦٨٣-	سكين واحد لكل رجل (رواية)	تى. م. ألوكو	صبرى محمد حسن
٦٨٤-	الأعمال القصصية الكاملة (أنا كنا) (جـ١)	أوراثيو كيروجا	رزق أحمد بهنسى
٦٨٥-	الأعمال القصصية الكاملة (الصحراء) (جـ٢)	أوراثيو كيروجا	رزق أحمد بهنسى
٦٨٦-	امرأة محاربة (رواية)	ماكسين هونج كنجستون	سحر توفيق
٦٨٧-	محبوبة (رواية)	فتاة حاج سيد جوادى	ماجدة العنانى
٦٨٨-	الانفجارات الثلاثة العظمى	فيليب م. دوبر وريتشارد أ. موار	فتح الله الشيخ وأحمد السماحى
٦٨٩-	الملف (مسرحية)	تادروش روجيفيتش	هناء عبد الفتاح
٦٩٠-	محاكم التفتيش فى فرنسا	(مختارات)	رمسيس عوض
٦٩١-	ألبرت أينشتين: حياته وغرامياته	(مختارات)	رمسيس عوض
٦٩٢-	أقدم لك: الوجودية	ريتشارد أبيجانسى وأوسكار زاريت	حمدى الجابرى
٦٩٣-	أقدم لك: القتل الجماعى (المحرقة)	حاييم برشيت وأخرون	جمال الجزيرى
٦٩٤-	أقدم لك: دريدا	جيف كولينز وبيل مايبلين	حمدى الجابرى
٦٩٥-	أقدم لك: رسل	ديف روبنسون وجودى جروف	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٦-	أقدم لك: روسو	ديف روبنسون وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٧-	أقدم لك: أرسطو	روبرت ودفين وجودى جروفس	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٨-	أقدم لك: عصر التنوير	ليود سبنسر وأندرزيجى كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٩-	أقدم لك: التحليل النفسى	إيفان وارد وأوسكار زارايت	جمال الجزيرى
٧٠٠-	الكاتب وواقعه	ماريو بارجاس يوسا	بسمة عبدالرحمن
٧٠١-	الذاكرة والحداثة	وليم رود فيفيان	منى البرنس
٧٠٢-	مدونة جوستنيان فى الفقه الرومانى (ميراث الترجمة)	جوستينيان	عبد العزيز فهمى
٧٠٣-	تاريخ الأدب فى إيران (جـ٢)	إدوارد جرانفيل براون	أمين الشواربى
٧٠٤-	فيه ما فيه	مولانا جلال الدين الرومى	محمد علاء الدين منصور وأخرون
٧٠٥-	فضل الأنام من رسائل حجة الإسلام	الإمام الغزالى	عبدالحميد مدكور
٧٠٦-	الشفرة الوراثية وكتاب التحولات	جونسون ف. يان	عزت عامر
٧٠٧-	أقدم لك: فالتر بنيامين	هوارد كاليجل وأخرون	وفاء عبدالقادر
٧٠٨-	فراعنة من؟	دونالد مالكولم ريد	رءوف عباس
٧٠٩-	معنى الحياة	ألفريد أدلر	عادل نجيب بشرى
٧١٠-	الأطفال والتكنولوجيا والثقافة	إيان هاتشباى وجوموران - إليس	دعاء محمد الخطيب
٧١١-	درة التاج	ميرزا محمد هادى رسوا	هناء عبد الفتاح
٧١٢-	الإلياذة (جـ١) (ميراث الترجمة)	هوميروس	سليمان البستانى
٧١٣-	الإلياذة (جـ٢) (ميراث الترجمة)	هوميروس	سليمان البستانى
٧١٤-	حديث القلوب (ميراث الترجمة)	لامنيه	حنا صاوه
٧١٥-	سر تقدم الإنكليز السكسونيين (ميراث الترجمة)	إدمون ديمولان	أحمد فتحى زغلول
٧١٦-	جامعة كل المعارف (جـ٢)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٧-	جامعة كل المعارف (جـ٣)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٨-	جامعة كل المعارف (جـ٥)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٩-	مسرح الأطفال: فلسفة وطريقة	م. جولدبرج	جميلة كامل
٧٢٠-	مداخل إلى البحث فى تعلم اللغة الثانية	دونام جونسون	على شعبان وأحمد الخطيب

٧٢١- فلسفة المتكلمين فى الإسلام (مج١)	هـ. أ. ولفسون	مصطفى لبيب عبد الغنى
٧٢٢- الصفيحة وقصص أخرى	يشار كمال	الصفصافى أحمد القطورى
٧٢٣- تحديات ما بعد الصهيونية	إفرايم نيمنى	أحمد ثابت
٧٢٤- اليسار الفرويدى	بول روبنسون	عبده الريس
٧٢٥- الاضطراب النفسى	جون فيتكس	مى مقلد
٧٢٦- الموريسكيون فى المغرب	غييرمو غوثالبيس بوستو	مروة محمد إبراهيم
٧٢٧- حلم البحر (رواية)	باجين	وحيد السعيد
٧٢٨- العولمة: تدمير العمالة والنمو	موريس أليه	أميرة جمعة
٧٢٩- الثورة الإسلامية فى إيران	صادق زيباكلام	هويدا عزت
٧٣٠- حكايات من السهول الأفريقية	أن جاتى	عزت عامر
٧٣١- النوع: الذكر والأنثى بين التميز والاختلاف	مجموعة من المؤلفين	محمد قدرى عمارة
٧٣٢- قصص بسيطة (رواية)	إنجو شولتسه	سمير جريس
٧٣٣- مأساة عطيل (مسرحية)	وليم شيكسبير	محمد مصطفى بدوى
٧٣٤- بونابرت فى الشرق الإسلامى	أحمد يوسف	أمل الصبان
٧٣٥- فن السيرة فى العربية	مايكل كوبرسون	محمود محمد مكى
٧٣٦- التاريخ الشعبى للولايات المتحدة (جـ١)	هوارد زن	شعبان مكاوى
٧٣٧- الكوارث الطبيعية (مج٢)	باتريك ل. أبوت	توفيق على منصور
٧٣٨- دمشق من عصر ما قبل التاريخ إلى الدولة المملوكية	جيرار دى جورج	محمد عواد
٧٣٩- دمشق من الإمبراطورية العثمانية حتى الوقت الحاضر	جيرار دى جورج	محمد عواد
٧٤٠- خطابات السلطة	بارى هندس	مرفت ياقوت
٧٤١- الإسلام وأزمة العصر	برنارد لويس	أحمد هيكل
٧٤٢- أرض حارة	خوسيه لاكوادرا	رزق بهنسى
٧٤٣- الثقافة: منظور دارويني	روبرت أونجر	شوقى جلال
٧٤٤- ديوان الأسرار والرموز (شعر)	محمد إقبال	سمير عبد الحميد
٧٤٥- المآثر السلطانية	بيك الدنبلى	محمد أبو زيد
٧٤٦- تاريخ التحليل الاقتصادى (مج١)	جوزيف أ. شومبيتر	حسن النعيمى
٧٤٧- الاستعارة فى لغة السينما	تريفور وايتوك	إيمان عبد العزيز
٧٤٨- تدمير النظام العالمى	فرانسيس بويل	سمير كريم
٧٤٩- إيكولوجيا لغات العالم	ل.ج. كالفيه	باتسى جمال الدين
٧٥٠- الإلياذة	هوميروس	بإشراف: أحمد عثمان
٧٥١- الإسراء والمعراج فى تراث الشعر الفارسى	نخبة	علاء السباعى
٧٥٢- ألمانيا بين عقدة الذنب والخوف	جمال قارصلى	نمر عاروري
٧٥٣- التنمية والقيم	إسماعيل سراج الدين وآخرون	محسن يوسف
٧٥٤- الشرق والغرب	أنا مارى شيمل	عبدالسلام حيدر
٧٥٥- تاريخ الشعر الإسبانى خلال القرن العشرين	أندرو ب. دبيكى	على إبراهيم منوفى
٧٥٦- ذات العيون الساحرة	إنريكى خارديل بونثيلا	خالد محمد عباس
٧٥٧- تجارة مكة	باتريشيا كرون	آمال الروبى
٧٥٨- الإحساس بالعولمة	بروس روبنز	عاطف عبدالحميد

-٧٥٩	النثر الأردى	مولوى سيد محمد	جلال الحفناوى
-٧٦٠	الدين والتصور الشعبى للكون	السيد الأسود	السيد الأسود
-٧٦١	جيوب مثقلة بالحجارة (رواية)	فيرچينيا وولف	فاطمة ناعوت
-٧٦٢	المسلم عدواً و صديقًا	ماريا سوليداد	عبدالعال صالح
-٧٦٣	الحياة فى مصر	أنريكو بيا	نجوى عمر
-٧٦٤	ديوان غالب الدهلوى (شعر غزل)	غالب الدهلوى	حازم محفوظ
-٧٦٥	ديوان خواجه الدهلوى (شعر تصوف)	خواجه مير درد الدهلوى	حازم محفوظ
-٧٦٦	الشرق المتخيل	تييرى هنتش	غازى برو وخليل أحمد خليل
-٧٦٧	الغرب المتخيل	نسيب سمير الحسينى	غازى برو
-٧٦٨	حوار الثقافات	محمود فهمى حجازى	محمود فهمى حجازى
-٧٦٩	أبناء أحياء	فريدريك هتمان	رندا النشار وضياء زاهر
-٧٧٠	السيدة بيرفيكتا	بينيتو بيريث جالدوس	صبرى التهامى
-٧٧١	السيد سيجوندو سومبرا	ريكاردو جويرالديس	صبرى التهامى
-٧٧٢	بريخت ما بعد الحداثة	إليزابيث رايت	محسن مصيلحى
-٧٧٣	دائرة المعارف الدولية (جـ٢)	چون فيزر وبول ستيرجز	بإشراف: محمد فتحى عبدالهادى
-٧٧٤	الديموقراطية الأمريكية: التاريخ والمرتكزات	مجموعة من المؤلفين	حسن عبد ربه المصرى
-٧٧٥	مرآة العروس	نذير أحمد الدهلوى	جلال الحفناوى
-٧٧٦	منظومة مصيبت نامه (مج١)	فريد الدين العطار	محمد محمد يونس
-٧٧٧	الانفجار الأعظم	چيمس إ. ليدسى	عزت عامر
-٧٧٨	صفوة المديح	مولانا محمد أحمد ورضا القادرى	حازم محفوظ
-٧٧٩	خيوط العنكبوت وقصص أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم وسارة تاكاهاشى
-٧٨٠	من أدب الرسائل الهندية حجاز ١٩٣٠	غلام رسول مهر	سمير عبد الحميد إبراهيم
-٧٨١	الطريق إلى بكين	هدى بدران	نبيلة بدران
-٧٨٢	المسرح المسكون	مارڤن كارلسون	جمال عبد المقصود
-٧٨٣	العولمة والرعاية الإنسانية	ڤيك چورچ وبول ويلدنج	طلعت السروجى
-٧٨٤	الإساءة للطفل	ديڤيد أ. وولف	جمعة سيد يوسف
-٧٨٥	تأملات عن تطور ذكاء الإنسان	كارل ساجان	سمير حنا صادق
-٧٨٦	المذنبة (رواية)	مارجريت أتوود	سحر توفيق
-٧٨٧	العودة من فلسطين	چوزيه بوفيه	إيناس صادق
-٧٨٨	سر الأهرامات	ميروسلاف ڤرنر	خالد أبو اليزيد البلتاجى
-٧٨٩	الانتظار (رواية)	هاچين	منى الدروبى
-٧٩٠	الفرانكفونية العربية	مونيك بونتو	جيهان العيسوى
-٧٩١	المطور ومعامل العطور فى مصر القديمة	محمد الشيمى	ماهر جويجاتى
-٧٩٢	دراسات حول القصص القصيرة إدريس ومحفوظ	منى ميخائيل	منى إبراهيم
-٧٩٣	ثلاث رؤى للمستقبل	چون جريڤيس	رءوف وصفى
-٧٩٤	التاريخ الشعبى للولايات المتحدة (جـ٢)	هوارد زن	شعبان مكاوى
-٧٩٥	مختارات من الشعر الإسبانى (جـ١)	نخبة	على عبد الرءوف البمبى
-٧٩٦	آفاق جديدة فى دراسة اللغة والذهن	نعوم تشومسكى	حمزة المزينى

٧٩٧-	الرؤية فى ليلة معتمة (شعر)	نخبة	طلعت شاهين
٧٩٨-	الإرشاد النفسى للأطفال	كاترين جيلدرد ودافيد جيلدرد	سميرة أبو الحسن
٧٩٩-	سلم السنوات	آن تيلر	عبد الحميد فهمى الجمال
٨٠٠-	قضايا فى علم اللغة التطبيقى	ميشيل ماكارثى	عبد الجواد توفيق
٨٠١-	نحو مستقبل أفضل	تقرير دولى	بإشراف: محسن يوسف
٨٠٢-	مسلمو غرناطة فى الآداب الأوروبية	ماريا سوليداد	شرين محمود الرفاعى
٨٠٣-	التغيير والتنمية فى القرن العشرين	توماس باترسون	عزة الخميسى
٨٠٤-	سوسيولوجيا الدين	دانييل هيرفيه-ليجيه وجان بول ويلام	درويش الحلوجى
٨٠٥-	من لا عزاء لهم (رواية)	كازو إيشيجورو	طاهر البربرى
٨٠٦-	الطبقة العليا المتوسطة	ماجدة بركة	محمود ماجد
٨٠٧-	يحى حقى: تشريح مفكر مصرى	ميريام كوك	خيرى دومة
٨٠٨-	الشرق الأوسط والولايات المتحدة	ديفيد دابليو ليش	أحمد محمود
٨٠٩-	تاريخ الفلسفة السياسية (جـ١)	ليو شتراوس وجوزيف كروبسى	محمود سيد أحمد
٨١٠-	تاريخ الفلسفة السياسية (جـ٢)	ليو شتراوس وجوزيف كروبسى	محمود سيد أحمد
٨١١-	تاريخ التحليل الاقتصادى (مج٢)	جوزيف أ شومبيتر	حسن النعيمى
٨١٢-	تأمل العالم الصورة والأسلوب فى الحياة الاجتماعية	ميشيل مافيزولى	فريد الزاهى
٨١٣-	لم أخرج من ليلى (رواية)	آنى إرنو	نورا أمين
٨١٤-	الحياة اليومية فى مصر الرومانية	نافتال لويس	آمال الروبى
٨١٥-	فلسفة المتكلمين (مج٢)	هـ. أ. ولفسون	مصطفى لبيب عبدالغنى
٨١٦-	العدو الأمريكى	فيليب روجيه	بدر الدين عرودكى
٨١٧-	مائدة أفلاطون: كلام فى الحب	أفلاطون	محمد لطفى جمعة
٨١٨-	الحرفيون والتجار فى القرن ١٨ (جـ١)	أندريه ريمون	ناصر أحمد وباتسى جمال الدين
٨١٩-	الحرفيون والتجار فى القرن ١٨ (جـ٢)	أندريه ريمون	ناصر أحمد وباتسى جمال الدين
٨٢٠-	هملت (مسرحية) (ميراث الترجمة)	وليم شكسبير	طانيوس أفندى
٨٢١-	هفت بيكر (شعر)	نور الدين عبد الرحمن الجامى	عبد العزيز بقوش
٨٢٢-	فن الرباعى (شعر)	نخبة	محمد نور الدين عبد المنعم
٨٢٣-	وجه أمريكا الأسود (شعر)	نخبة	أحمد شافعى
٨٢٤-	لغة الدراما	دافيد برتش	ربيع مفتاح
٨٢٥-	عصر النهضة فى إيطاليا (جـ١) (ميراث الترجمة)	ياكوب بوركهارت	عبد العزيز توفيق جاويد
٨٢٦-	عصر النهضة فى إيطاليا (جـ١) (ميراث الترجمة)	ياكوب بوركهارت	عبد العزيز توفيق جاويد
٨٢٧-	أهل مطروح البدو والمستوطنون والذين يقضون العطلات	دونالد پ.كول وثريا تركى	محمد على فرج
٨٢٨-	النظرية النسبية (ميراث الترجمة)	ألبرت أينشتين	رمسيس شحاتة
٨٢٩-	مناظرة حول الإسلام والعلم	إرنست رينان وجمال الدين الأفغانى	مجدى عبد الحافظ
٨٣٠-	رق العشق	حسن كريم بور	محمد علاء الدين منصور
٨٣١-	تطور علم الطبيعة (ميراث الترجمة)	ألبرت أينشتين وليوبولد إنفلد	محمد النادى وعطية عاشور
٨٣٢-	تاريخ التحليل الاقتصادى (جـ٣)	جوزيف أ شومبيتر	حسن النعيمى
٨٣٣-	الفلسفة الألمانية	فرنر شميدرس	محسن الدمرداش
٨٣٤-	كنز الشعر	ذبيح الله صفا	محمد علاء الدين منصور

٨٣٥- تشيخوف: حياة فى صور	بيتر أوربان	علاء عزمى
٨٣٦- بين الإسلام والغرب	مرثيدس غارثيا	ممدوح البستاوى
٨٣٧- عناكب فى المصيدة	ناتاليا ڤيكو	على فهمى عبدالسلام
٨٣٨- فى تفسير مذهب بوش ومقالات أخرى	نعوم تشومسكى	لبنى صبرى
٨٣٩- أقدم لك: النظرية النقدية	ستيوارت سين وبورين ڤان لون	جمال الجزيرى
٨٤٠- الخواتم الثلاثة	جوتهولد ليسينج	فوزية حسن
٨٤١- هملت: أمير الدانمارك	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٨٤٢- منظومة مصيبت نامه (مج٢)	فريد الدين العطار	محمد محمد يونس
٨٤٣- من روائع القصيد الفارسى	نخبة	محمد علاء الدين منصور
٨٤٤- دراسات فى الفقر والعولمة	كريمة كريم	سمير كريم
٨٤٥- غياب السلام	نيكولاس جويات	طلعت الشايب
٨٤٦- الطبيعة البشرية	ألفريد أدلر	عادل نجيب بشرى
٨٤٧- الحياة بعد الرأسمالية	مايكل ألبرت	أحمد محمود
٨٤٨- تاريخ الدولة العربية (ميراث الترجمة)	يوليوس ڤلهاوزن	عبد الهادى أبو ريدة
٨٤٩- سونيتات شكسبير	وليم شكسبير	بدر توفيق
٨٥٠- الخيال، الأسلوب، الحداثة	مقالات مختارة	جابر عصفور
٨٥١- الطب التجريبى (ميراث الترجمة)	كلود برنار	يوسف مراد
٨٥٢- العلم والحقيقة	ريتشارد دوكنز	مصطفى إبراهيم فهمى
٨٥٣- العمارة فى الأندلس: عمارة المدن والحصون (مج١)	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٨٥٤- العمارة فى الأندلس: عمارة المدن والحصون (مج٢)	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٨٥٥- فهم الاستعارة فى الأدب	جيرارد ستيم	محمد أحمد حمد
٨٥٦- القضية الموريسكية من وجهة نظر أخرى	فرانثيسكو ماركيث بيانو بيانويا	عائشة سويلم
٨٥٧- نادجا (رواية)	أندريه بريتون	كامل عويد العامرى
٨٥٨- جوهر الترجمة: عبور الحدود الثقافية	ثيو هرمانز	بيومى قنديل
٨٥٩- السياسة فى الشرق القديم	إيڤ شيمل	مصطفى ماهر
٨٦٠- مصر وأوروبا	ڤان بملن	عادل صبحى تكلا
٨٦١- الإسلام والمسلمون فى أمريكا	جين سميث	محمد الخولى
٨٦٢- بيفاء الكاكاتو	أرتور شنيتسلر	محسن الدمرداش
٨٦٣- لقاء بالشعراء	على أكبر دلفى	محمد علاء الدين منصور
٨٦٤- أوراق فلسطينية	دورين إنجرامز	عبد الرحيم الرفاعى
٨٦٥- فكرة الثقافة	تيرى إيجلتون	شوقى جلال
٨٦٦- رسائل خمس فى الآفاق والأنفس	مجموعة من المؤلفين	محمد علاء الدين منصور
٨٦٧- المهمة الاستوائية (رواية)	ديڤيد مالوف	صبرى محمد حسن
٨٦٨- الشعر الفارسى المعاصر	ساعد باقرى ومحمد رضا محمدى	محمد علاء الدين منصور
٨٦٩- تطور الثقافة	روبن دونبار وآخرون	شوقى جلال
٨٧٠- عشر مسرحيات (جـ١)	نخبة	حمادة إبراهيم
٨٧١- عشر مسرحيات (جـ٢)	نخبة	حمادة إبراهيم
٨٧٢- كتاب الطاو	لاوتسو	محسن فرجانى

٨٧٣-	معلمون لمدارس المستقبل	تقرير صادر عن اليونسكو	بهاء شاهين
٨٧٤-	النهر الخالد (مج١)	جاويد إقبال	ظهور أحمد
٨٧٥-	النهر الخالد (مج٢)	جاويد إقبال	ظهور أحمد
٨٧٦-	دراسات في الموسيقى الشرقية (جـ١)	هنرى جورج فارمر	أماني المنياوي
٨٧٧-	أدب الجدل والدفاع في العربية	موريتس شتينشنيدر	صلاح محجوب
٨٧٨-	ترحال في صحراء الجزيرة العربية (جـ١، مجـ١)	تشارلز دوتي	صبرى محمد حسن
٨٧٩-	ترحال في صحراء الجزيرة العربية (جـ١، مجـ٢)	تشارلز دوتي	صبرى محمد حسن
٨٨٠-	الواحات المفقودة	أحمد حسنين بك	عبد الرحمن حجازى وأمير نبيه
٨٨١-	المستنيرون : خدمة وخيانة	جلال آل أحمد	سلوى عباس
٨٨٢-	أغاني شيراز (جـ١) (ميراث الترجمة)	حافظ الشيرازى	إبراهيم الشواربى
٨٨٣-	أغاني شيراز (جـ٢) (ميراث الترجمة)	حافظ الشيرازى	إبراهيم الشواربى
٨٨٤-	تعلم الأطفال الصغار	باربرا تيزار ومارتن هيوز	محمد رشدى سالم
٨٨٥-	روح الإرهاب	جان بودريار	بدر عروديكى
٨٨٦-	الترجمة والإمبراطورية	دوجلاس روبنسون	ثائر ديب
٨٨٧-	غزليات سعدي (شعر)	سعدى الشيرازى	محمد علاء الدين منصور
٨٨٨-	أزهار مسلك الليل (رواية)	مريم جعفرى	هويدا عزت
٨٨٩-	سارتورس (ميراث الترجمة)	وليم فوكنر	ميخائيل رومان
٨٩٠-	منتخبات أشعار فراغي	مخدومقلي فراغي	الصفصافى أحمد القطورى
٨٩١-	مفاوضات مع الموتى	مارجريت أتوود	عزة مازن
٨٩٢-	تاريخ المسيحية الشرقية	عزيز سوريال عطية	إسحاق عبيد
٨٩٣-	عبادة الإنسان الحر	برتراند راسل	محمد قدرى عمارة
٨٩٤-	الطريق إلى مكة	محمد أسد	رفعت السيد على
٨٩٥-	وادى الفوضى (رواية)	فريدريش دورينمات	يسرى خميس
٨٩٦-	شعر الضفاف الأخرى	نخبة	زين العابدين فؤاد
٨٩٧-	اختراق الجزيرة العربية	ديفيد جورج هوجارث	صبرى محمد حسن
٨٩٨-	الإسلام والعلم	برويز أمير على	محمود خيال
٨٩٩-	الدبلوماسية الفاعلة	بيتر مارشال	أحمد مختار الجمال
٩٠٠-	تيارات نقدية محدثة	مقالات مختارة	جابر عصفور
٩٠١-	مختارات من شعر لي جاو شينج	لي جاو شينج	عبد العزيز حمدى
٩٠٢-	آلهة مصر القديمة وأساطيرها	روبرت أرنولد	مروة الفقى
٩٠٣-	أفلام ومناهج (مج١)	بيل نيكولز	حسين بيومى
٩٠٤-	أفلام ومناهج (مج٢)	بيل نيكولز	حسين بيومى
٩٠٥-	تراث الهند	ج. ت. جارات	جلال السعيد الحفناوى
٩٠٦-	أسس الحوار في القرآن	هيربرت بوسه	أحمد هريدى
٩٠٧-	أرثر.. متعة الحياة (رواية)	فرانسواز جيرو	فاطمة خليل
٩٠٨-	الحلقة النقدية	ديفيد كوزنز هوى	خالدة حامد
٩٠٩-	الفنون والآداب تحت ضغط العولمة	جووست سمايرز	طلعت الشايب
٩١٠-	بروميثيوس بلا قيود	دافيد س. ليندس	مى رفعت سلطان

٩١١-	غبار النجوم	جون جريبين	عزت عامر
٩١٢-	ترجمات يحيى حقى (جـ١) (ميراث الترجمة)	روايات مختارة	يحيى حقى
٩١٣-	ترجمات يحيى حقى (جـ٢) (ميراث الترجمة)	مسرحيات مختارة	يحيى حقى
٩١٤-	ترجمات يحيى حقى (جـ٣) (ميراث الترجمة)	ديزموند ستيوارت	يحيى حقى
٩١٥-	المرأة فى أثينا: الواقع والقانون	روجر جست	منيرة كروان
٩١٦-	الجدلية الاجتماعية	أنور عبد الملك	سامية الجندى وعبدالعظيم حماد
٩١٧-	موسوعة كمبريدج (جـ١)	نخبة	إشراف: أحمد عتمان
٩١٨-	موسوعة كمبريدج (جـ٤)	نخبة	إشراف: فاطمة موسى
٩١٩-	موسوعة كمبريدج (جـ٩)	نخبة	إشراف: رضوى عاشور
٩٢٠-	خليل جبران: حياته وعالمه	جين جبران و خليل جبران	فاطمة قنديل
٩٢١-	لله الأمر (رواية)	أحمدو كوروما	ثريا إقبال
٩٢٢-	الموريسكيون فى إسبانيا وفى المنفى	ميكيل دى إبيالثا	جمال عبد الرحمن
٩٢٣-	ملحمة حرب الاستقلال (شعر)	ناظم حكمت	محمد حرب
٩٢٤-	حتشبسوت: عظمة وسحر وغموض	كريستيان دى روش نوبلكور	فاطمة عبد الله
٩٢٥-	رمسيس الثانى: فرعون المعجزات	كريستيان دى روش نوبلكور	فاطمة عبد الله
٩٢٦-	ترحال فى صحراء الجزيرة العربية (جـ١، مجـ١)	تشارلز دوتى	صبرى محمد حسن
٩٢٧-	ترحال فى صحراء الجزيرة العربية (جـ٢، مجـ٢)	تشارلز دوتى	صبرى محمد حسن
٩٢٨-	سجون الضوء	كيتى فرجسون	عزت عامر
٩٢٩-	نشأة الإنسان (مجـ١)	تشارلس داروين	مجدى المليجى
٩٣٠-	نشأة الإنسان (مجـ٢)	تشارلس داروين	مجدى المليجى
٩٣١-	نشأة الإنسان (مجـ٣)	تشارلس داروين	مجدى المليجى
٩٣٢-	حدائق السحر فى دقائق الشعر (ميراث الترجمة)	رشيدالدين العمرى	إبراهيم الشواربى
٩٣٣-	اللاعقلانية الشعرية	كارلوس بوسونيو	على منوفى
٩٣٤-	محنة الكاتب الأفريقى	تشارلز لارسون	طلعت الشايب
٩٣٥-	تاريخ الفن الألمانى	فولكر جيبهارت	علا عادل
٩٣٦-	بيولوجيا الجحيم	إد ريجيس	أحمد فوزى عبد الحميد
٩٣٧-	هيا نحكى (قصص أطفال)	أحمد ندالو	عبدالحى سالم
٩٣٨-	الأنطولوجيا السياسية عند مارتن هيدجر	بيير بورديو	سعيد العليمى
٩٣٩-	سجن العقل	ستيفن جونسون	أحمد مستجير
٩٤٠-	اليابان الحديثة: قضايا وآراء	مجموعة مقالات	علاء على زين العابدين
٩٤١-	الجماليات لم يولدن بعد	آى كوينى أرماه	صبرى محمد حسن
٩٤٢-	القرن الجديد	إريك هوبسبوم	وجيه سمعان عبد المسيح
٩٤٣-	لقاء فى الظلام	مختارات من القصص الأفريقية	محمد عبد الواحد
٩٤٤-	الكونترابامس	باتريك زوسكيند	سمير جريس
٩٤٥-	أحلام يقظة جوال منفرد (ميراث الترجمة)	جان جاك روسو	ثريا توفيق
٩٤٦-	الزار ومظاهره المسرحية فى إثيوبيا	ميشيل ليريس	محمد مهدى قناوى
٩٤٧-	ماوراء المعنى والحقيقة	برتراند راسل	محمد قدرى عمارة
٩٤٨-	أفريقيا منذ عام ١٨٠٠	رونالد أوليفر وأنتونى أتمور	فريد چورچ بودى

٩٤٩- مقبرة الصدأ	أندريه فيش	نافع معلا
٩٥٠- في علم الكتابة	جاك ديريدا	منى طلبة وأنور مغيث
٩٥١- الاتهام (رواية)	فريدريش دورينمات	عماد حسن بكر
٩٥٢- العبد ومسرحيات أخرى	أميرى بركة	نعيمة عبد الجواد
٩٥٣- مختارات من الشعر الإسبانى (جـ٢)	نخبة من الشعراء	على عبد الروف البمبى
٩٥٤- الأصول الاجتماعية للسياسة التوسعية في عهد محمد على	فرد لوسون	عنان الشهاوى
٩٥٥- الطب والأطباء	سيلڤيا شيفولو	ماجدة أباظة
٩٥٦- نعم، ليست لدينا نيوترونات	أ. ك. ديونى	سمير حنا صادق
٩٥٧- الحركات الاجتماعية (١٧٦٨-٢٠٠٤)	تشارلز تلى	ربيع وهبة
٩٥٨- أصوات على هامش الحرب	مريام كوك	صلاح حزين
٩٥٩- الموريسكيون فى الفكر التاريخى	ميقيل أنخيل بونيس	وسام محمد جزر
٩٦٠- محمد على الكبير	الأمير عثمان إبراهيم وكارولين وطى كورخان	هدى كشرود
٩٦١- شعر الرعاة (ميراث الترجمة)	مختارات من الأدب اليونانى	محمد صقر خفاجة
٩٦٢- مدخل إلى الفلسفة	وليام جيمس إيرل	عادل مصطفى
٩٦٣- منتخبات شعرية	حسن رضا خان الهندى	فاطمة سيد عبد المجيد
٩٦٤- أصول التطرف	كيمبرلى بليكر	هبة روف وتامر عبد الوهاب
٩٦٥- روح مصر القديمة	أنا رويز	إكرام يوسف
٩٦٦- ما وراء الطبيعة فى إيران (ميراث الترجمة)	محمد إقبال	حسين مجيب المصرى
٩٦٧- فن الحرب (مجـ ١)	سون تزى	هشام المالكى
٩٦٨- عالم الخوارق	ج. كوبر	كمال الدين حسين
٩٦٩- التليفزيون خطر على الديمقراطية	كارل بوبر وجون كوندرى	مجدى عبد الحافظ
٩٧٠- ربما فى حلب ذات يوم وقصص أخرى	نخبة	أحمد الشيمى
٩٧١- الأدب الفارسى القديم (ميراث الترجمة)	باول هورن	حسين مجيب المصرى
٩٧٢- الإسهامات الإيطالية فى عهد محمد على باشا	مقالات مختارة	عماد البغدادى
٩٧٣- تطور فن المعادن الإسلامى	أولكر أرغين صوى	الصفصافى أحمد القطورى
٩٧٤- فكرة التطور عند فلاسفة الإسلام	مجدى عبد الحافظ	هدى كشرود
٩٧٥- وقائع انتحار موظف عمومى	ميشيل بيرس	حسن عبد ربه المصرى
٩٧٦- تفهم ذهنية مدمن المُسكرات	أرنولد لودفيج	صبرى محمد حسن
٩٧٧- التعبير عن الانفعالات فى الإنسان والحيوانات	تشارلس داروين	مجدى المليجى
٩٧٨- الإسلام خواطر وسوانح (ميراث الترجمة)	الكونت هنرى دى كاسترى	أحمد فتحى زغلول باشا
٩٧٩- الأدب والالتزام من باسكال إلى سارتر	بونوا دونى	محمد برادة
٩٨٠- الكلمات المفاتيح	رايموند ويليامز	نعيمان عثمان
٩٨١- الكلمة للبنت	فيرنانديث موراتين	السيد عبد المنعم محمود
٩٨٢- اللغة والإنترنت	ديفيد كريستال	أحمد شفيق الخطيب
٩٨٣- روح الاجتماع (ميراث الترجمة)	جوستاف لوبون	أحمد فتحى زغلول باشا

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٢١٠٠٦ / ٢٠٠٥

«تم تصوير وطبع هذا الكتاب من نسخة مطبوعة»

جوستاف لوبون

روح الاجتماع

ينبغى عند البحث فى حال من أحوال الاجتماع أن ينظر إليها من جهتين مختلفتين تماما، وحينئذ ينجلى للباحث أن تعاليم النظر المحض تخالف غالبا تعاليم النظر العملى، وليس من النتائج - حتى نتائج الأبحاث - ما يشذ عن هذه القاعدة إلا يسيرا. ويجب الاهتمام بهذه الصور الصورية أكثر من الاهتمام بتلك الصور الحقيقية لأنها هى التى تتراءى أمامنا وهى التى يمكن للرسم أو لآلة التصوير أن تنقلها إلينا، ومن هنا جاز القول بأن الصورى حقيقى أكثر من الحقيقى فى بعض الأحوال. وعلى هذا يجب على الحكيم الذى يبحث فى الأحوال الاجتماعية أن لا يغفل عما لهذه الأحوال من القيمة العملية بجانب قيمتها العلمية، وأن الأولى هى التى لها شىء من الأهمية فى تطور المدنيات. وملاحظة ذلك تقتضى الحيطة والحذر من الوقوف عند ما قد يسوق إليه الاستنتاج المنطقى.